المركز القومى للترجمة



تأليف: لوبى دى بيغا

قصص مهداة
إلى مارثيا ليوناردا

ترجمة و دراسة: سلوى محمود

قصص مهداة إلى مارثيا ليوناردا

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصص
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد: ١٢١٧
- قصص مهداة : إلى مارثيا ليوناردا
- لوبى دى بيغا
- سلوى محمود
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة قصص :
A Marcia Leonarda
Por: Lope de Vega

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ - فاكس : ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL- Gabalaya st., Opera House, El Gezira, Cairo
E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 2735424 – 2735426 Fax: 27354554

المركز القومى للترجمة

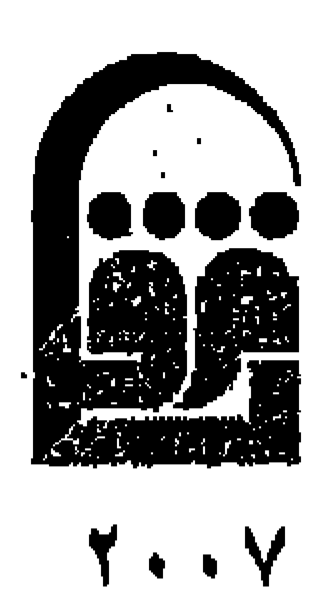
لوبى دى بيغا

قصص مهداة:

إلى مارثيا ليوناردا

ترجمة ودراسة: **سلوى محمود**

مراجعة وتقديم: **جمال عبد الرحمن**



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بيغا ، لوبى دى
قصص مهداة إلى مارثيا ليوناردا تأليف : لوبى دى بيغا ، ترجمة ودراسة : سلوى محمود ؛ مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن ، ط ١ ـ القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٣٠٨ ص ، ٢٠ سم
١ ـ القصص الإسبانية
(أ) محمود ، سلوى (مترجم)
(ب) عبد الرحمن ، جمال (مراجع و مقدم)
٢ ـ العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٧١٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 -250 -6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرس

مقدمة المراجع

لا أظن أحدًا ممَّنْ لديه فكرة أولية عن تاريخ الأدب الإسباني يجهل مكانة لوبي دي بيغا كرائد للمسرح الإسباني في عصره الذهبي. عرفنا لوبي كاتبًا مسرحيًا ، وعرفناه شاعرًا، أما إنتاجه القصصي فلم يحظ باهتمام كبير أو صغير، على الأقل في عالمنا العربي. ولعلي لا أبالغ إذا قلت : إن كتب تاريخ الأدب الإسباني تغفل الحديث عن لوبي قصاصًا، ربما لأن الحديث عن مسرح لوبي يحتاج إلى صفحات كثيرة ولا يريد المؤلفون أن يثقلوا على القارئ، وربما لأن لوبي كان معاصرًا لمؤسس الرواية في إسبانيا - وفي أوروبا - ميغيل دي ثيربانتيس سابيدرا، الذي تتضاءل بجواره قامات كتَّاب الرواية الآخرين.

هذا التجاهل لأحد جوانب أعمال لوبي دي بيغا الأدبية جعلني أقف مشدوهًا أمام بائع للكتب القديمة في مدريد، حين وجدت عنده كتابًا بعنوان "قصص مهداة إلى مارثيا ليوناردا، تأليف: لوبي دي بيغا". اشتريت الكتاب وعدت إلى القاهرة فوضعته على أحد رفوف مكتبتي أملاً في أن أجد وقتًا لقراءته. بعد ذلك شغلتني مخطوطات مكتبة مدريد والقضية الموريسكية، وموقف الكُتَّاب الإسبان من الموريسكيين.

هنا بالتحديد – عند استعراض موقف الكتاب الإسبان من القضية الموريسكية – وجدت من يتحدث عن هذا الكتاب للوبى، فعدت إليه.

العنوان الأصلى للكتاب يتحدث عن روايات **Novelas** ، لكننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن هذا اللفظ فى عصر لوبى وثيربانتيس كان يعنى "قصة" لا "رواية".

تُرى من هى مارثيا ليوناردا تلكَ التى يتوقف لوبى من أُجلها عن الكتابة للمسرح؛ لكى يكتب لها – ربما لها وحدها – أربع قصص كاملة؟

تعرف لوبى على مارتا دى نيباريس – هذا هو الاسم الحقيقى لمارثيا ليوناردا – فى أواخر عام ١٦١٦، وفى ١٦٢١ قرر أن يجرب حظه فى كتابة القصة (يقول المؤلف: إنه فعل ذلك استجابة لطلب مارتا). فى عام ١٦٢٤ فقدت مارتا بصرها. حينئذ كتب ثلاث قصص أخرى. القصص الأربع مهداة إليها.

عندما طلبت مارتا دى نيباريس من لوبى أن يكتب لها قصصًا ، كانت تعنى القصص العاطفية والمغامرات (الموضوعات الغالبة فى القصص الأربع بالفعل هى الحب والشرف والمغامرة)، وكانت هذه القصص حينذاك لا تتبع بناءً محددًا ، وكان أسلوبها متواضعًا. استجاب لوبى لرغبة سيدته وكتب القصة الأولى متبعًا النظام الذى كان يسير عليه من يكتب بناءً على رغبة أحد. فى البداية كان يخشى ألا يوفق فى

سعيه، فقد كان الأمر جديدًا بالنسبة له. تحولت مارثيا ليوناردا إلى ملهمة الكاتب، وإلى شخصية قصصية وقارئة فى وقت واحد.

مارتا -أومارثيا ليوناردا- هى البطلة الحقيقية للقصص. الجدير بالذكر أن لوبى لم يكتف بإهداء مارثيا ليوناردا القصص، بل أهدى إليها أيضًا مسرحية "أرملة من فالنسيا"(١٦٢٠). فى هذه المسرحية تنشأ علاقة غرامية بين الفتاة وشخص كانت تعتقد أنه بائع قصص متجول. القصص التى يرويها الشاب هى التى تغذى علاقة الحب. هناك من يرى أن لوبى كتب قصصه خصيصًا؛ ليكسب عطف المرأة التى أحبها.

هل قلت إن لوبى ربما كتب القصص لمارثيا ليوناردا دون غيرها؟ أعنى ما كتبته بالضبط، فعلى مدى الكتاب كله لا ينسى لوبى أن القصص إنما كتبها إرضاءً للمرأة التى أحبها، وهو يضع رضاها نصب عينيه. أنه يسألها فى ثنايا قصصه إذا كانت راضية عن الأحداث ، ويبرر لها لماذا اختار نهاية بعينها دون سواها، ويفسر لها ما لا تفهم. يفعل لوبى كل ذلك و لا تكاد تخلو صفحة من مخاطبته المرأة التى يكتب من أجلها، حتى أن القارئ ربما يشعر أنه اقتحم على لوبى ومحبوبته عالمهما الخاص.

أركز هنا على التفات المؤلف إلى قارئ حقيقى – مارثيا ليوناردا هنا- فى وقت يسرد فيه أحداثًا من وحى خياله. هذا الخلط بين الواقع والخيال لم يشهده عالم القصة الإسبانية إلا فى أوائل القرن

العشرين (انظر مثلاً "القديس مانويل بوينو شهيدًا" لميغيل دى أونامونو. انظر كذلك بعض أعمال بيريث دى أيالا). هناك أمر آخر: القصص تحفل بالإشارة إلى كتَّاب ينتمون إلى الحضارة اليونانية والرومانية القديمة. صحيح أن هذه إحدى خصائص الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى، لكن يجب ألا ننسى أن من بين خصائص الرواية الإسبانية فى القرن العشرين الإشارة إلى كتَّاب من ثقافات أخرى. يتحدث لوبى عن نفسه فى هذه القصص بين الحين والآخر، وهذه أيضًا إحدى علامات الرواية الإسبانية فى القرن العشرين (انظر أعمال أونامونو وبيريث دى أيالا وبيو باروخا وغيرهم). ثمة خاصية أخرى مهمة للغاية نلمحها فى قصص لوبى: المؤلف يتعرض بالنقد لبعض التيارات الأدبية المعاصرة له، وينتقد كذلك بعض الكتب التى نشرت آنذاك. كل هذا يقترب من نوع "الرواية التأملية" التى كتبها بامتياز بيريث دى أيالا فى القرن العشرين.

نحن إذن أمام نوع من السرد لم يجد صداه فى الأدب الإسبانى إلا فى القرن العشرين، ولعل هذا وحده يكفى للدلالة على أهمية القصص المهداة إلى مارثيا ليوناردا.

نلاحظ كذلك أن لوبى / فى ثنايا قصصه / أراد أن يضع قواعد لكتابة القصة ، ولم تكن لهذا النوع الأدبى قواعد محددة بعد.

قلنا إن لوبى بشكل أساسى كاتب مسرحى توقف عن ممارسة نوعه الأدبى المفضل؛ ليستجيب لرغبة محبوبته. لكن المؤلف لم يتخل

عن مسرحه تمامًا ؛ إذ نلاحظ فى هذه القصص أثر المسرح. المؤلف ككاتب مسرح يعود إلى خبرته فى الحبكة ليستخدمها فى قصصه، لقاءات غير مرغوب فيها ، لقاءات تحدث بالمصادفة، نساء يتنكرن فى ملابس الرجال،...إلخ. نجد فى هذه القصص أن لوبى مؤلف وشخصية قصصية فى آن واحد ، بل نجده أحيانًا يقوم بدور الملقن فى المسرح. إن أثر المسرح واضح هنا لدرجة أن هناك من يقول إنه بالإمكان تقسيم القصص إلى فصول. هناك أثر مسرحى واضح فى القصص ، يكمن فى اغـــفـــال المـــؤلف لذكر الألوان والأشـــكال فى المشاهد التى يصفها ؛ إذ ينسى أن القصص جمهورها من القراء لا من المشاهدين[١].

الجانب الثانى الذى أريد أن أتحدث عنه فى هذه المقدمة هو علاقة لوبى دى بيغا بالقضية الموريسكية. إذا كان موقف ثيربانتيس من هذه القضية معقدًا إلى أقصى حد (فقد عاش أسيرًا بين المسلمين، وبالتالى عرفهم عن قرب فهاجمهم أحيانًا، ودافع عنهم أحيانًا أخرى) فإن وضع لوبى مختلف تمام الاختلاف. كان لوبى يؤمن بأنه "إذا كان الجمهور المتلقى أحمق" فعلى الكاتب أن يخاطبه "بلغة حمقاء" ، فالمهم عنده إرضاء الجمهور "فهو الذى يدفع"؛[٢] لذلك لم يتعب لوبى نفسه فى تفهم قضية الموريسكيين، وساير الاتجاه الرسمى العام الذى كان يرى أن الموريسكيين كانوا بمثابة عضو فاسد تم استئصاله، وكتب ذات مرة يمتدح الملك فيليبى الثالث "لأنه نظيف فقد نظَّف إسبانيا من الموريسكيين".

تحدث الباحثون كثيرًا عن العلاقة بين لوبى دى بيغا والموريسكيين، وقد خصص الكاتب الإسبانى كثيرًا من مسرحياته للحديث عن الموريسكيين، فكتب مسرحيات بعنوان "الشريف ابن سراج" *El hidalgo Bencerraje*، و"ابن رضوان" *El hijo de Raduan* و "بدرو كاربونيرو" *Pedro Carbonero*، و "العلاج فى البؤس" *El remedio en la desdicha*، و"حصار مدينة سانتا فى" *El cerco de Santa Fe*، و"العالم الجديد الذى اكتشفه كولون" *El nuevo mundo descubierto por Cristóbal Colon* وغيرها. [٣]

تبدو صورة الموريسكى سيئة فى الجزء الأعظم من هذه المسرحيات، والموريسكيون الطيبون الذين يظهرون فى مسرح لوبى "مسيحيون فى داخلهم و ينتهى بهم الأمر إلى اعتناق المسيحية". [٤] الجدير بالذكر أن لوبى لا يساوى بين الموريسكيين والمسيحيين إطلاقًا، فهو دائمًا يبرز تفوق المسيحى و"يخونه الذكاء فى غالب الأحوال". [٥]

وتبدو العلاقة بين لوبى والموريسكيين أكثر تشابكًا، فمسرحية "قروية من خيتافى **La villana de Getafe** مستمدة إلى حد ما من حياة الكاتب نفسه كما يذكر ماركيث بيانويبا [٦]: كان شغله الشاغل هو دحض الأقاويل التى تحط من شأن نسبه. أراد لوبى توضيح أن اتهامه بأنه ينحدر من أصول موريسكية لا يعدو كونه دعابة...." [٧]

يتحدث خايمى أوليفر أسين فى دراسته للمخطوطة S-2 [٨] عن إعجاب لاجئ تونسى – وهو مؤلف المخطوطة - بالكاتب المسرحى الإسبانى، ونلاحظ فى المخطوطة التى نتحدث عنها الآن، أن الموريسكى يشير إلى " الشاعر" دون أن يحدد اسمه. وقد رأينا أن شخصًا ما قد كتب بالقلم الرصاص كلمة "لوبى" بجوار كلمة "الشاعر". الجدير بالذكر أن إدواردو سابيدرا – فى وصفه للمخطوطة – يذكر أنها تتضمن مقطوعتين شعريتين للوبى دى بيغا. وإذا كان أوليفر أسين نفسه يعترف بصعوبة العثور على أصل أبيات لوبى التى يذكرها الموريسكى[٩] – نظرًا لضخامة الإنتاج الأدبى الذى خلفه الشاعر الإسبانى– فليس بوسعنا إلا أن نقول: إن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لنا.

وبعد ، فنحسب أننا نقدم للقارئ العربى كتابًا مثيرًا يثبت فيه لوبى دى بيغا – فى رأينا – أن انشغاله بالمسرح هو الذى حال دون أن يكون له شأن عظيم فى عالم الرواية ، ونرى من خلاله أن القضية الموريسكية لم تغب يومًا عن اهتمام الكتّاب الإسبان الذين عاصروا مأساة المسلمين فى الأندلس بعد سقوط دولتهم وبعد مرور أكثر من قرن على غروب شمس الإسلام عن أوروبا.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

الهوامش

(١) F. L. Yudin, "The novela corta as commedia: Lope's *Las fortunas de Diana*". en *Bulletin of Hispanic Studies*, XLV, (1968), pp. 180-186

(٢) نستخدم هنا تعبيرات الكاتب نفسها. (المراجع).

(٣) Soledad Carrasco de Urgoiti: *El moro de Granada en la literatura*, Universidad de Granada, Granada, 1989, pp. 87-88.

(٤) المرجع نفسه ص ٨٧.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) Lope de Vega: *La villana de Getafe*, estudio, edición y notas de José Mª Diez Borque, ed. Orígenes, Madrid, 1990. p.12

(٧) المرجع نفسه.

(٨) صدرت حاليًا طبعة للمخطوطة توفى الدكتور غالميس دى فوينتيس قبل إتمامها فأكملها الدكتور بيابيردى ، أما المقدمة فكتبتها الدكتورة لوثى لوبيث بارالت.

(٩) Oliver Asin: op. cit.,p. 419

مقدمة المترجمة

التعريف بالكاتب

من الجدير بالذكر أن لوبى دى بيغا وهو من عمالقة كتّاب المسرح الإسبانى، يكتب قصصًا بالبراعة نفسها التى ينظم بها الشعر؛ لكن لا يجب أن ننسى أنه على الرغم من مهارته الأدبية فى كتابة القصة فإنه لم يعر هذا اللون الأدبى اهتمامًا كبيرًا؛ ولكن قبل أن نتحدث عن مؤلفاته القصصية، نود أن نعطى لمحة سريعة عن حياة هذا الكاتب، فاسمه هو فليكس لوبى دى بيغا و كاربيو، من مواليد مدينة مدريد (١٥٦٢ ــ ١٦٣٥)، هذا الكاتب الإسبانى كانت له حياة غير مستقرة، جمع إنتاجه الأدبى الغزير بين التراث الشعبى والتيار الثقافى لعصر النهضة.

مؤلفاته من الشعر متنوعة بدرجة كبيرة جدًا، فمنه الشعر الحماسى، والأسطورى، والمحاكاة، والقصائد القصيرة، التى يستخدمها فى كثير من الأحيان للتعبير عن ذاته. وله مؤلفات فى النثر، ونذكر أن أول رواية نشرت له كانت رواية تتعلق بحياة الرعاة وهى *لاأركاديا* (١٥٩٨). ومن أشهر مؤلفاته (*لادوروتيا*).

أما بالنسبة لإبداعاته فى الكتابة للمسرح فقد كانت غزيرة جـداً، حتى أنها وصلت إلى (١٤٠٠ عمل مسرحى يتناول الحيـاة الدنيويـة و٤٠٠ مسرحية دينية). وقد أرسى قواعـد ومبـادئ ظلـت محـددة ومعروفة فى *الفن الجديد للإبداع المسرحى* (١٦٠٦). وتتنـوع أيـضًا الموضوعات التى تتناولهـا مـسرحياته، فمنهـا العاطفيـة، ومنهـا الأسطورية، ومنها البطولية (السيف والعباءة)، ومنها الرعوية ومنهـا الدينية. وهناك نوع من المسرحيات اهتم بعرض الفوضـى الـسياسية التى حدثت فى إسبانيا خلال القرن الخامس عـشر، وتتـضمن هـذه المسرحيات الإساءة لمفهوم الشرف من جانب بعض النبلاء.

إلى مارثيا ليوناردا

نعرض فى هذه المقدمة أهم ملامح القصة فى كتابات لوبى دى بيغا، ولذلك سنتناول أهم الموضوعات التى عالجها فى هذه القـصص، وكيفية نسج البناء القصصى بدءًا من العنوان ومرورًا بعنصرى الزمن والمكان، بهدف إثبات مدى ارتباط العنوان بمضمون القصة. وبما أننا سنستعرض البنية الروائية، فإننا لن نغفل الحديث عن عنصر من أهـم العناصر وهو الشخصيات التى تشغل هذا الفـراغ، والتـى لهـا دور رئيسى على مسرح الأحداث، وسننهى المقدمة بالحديث عن اللغة التى استخدمها المؤلف لإيصال أفكاره وأهدافه إلـى القـارئ. وسـنحاول جاهدين إثبات مدى توفيق المؤلف فى اختيار نقطتى البداية والنهاية فى

كل عمل . والقصص الأربع: "أقدار ديانا"، و"تعيس بسبب الكرامــة"، و"انتقام عاقل"، و"قُزمان الشجاع"، يمكــن أن تتــدرج تحــت مفهــوم القصص الاجتماعى، ومع هذا فهى ليست قصصًا اجتماعيًا بالدرجــة الأولى، ويمكن اعتبارها رومانسية، نظرًا لتوافر بعض شــروط هــذا النوع فيها، وأيضًا يمكن اعتبار كل من "تعيس بسبب الكرامة" و"انتقام عاقل" قصصًا تحتوى على بعض ملامــح القــصة النفــسية. وهــذه المجموعة القصصية تحتوى على موضوعات متنوعة، وهــذا التنــوع يمتد ليشمل عناصر الزمن والمكان والشخــصيات وحتــى الأهــداف الروائية؛ ولكن هناك بعض القواسم المشتركة فيما بينها.

موضوعات رئيسية

ربما كان موضوع **العشق** هو الخيط الذى يربط بينها جميعًــا؛ وكذلك موضوع **الخيانة**، التى تؤدى إلى القتل، هو موضوع آخر يطل برأسه فى هذه المجموعة القصصية ويعتبر قاسمًا مشتركًا بينها، وهــو من القضايا التى كانت تعالج كثيرًا فى مؤلفات تلك الفتــرة . وتتنــاول بعض القصص موضوعات محددة تنفرد بها كل قصة عــن غيرهــا، فمثلاً **إثبات الذات** فى "أقدار ديانا"، و**التمرد** فى "تعيس بسبب الكرامة"، و**الانتقام** فى "انتقام عاقل" ، و**الفروسية** فى "قُزمان الــشجاع". وقبــل الدخول فى عرض لهذه الموضوعات ننبه إلى أن هذه القصص تتوافر

فيها كل العناصر اللازمة لبناء القصة من حيث المقدمـة والأحـداث والأزمة أو العقدة ثم الحل.

فإذا تحدثنا عن موضوع **العشق** الذى يربط بين هذه القـصص فإننا نجد أن بطلى القصة الأولى "أقدار ديانا"، وهما ثليو وديانا، يعشق كل منهما الآخر، وبعد عدة لقاءات حميمة يتفقان على الـزواج، لكـن أقدار ديانا كانت لها بالمرصاد مما حال دون إتمام هذه الرغبة طـوال أحداث القصة؛ حيث عصفت بهما الأحداث وأبعدت كل منهمـا عـن الآخر. وبعد رحلة طويلة استمرت عدة شهور، ضاعت خلالها ديانـا بين الحقول والمزارع، وذهب ثليو إلى بلاد بعيدة بعد ارتكابه جريمـة قتل. جمع بينهما القدر من جديد عند نهاية القصة، بعدما ابتسم الحـظ لديانا وجعل منها نائبًا للملك فى بلاد العالم الجديد؛ حيث تعرفت علـى ثليو الذى تغيرت ملامحه بسبب الحزن والحرمان ثم عادا إلى إسبانيا، وتم زواجهما وبهذا الحدث تنتهى أحداث هذه القصة.

أما فى القصة الثانية، "تعيس بـسبب الكرامـة"، فيقـع بطلهـا فليساردو فى عشق فتاة إيطالية اسمها سيلبيا، ونتيجة لكثرة تودده إليها وميلها له يصل بهما العشق إلى ذروته، لكنه يتركهـا؛ ليرحـل إلـى نابولى ومنها إلى القسطنطينية بعدما يكتشف أصله الموريسكى. فتغرق وحدها فى أحزانها وتكرس حياتها لتربية طفلها ثمرة هذا العشق، ثـم يعودان ويلتقيان بالمصادفة ويعيشان معًا لفترة قصيرة ينعمـان فيهـا بالحب ثم تمتد إليها يد القَدَر لتفرق بينهما فراقًا أبديًا.

يعتبر موضوع العشق فى " انتقام عاقل" هو الموضوع الرئيسى الذى تتفرع منه الموضوعات الأخرى؛ إذ أنه نتيجة عشق ليساردو، ذلك الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، للاورا، تلك الفتاة الجميلة التى تعيش مع أبويها فى ثراء كبير. تتعثر الظروف وتتشابك الأحداث فى موجة من العنف ينتج عنها تورط ليساردو فى جريمة قتل أجبرته على الرحيل إلى بلاد العالم الجديد، مما غير مجريات الأمور ودفع والد لاورا للبحث عن حيلة لإقناعها بالزواج من رجل آخر، بعد غياب ليساردو عامين، فتتزوج من مارثيلو. ثم تعود نار العشق لتشتعل من جديد مع عودة ليساردو إلى إشبيلية؛ وبعد عدة لقاءات سرية بينهما يكتشف الزوج هذه الخيانة فى نهاية المطاف، وتنتهى قصة الحب الكبير بكارثة أكبر، حيث يتحول العشق إلى نكبة قضت على حياة كل من ليساردو ولاورا وكل منْ ساعدهما على هذه العلاقة. وإذا أمعنا النظر فى هذا الموضوع فسنجد أن الكاتب حكم على هذه العلاقة منذ بدايتها بالفشل، وجعل من استغراق البطلين فى محاولة استمالة كل منهما الآخر بهدف الوصول للزواج، ذريعة لظهور أحداث جديدة فى المنتصف مما أفسد هذه العلاقة؛ ليدفع بعد ذلك الأحداث فى قناة تنصب فى دائرة الانتقام.

وعلى الرغم من أن العشق فى "قزمان الشجاع" لا يحتل المكانة الأولى بين الموضوعات، فإن له أهمية قصوى، فبسببه رحل بطل هذه القصة السيد فليكس دى قُزمان عن الأراضى الإسبانية إلى إيطاليا ثم إلى فلاندس، إلى أن وقع فى الأسر وقادوه إلى تونس. والفرق هنا

كبير جدًا، حيث إنه كان ضحية هذا العشق، ولم يكن طرفًا فاعلاً فيه ولم يعشق تلك الفتاة التى كانت تطارده وكانت تدعى فليثيا. وعاد هذا الموضوع ليطل برأسه من جديد بين صفحات هذه القصة عندما كان السيد فليكس أسيرًا فى تونس. لكن فى هذه المرة كان هذا الإحساس يربط بين سوسانا ابنة الرجل اليهودى الذى اشتراه والغلام مندوثا، الذى كان يرافق السيد فليكس وبالطريقة نفسها حيث كان حبًا من طرف واحد. ولكن من أهم النتائج التى أسفر عنها هذا الشعور هو أن سوسانا أعطت لكل منهما مطلق الحرية فى التصرفات فى غياب أبيها. كما أدى إلى الكشف عن شخصية مندوثا، التى فوجئ القارئ بأنه ليس إلا تلك الفتاة التى كانت تطارد السيد فليكس وتسببت فى ارتكابه جريمة قتل، لكنها متنكرة فى زى رجل. ومن بين ثنايا هذه القصة يحكى الراوى عن عشق ملك تونس لفاطمة أجمل فتاة فى أفريقيا، التى من أجلها خاض بالاشتراك مع السيد فليكس وآخرين مبارزة قوية وشرسة ضد ملك آخر. كان منافسًا له على حب الفتاة ، وانتهت بفوز ملك تونس؛ وكان نتيجة ذلك أنه منح السيد فليكس حريته فعاد لإسبانيا.

إذا نظرنا نظرة عامة شاملة للقصص الأربع نجد أن درجة عمق هذا الموضوع ومعالجته والأثر الذى أسفر عنه تختلف فيما بينها. فبينما انتهى فى "أقدار ديانا" بالجمع بين بطلى الرواية بواسطة الزواج وهو حدث سعيد بالطبع، انتهى الأمر بقتل فليساردو فى "تعيس بسبب الكرامة"، وبمأساة كبرى فى " انتقام عاقل"، حيث قُتِلت لاورا،

وخادمتها، وقُتل ليساردو وخادمه كما قُتل العبد الذى شارك فى عملية قتل لاورا. بينما انتهى هذا الموضوع فى "قُزمان الشجاع" بصداقة بين فليثيا والسيد فليكس.

أما بالنسبة لموضوع الخيانة على الرغم من أنه متكرر فى القصص الأربع فإنه يحتل المقام الأول فى بعضها، ويتراجع إلى الصفوف الخلفية فى البعض الآخر. ففى "أقدار ديانا" يتعرض أوكتابيو لخيانة ثليو، الذى يتسبب فى هروب ديانا من بيت أخيها وسرقة مجوهرات أمها؛ ولكن بسبب صداقة ثليو لأوكتابيو يحاول الأول إثبات حسن نيته، وفى هذه المحاولة يضطر لقتل ربان السفينة الذى استولى على المجوهرات المذكورة عن طريق الخطأ. فهنا نجد أن الخيانة قادته إلى جريمة قتل.

لكن الأمر يختلف فى الحكاية التالية فلم يكن دافع الخيانة فى "تعيس بسبب الكرامة" بسبب العشق، بل بسبب الإحساس بالكرامة والوطنية وشدة العداء للمسلمين؛ مما دفع البطل فليساردو إلى تغيير اسمه إلى سيلبيو باشا فى القسطنطينية. ورغم أنه من أصل موريسكى فقد كان مُصرًّا على القيام بواجب عظيم وبطولة تخلد اسمه من أجل ملك إسبانيا؛ فكانت دوافعه لخيانة السلطان التركى تعبر عن تلك الرغبة فى التخلص من جذوره الموريسكية، والرغبة فى تحقيق بطولات ومآثر حربية. فالعشق هنا لم يكن لامرأة محددة الملامح ومعروفة الهُوية، بل كان للبلد الذى عاش فيه حتى سن الشباب؛ فكان عشقه لإسبانيا هو الذى قاده للقيام بحملة بحرية فاشلة نحو صقلية

كشفت عن خيانته للسلطان التركى وأدت فى النهاية إلى مصرعه. هذه الخيانة كانت على مستوى أبطال الرواية، لكن هذا الموضوع امتد أيضًا على مستوى الشخصيات الثانوية، حيث خان ناصف باشا السلطان التركى، وكشف عن هذه الخيانة محمود ثيجالا وانتهت خيوط المؤامرة بإعدام ناصف باشا بأمر من السلطان. كذلك خانت السلطانة ماريّا، وهى من أصل أندلسى السلطان التركى وعشقت فليساردو، وحاولت الهروب معه لإسبانيا على متن الباخرة التى تعرضت للعواصف وأطاحت بها الرياح.

يحتل موضوع الخيانة فى "انتقام عاقل" المكانة الأولى بين الموضوعات؛ حيث ترتب على خيانة لاورا لزوجها مارثيلو، الذى شعر بالغدر والخداع، أنه وضع خطة محكمة للانتقام لشرفه وغسل عاره ومحو الإهانة التى كان يشعر بها. فبدأ انتقامه بقتل زوجته ثم الخدم وأخيرًا بقتل البطل ليساردو الذى دفع حياته ثمنًا لخيانته حيث غرق ليلاً فى النهر. أما فى "قُزمان الشجاع"، فقد دفع الحقد والغيرة فليثيا للكذب على ليونيلو وادعت أن السيد فليكس كان يراودها عن نفسها مما أوغر صدر ليونيلو. ترتب على هذه الخيانة فساد علاقة الصداقة بين فليكس وليونيلو، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى أن واجه كل منهما الآخر فى مبارزة شرسة سقط فى إثرها ليونيلو صريعًا، وخرج السيد فليكس من إسبانيا إلى بلاد غريبة. وهكذا فقد وجدنا أن الخيانة قادت أصحابها إلى ارتكاب جرائم قتل و كانوا أحيانًا هم القتلى.

موضوعات ثانوية

أما بالنسبة للموضوعات التى تنفرد بها كل قصة، فإننا نجد أن **إثبات الذات** فى "أقدار ديانا"، موضوع يتخلل صفحات الكتاب ويلعب فيه القدر دور البطولة؛ حيث يساعد ديانا على الانتقال من مكان لآخر ومن مركز لآخر إلى أن وصلت لدرجة الوصيف الخاص لجلالة الملك، ثم نائبة الملك فى العالم الجديد. هذا الموضوع يبين تغلب البطلة على خوفها وهواجسها وشعورها بالفشل، كما كانت تتوهم ذلك. ففى هذه المحاولة المستمرة لإثبات الذات تنكرت فى صورة رجل عمل كخادم فى مزرعة رئيس الرعاة، ثم كخادم فى بيت الدوق، ثم انتقل هذا الخادم الوديع الجميل، ذو الذوق الرفيع ليكون وصيفًا للملك، حيث أحبه لجمال صوته وحسن منظره، ومن هنا منحه الكثير من العطايا ومنها منصب نائب الملك. أدت هذه المحاولة لإثبات الذات إلى تحقيق النجاح والتغلب على الكثير من العقبات؛ ومن أفضل النتائج التى حققتها البطلة هو أن هذا الكفاح قادها فى نهاية المطاف إلى مكان تليو.

وبينما كانت ديانا تنتقل من مكان لآخر بحثًا عن ذاتها، فإننا نجد أن فليساردو يتمرد على ذاته وأصوله فى "تعيس بسبب الكرامة"، **فالتمرد** هنا هو الصفة التى تعكس تصرفات البطل من خلال هجره لمحبوبته سيلبيا وهروبه سرًا من صقلية، ونجد أن البطل تعرض لأزمة نفسية وصراع داخلى من أجل كرامته؛ لأنه شَعَرَ بالرفض لواقعه والتمرد على أُصوله التى اكتشف أنها موريسكية وهو ما أصابه بالخزى والعار والحزن الشديد، فهرب بعيدًا فى محاولة منه للتغلب

على هذا الشعور. فهذا الصراع الداخلى لفليساردو جعل منه رجل ربما قد أصيب بما نسميه بانفصام الشخصية، ولكن ليس هذا بالمعنى الدقيق لطبيعة هذا المرض النفسى، فقد كان سلوكه يدل على ذلك، فبينما كان يحاول كسب ثقة السلطان التركى فى أثناء وجوده فــى القــسطنطينية، وكان يتفانى فى القيام بأعمال تدل على نبله وإخلاصه له. نجــده فــى حقيقة الأمر يحمل فى نفسه عداءً كبيرًا للمسلمين، فكان هــذا الــسلوك مجرد عباءة يخفى تحتها شخصية بطل ثائر على أصــوله ومتمــرد، فنجده كثيرًا ما يسخر من الأتــراك ويــسخر مــن ديــنهم وعــاداتهم وتقاليدهم؛ ولذلك كان يدبر مؤامرة للإطاحة بإحدى الممالــك التابعــة للسلطان التركى. ثم جاءت نهاية هذا التمــرد لــتعلن عــن الموقــف الأخلاقى الواضح الذى اتخذه لوبى دى بيغا تجاه سلوك البطل فجعلــه يدفع حياته فى نهاية الأمر ثمنًا للتمرد والخيانة.

أما موضوع **الفروسية** فهو يحتل مكانًا بــارزًا فــى "قُزمــان الشجاع"، فكل ما تعرض له البطل من مواقف قتالية ومعارك ضــارية أثبتت بطولته الحربية وتفوقه القتالى على غيره. لكن راوى هذه القصة أصر على أن يوضح أن السيد فليكس دى قُزمان بطــل هــذه القــصة يتمتع بفضائل وسمات أخرى غير الشجاعة والبطولة، كالكرم والتسامح والنبل... وهى صفات يتحلى بها الفرسان، لكــن موضــوع البطولــة يفرض نفسه على معظم صفحات القصة؛ حيث استطاع البطل إخضاع البارجة التابعة للسلطان التركى فى إحدى المعــارك البحريــة. كمــا استطاع الفتك بأعداء ملك تونس؛ فكل ما قدمه الراوى من أحداث تدور

حول قوة السيد فليكس وبطولته تعتبر تأكيدًا على شجاعته وبسالته. ولذلك نعتبر أن المؤلف قد وفق فى اختيار العنوان لارتباطه بمضمون القصة التى تدور كلها حول شجاعة السيد فليكس.

البنية القصصية

أما من ناحية البناء القصصى، فإننا نجد أن بنية هذه القصص الأربع بسيطة وغير مركبة. وسبب ذلك يرجع إلى أن المؤلف ألغى فكرة تقسيمها إلى فصول، أو أجزاء، أو فقرات؛ فاعتمد فى المقام الأول على نظام السرد وتسلسل الأحداث بشكل منتظم ومرتب، فلا يوجد تراجع بالأحداث للزمن الماضى ولا توجد قفزات إلى الزمن المستقبل، فكل الأحداث تقدم للقارئ فى تسلسل ونظام مطردين، مما ساعد على بساطة هيكلها البنائى. ويتضح هذا الهيكل البنائى للقصص من خلال تشابك ووحدة عنصرى الزمن والمكان.

(أ) الزمن والمكان

القصة الأولى "أقدار ديانا" تدور أحداثها فى مدينة طليطلة، فى زمن ليس ببعيد عن زمن سرد هذه الأحداث، وليس ببعيد عن الزمن الذى عاشه المؤلف نفسه. ولذلك لجأ لوبى دى بيغا إلى حيلة إخفاء الأسماء الحقيقية لأبطالها كنوع من الحذر. وتتنوع المشاهد فى القصة

بتنوع المكان، فتنتقل الأحداث من المكان الخاص مثل بيت أوكتابيو أو بيت ثليو، إلى المكان العام مثل المراعى والحقول، لكن هذا الانتقال يتم بشكل يجعل من المكان العام والخاص شكلاً متلاحمًا ومتناغمًا فبينما تنتقل المشاهد بين مزرعة فيليس أو بيت الدوق تارة، نراها تارة أخرى تنتقل إلى إشبيلية؛ حيث رحل ثليو فى إحدى السفن لإسبانيا الجديدة، ثم تعود بنا عدسة الراوى لتنقل لنا أقدار ديانا فى قصر جلالة الملك وهكذا.

ومن الجدير بالملاحظة أن المكان الخاص للشخصيات يعكس طبيعة الطبقة التى ينتمون إليها وهى فى معظمها من طبقة النبلاء والأشراف. أما بالنسبة لجو المزرعة وبيت رئيس الرعاة فهو يعكس البيئة القروية والمناخ الريفى ببساطته وجماله. بينما نجد أن لوبى دى بيغا يصف بيوت النبلاء بما يجعلنا نحول خيالنا إلى عيون مبصرة ترى ملامح العظمة والفخامة، بما يتلاءم مع الطبقة التى تنتمى إليها الشخصيات. وهذه البراعة نفسها ترسم لنا لوحة فنية رائعة عندما تنتقل بنا عدسة الأحداث إلى الأماكن المفتوحة، إلى الطبيعة؛ حيث يصف لنا الراوى مناظر الجبال والأنهار والأشجار والطيور، وما يعكسه هذا المنظر من بساطة وعذوبة.

الزمن فى القصة غير متوقف؛ حيث يشير الراوى باستمرار للتعاقب الزمنى من خلال الإشارة إلى الصباح والمساء وتعاقب الليل والنهار وأحيانًا يحدد الساعات الزمنية. وأحيانًا أخرى نجده يلجأ إلى حيلة الخطابات بين بعض الشخصيات وبخاصة بطلى القصة، وذلك

ليدفع بعجلة الزمن لاختصار الكثير من الأحداث. فالقصة فى بــدايتها تتميز بسيطرة الجو الرومانسى الذى يتميز بالرقة والفخامة، ثم نجد أن المؤلف قد نجح فى إيصال هذا الجو إلى درجة حــرارة عاليــة بــين البطلين، وفى تصاعد مستمر للأحداث، حتى وصل كل من ثليو وديانا ــ كما كان القارئ يتوقع ــ إلى إقامة علاقة حميمة، ولم تقف الأحداث عند هذا الحد، بل استمرت فى مزيد من التفاعل فى خط تصاعدى مع تدفق المزيد من المواقف والأحداث من خلال نسيج درامــى متماســك ومتلاحم، على الرغم من تغير مسرح الأحداث حتى وصــلت القــصة إلى أول حبكة فيها وهى اكتشاف هروب ديانا من بيت الأســرة. ثــم عادت الأحداث مرة أخرى للهدوء فى أثناء رحلة البحث عنها، ثم بدأت فى تصاعد جديد عندما ضاعت البطلة وسط الأحراش والمزارع وهى حامل، ثم انفرجت هذه الأزمة بانتقالها مع فيليس وفابيو إلى المزرعة.

فى الواقع هذه القصة بها أكثر من عقدة وحــل، فعلــى ســبيل المثال عندما تصاعدت الأزمة بين ثليو والربان تلك التى انتهت بقتــل الربان، ثم انتقال ثليو إلى سجن فى إسبانيا الجديدة. تــستمر المواقــف والأحداث فى تعاقب مستمر حتى تعود لذروتها من جديد عندما تــصل ديانا إلى إسبانيا الجديدة وتتعرف على ثليو، ثم يأتى الحل الذى تنفــرج به كل الأزمات وهو عودة ديانا وثليو لإسبانيا بعــد إنجــاز مهمتهــا بنجاح، وكسبها حب الشعب والملــك واحترامهمــا، وقــد اســتطاعت الحصول من الملك على أمر بالعفو عن ثليو ثم زواجها بــه. وعــودة الطفل الذى تركته فى مزرعة فيليس ليجتمع شمل الأسرة.

فى نهاية الأمر نعتقد أن لوبى دى بيغا قد بـرع فـى اختيـار عنوان هذه القصة، فكل ما تعرضت له البطلة من أحداث وتقلبات يدل بالدرجة الأولى على التدخل المستمر للقدر فى تغيير مـسار حياتهـا. التناغم المستمر بين عنصرى الزمن والمكان أعطى للقصة لونًـا مـن الإثارة والجاذبية، فضلاً عن الحيوية والحركة التى كانت تتصف بهـا الأحداث، والتى وصلت إلى نهايتها بشكل يخلو من الافتعال. فالقـارئ يصل بسلاسة إلى نقطة النهاية؛ حيث يجيب الراوى بشكل غير مباشر على عدة تساؤلات قد تدور فى ذهن القارئ حـول مـصير الطفـل، وحول معرفة أسرة ديانا بما حدث لها من أقدار، وموقف البلاط الملكى منها بعد عودتها من العالم الجديد بصحبة ثليو. تأتى كل هذه الأخبـار متلاحقة فى السطور الأخيرة للقصة ولكن بشكل لا يـزعج القـارئ؛ حيث تنتهى الحكاية بالنهاية السعيدة، بزواج العاشقين، وقبل أن تنتهـى القصة يعود لوبى دى بيغا ليوجه حديثه للسيدة مارثيا ليوناردا ويكشف عن هويته كشخص من شخصيات القصة؛ حيث قرر أن يذهب بنفـسه إلى طليطلة ليخبر أسرة ديانا بأن أقدار ديانا قد "**انتهت**" وبكلمة انتهـت يضع نقطة النهاية التى يصمت بعدها الراوى.

بالنسبة للبناء القصصى لـ"تعيس بسبب الكرامة" فنجـده بنـاءً بسيطًا؛ حيث تدور الأحداث أولاً فى بلدة تابعة لطليطلة، ثم تنتقل إلـى إيطاليا، ثم إلى القسطنطينية. تدور الأحداث فى الوقت الحاضر، أى فى زمن يعيشه الراوى أو لوبى دى بيغا باعتباره هو الراوى الحقيقى لهذه الأحداث. نعتقد أن أحداث القصة التى تبدأ من العنوان وتستمر حتـى

النهاية تعكس بصدق شقاء فليساردو وتعاسته؛ حيث ينبه الكاتب السيدة مارثيا ليوناردا إلى أن أحداث هذه القصة حزينة ومأساوية. ومع انتقال البطل لإيطاليا يتغير مسرح الأحداث، وتبدأ شخصيات جديدة في الظهور على هذا المسرح، وتبدأ الأحداث فى النمو والتصاعد وخاصة عندما يلتقى فليساردو بسيلبيا التى يحبها ويتنافس معه على حبها السيد إليخاندرو، مما يجعل هذا التنافس يتحول إلى عداء ثم إلى مبارزة قوية تصل بنا إلى أول عقدة فى نسج هذه الحكاية؛ حيث يصاب إليخاندرو بجروح خطيرة ويتم القبض على فليساردو واقتياده إلى نائب الملك. يأتى الحل من خلال تسامح إليخاندرو وعفوه عنه من خلال توسط نائب الملك فيما بينهما. ومع تدافع الأحداث نصل إلى العقدة الثانية؛ وكانت بمثابة مفاجأة للقارئ الذى لم يكن يتوقع الرحيل المفاجئ للبطل الذى ترك سيلبيا وهى حامل وحدها أمام هذه الأزمة. رحيل فليساردو عن صقلية سرًا، يأتى حله بعد صفحات قليلة من خلال رسالة يبعث بها إلى نائب الملك فى صقلية؛ حيث يكشف له عن سر رحيله من هذه المدينة. وهنا نجد مفاجأة أخرى وهى رحيل البطل إلى القسطنطينية.

يقف بنا الراوى على أعتاب مدينة القسطنطينية ليقدم لنا وصفًا مفصلاً عن جغرافية هذا المكان، ويجعلنا من خلال وصفه ننتقل معه بين شوارعها وميادينها ويبهرنا بزيناتها وشكل الأزياء فيها. وتستمر عدسة الراوى فى الانتقال بين صقلية؛ حيث تعيش سيلبيا مع طفلها والقسطنطينية؛ حيث تعشق السلطانة فليساردو الذى يحاول إظهار التفانى فى خدمة السلطان التركى، وتستمر الأحداث على هذا النحو من

التشابك المستمر بين الزمن والمكان وتوالى ظهور الشخصيات حتى اكتشاف مؤامرة ناصف باشا ضد السلطان التركى، التى تنتهى بالفشل. ثم يعود بنا الراوى لنسج باقى أحداث القصة وإضافة عناصر جديدة من التشويق والإثارة حتى نصل إلى أزمة اكتشاف هروب السلطانة واختفاء فليساردو. وهنا يظهر ذكاء لوبى دى بيغا من خلال توظيف كل عناصر الطبيعة والحواس البشرية والشخصيات من خلال وصف دقيق للعواصف الرعدية والأمطار الغزيرة؛ التى فاجأت البطل فى رحلة هروبه مع السلطانة، وكيف أن اضطراب الأمواج وتحطم سفن الأسطول الذى كان يقوده واكتشاف الخطة يتحد مع الشعور بالفوضى والفزع. يرسم المؤلف هذا المشهد بكل دقة كأنه يجعل من الكلمات ريشة فنان ترسم مشاعر الشخصيات؛ وهى فى حالة هلع واضطراب وارتباك من خلال موقف يتصاعد حتى يصل إلى الذروة، وكأن القارئ نفسه أحد ركاب السفينة المنكوبة التى يقودها البطل، والتى تحولت بفعل الرياح إلى حطام عندما ارتطمت بالشاطئ بعد تحطم أشرعتها وحبالها، فرسم لنا بهذه السفن المنكوبة مشهدًا مملوءًا بالدمار والخراب، فضلاً عن سيطرة حالة من الفوضى والغموض من كل جانب. وهكذا جعل هذه العناصر فضلاً عن يقظة السلطان التركى مجتمعة ضد هذا الشاب التعيس الذى فقد كل شىء بسبب تمرده وأوهامه، فيصرع فى النهاية على يد بعض الجنود الأتراك، وتعود السلطانة إلى قصر السلطان التركى الذى يعفو عنها. وتنتهى أحداث هذه الحكاية بموت البطل.

وهكذا نجد أن المؤلف ربط بين عنوان القصة وأحداثها التي تعرض سوء حظ بطلها وتعاسته والتي انتهت أحداثها بشكل مأساوي. على الرغم من انتهاء الحكاية فإن القصة لم تنته بعد، إذ إن الراوي لجأ في آخر سطور منها إلى تلخيص حياة سيلبيا التي حكم عليها القدر بالعيش وحدها مع طفلها الذي تربيه. ثم يختتم لوبي القصة بعدد من أبيات الشعر التي تلخص مأساة فليساردو التعيس بسبب كرامته؛ وهي نهاية مزجت بين موسيقى الشعر وأبياته التي تملؤها الصور البلاغية التي تترك أثرًا كبيرًا في القارئ نفسه، وربما لهذا السبب أنهى لوبي دي بيغا القصة بهذا الأسلوب.

أما بالنسبة لقصة "انتقام عاقل"، فإننا نجد أنفسنا من جديد أمام كاتب يجيد التحرك من موقف إلى آخر ومن مكان إلى مكان آخر داخل هذا البناء القصصي؛ وبشكل يتميز بالسلاسة وعدم الافتعال، فنجد أن الأحداث تبدأ من السطور الأولى وبها كثير من عناصر الإثارة والفضول؛ وهذا ما يدفع القارئ للاستمرار في عملية القراءة حتى يصل إلى نقطة النهاية، وتبدو عبقريته جلية في اختيار العنوان الذي تدور حوله أحداث القصة. ولأنه مفتاح الحكاية ففيه الكثير من الدلالات على موضوعها الرئيسي، الذي أشرنا إليه من قبل وهو "الانتقام".

تقع أحداث هذه الحكاية في مدينة إشبيلية، ويبدأ المؤلف في السطور الأولى بعقد مقارنة بين هذه المدينة الجميلة وعظمة مدينة طيبة التاريخية، ونعتقد أن هذه المقدمة تلعب دورًا مهمًا؛ لأنها بمثابة

الطُعم الذى يغرى القارئ بالاستمرار فى عملية القراءة؛ لأنهــا بدايــة مشوقة وغير مألوفة؛ فضلاً عن أن المؤلف ينبه فى أكثر من مناســبة إلى أن هذه القصة مأساوية؛ فهو يجذب انتباه القارئ باســتمرار إلـــى طبيعة الجو المسيطر على الأحـــداث، ولـــذا وصـــفها منـــذ بـــدايتها بالمأساوية. وهذا أمر يلاحظه القارئ من اللحظة الأولى. وبـــدءًا مـــن العنوان وانتقالاً إلى الأحداث، فالعقدة والحل، فإننا نجد أن كـــل هـــذه العناصر تتلاحم وتتماسك من خلال نسيج قوى متماسك ومترابط وفي علاقة وثيقة مع العنوان؛ الذى يعتبر بوابة الأحداث. فبنية هذه القـــصة قوية تتوافر فيها عناصر الجذب والإثارة من خلال طريقـــة عـــرض الأحداث التى يسردها الراوى بالإضافة إلى ظهور بعـــض الأصـــوات الأخرى التى تكمل الواقع الذى تعيش فيه الشخصيات.

فبينما تنتقل عدسة كاميرا الراوى لترصد الأحداث مـــن مكـــان لآخر، يصل بنا الراوى إلى أول عقدة فى هذا النسيج الروائى؛ حيـــث يحدثنا عن صديق لليساردو اسمه أوكتابيو يعشق إحدى نساء الـــبلاط، التى كانت تتردد على بيت رجل ثرى من بيرو، وتنتهى هذه الأزمـــة بين صديق ليساردو والرجل البيروانى إلى أقصى درجـــات العنـــف؛ حيث تقع بينهم جميعًا وبالاشتراك مع ليساردو مشاجرة يـــسقط علـــى إثرها الرجل البيروانى قتيلاً، ويصاب أوكتابيو بجروح بالغـــة تقـــضى على حياته بعد ثلاثة أيام من المشاجرة، ويهرب ليساردو إلـــى بـــلاد العالم الجديد، تاركًا لاورا وحدها وسط جو مشحون بالذهول والحـــزن والحرمان.

يشير الراوى من خلال الأحداث إلى تعاقب السنين؛ حيث يبين أن لاورا ظلت فى حالة حزن لمدة عامين بعد رحيل ليساردو. وهنا يلجأ الأب إلى حيلة يزوج بها ابنته، وبزواجها يأتى الحل للعقدة الأولى فى القصة. حيث يعود ليساردو بعد انفراج أزمته إلى إشبيلية ليجد محبوبته قد تزوجت بآخر. وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى القصة يتبادل فيها العاشقان الرسائل والاتهامات، وهكذا تصل أحداث القصة من خلال هذه المكاتبات فى خطها التصاعدى إلى ذروة الأحداث عندما تقرر البطلة الإذعان والخضوع لرغبات البطل على الرغم من زواجها. وتستمر العلاقة وتتعدد اللقاءات، حتى يقع خلاف شديد بين ليساردو وخادمه أنتندرو؛ أدى هذا الخلاف إلى تفجير أزمة جديدة فى القصة، وهنا تصل الأحداث إلى ذروتها. ثم يأتى الحل بالتدريج على يد الزوج مارثيلو الذى يتولى عملية الانتقام بالتخلص من لاورا بالقتل، ثم تقع على يده عدة مجازر تنتهى بمقتل ليساردو وبهذا تنتهى الحكاية.

لكن القصة لم تنته بعد؛ حيث يظهر من جديد صوت الراوى الذى يعلق على أن ذلك كان أعقل انتقام. تحتوى كلمات الراوى على بعض الصور البلاغية والطباق، فضلاً عن أن آخر كلمة فى القصة هى كلمة الموت، الذى لا حياة بعده، والموت كلمة دالة على النهاية. ولذلك وضع بعدها المؤلف نقطة النهاية التى يصمت بعدها الراوى. الصور البلاغية يستخدمها لوبى لإحداث أكبر أثر فى نفس القارئ، وهذا الأثر يظل تأثيره ممتدًا ويلازمه حتى بعد الانتهاء من قراءة القصة. من خلال الأحداث، نجد أن لوبى دى بيغا يتبنى مواقف

أخلاقية تدل على معارضته بعض السلوكيات التى تتنافى مع القيم والأخلاق والمبادئ الإنسانية؛ فلا عجب أن نجده يعتذر عن سوء سلوك أو خطأ فى التصرف لبعض الشخصيات، التى يصفها أحيانًا بالتهور والاندفاع. فإذا كان يستنكر سلوك لاورا وسلوك ليساردو، فاستنكاره رد فعل الزوج أمام هذه الخيانة لا يقل حدة بل يصل إلى حد الانتقاد الشديد، فهو يحاول أن يبين أن القتل لا يجب أن يكون مثلاً يحتذى به؛ ولذلك يعترف بأن هذه القصة تحكى لكى تكون عبرة للزوجات المتهورات اللائى يغامرن بسمعتهن وشرفهن وأرواحهن. وأحيانًا نجده يؤيد موقف الشخصية كما هو الحال فى آخر قصة "قُزمان الشجاع" لأنه يعتبر أن سلوك البطل يجب أن يكون مثلاً يحتذى. فهو عندما يقف مثل هذه المواقف ليس هدفه إمتاع القارئ فقط، بل يجعله يستفيد من بعض مواقف الحياة ومن الكوارث التى يمر بها الأبطال حتى يتعلم بعض الدروس.

من ناحية البناء الروائى لهذه القصة فهو بسيط، ونجد أن لوبى دى بيغا يبدأها كعادته بأسلوب يتسم بالطرفة والدعابة من خلال الحديث الذى يوجهه للسيدة مارثيا ليوناردا؛ حيث يقص لها حكاية الفلاح الذى أراد بيع أرنب لفارس، لكن هذا الفارس لم يتحل بأخلاق الفرسان، فسرق الأرنب وفر هاربًا. هذه الطرفة تلعب دورًا كبيرًا فى بداية هذه القصة لأنها فضلاً عن إدخال روح البهجة والمرح على نفس القارئ فإنها تثير اهتمامه لما سيقال فيما بعد، وخاصة أنها ليس لها علاقة بالعنوان ولا بمضمون القصة التى تدور كلها حول شجاعة السيد

فليكس دى قُزمان. والأحداث تدور فى مدينة إسبانية لا يهتم لوبى بذكر اسمها؛ لأن ذلك فى رأيه لا يهم القصة. فى المدينة نفسها يصطحب السيد فليكس صديقه ليونيلو الذى كان يتردد على بيت سيدة- فليثيا- من تلك النساء اللاتى لا يتمتعن بسمعة طيبة. لا يركز لوبى على وصف بيت هذه السيدة، لكنه يركز على الجانب النفسى لها؛ حيث امتد طموحها لاستمالة مشاعر السيد فليكس، وهنا تلجأ فليثيا إلى مراسلة فليكس، وهنا نرى أن الرسائل فى قصص لوبى تؤدى وظيفة العربة التى تدفع بالأحداث إلى الأمام، وتنتهى عملية تبادل الرسائل بيأس فليثيا وشعورها بالإهانة. فتدبر مكيدة تؤدى إلى العداء بين ليونيلو وفليكس. وهنا نصل إلى أول عقدة فى القصة؛ حيث يتصارع كل منهما مع الآخر ويسقط ليونيلو قتيلاً إثر هذا الصراع. تتعرض الأحداث بعد هذه الحادثة للقطع والقفز من مكان إلى مكان آخر. عند الوصول إلى هذه المرحلة يشعر القارئ كأنه أمام قصة جديدة يتحدث فيها لوبى دى بيغا عن شجاعة السيد فليكس ومآثره فى إيطاليا ثم فى فلاندس. يستمر الراوى فى نسج خيوط هذه الحكاية فى تسلسل، ولكن هناك كثير من الاستطرادات والحشو؛ حيث إنه يتحدث عن المعارك التى دارت بين الأتراك وملوك أوروبا، وهذا الاستطراد لا يخدم موضوع القصة، ولذلك فإن حذفه لا يؤثر على سير الأحداث، ولذلك يعطى للسيدة مارثيا ليوناردا الحق والحرية فى حذف كل ما تراه زائدًا عن الحاجة ومن ذلك قوله: "تعلمون حضرتكم (...) بأننى أزيد عن ما هو معقول، فاحذفوا واتركوا ما قد يخدم الغرض" (قُزمان الشجاع).

يظهر الكاتب من خلال هذه الاستطرادات والخروج عن نص الرواية براعته فى سرد بعض المعلومات التاريخية أو السياسية أو الفلسفية.. إلخ.

وبعد عدد من الصفحات تناول فيها الحديث عن المعارك والبطولات لبعض ملوك أوروبا. يعود الراوى ليستأنف من جديد الحديث عن السيد قُزمان الشجاع الذى أهمل لعدة سنوات فى فلاندس. وعند رحيله عن هذه البلاد تبدأ أحداث القصة من جديد بصحبة الغلام مندوثا؛ حيث يتعرض كل منهما للأسر، ثم البيع لرجل يهودى فى تونس اسمه ديفيد، وتبدأ الأحداث في نمو وتصاعد مستمرين، حيث تعشق سوسانا ابنة ديفيد الغلام مندوثا، ويتواعدان اللقاء سرّا فى غياب الأب. ولكن هنا يجد القارئ نفسه أمام إحدى المفاجآت التى تتفجر مع تدفق أحداث هذه القصة؛ حيث يكتشف أن مندوثا ليس إلا تلك المرأة "فليثيا"، ثم يحاولان معًا وضع خطة حتى لا تكشف سوسانا أمرهما. يعود الراوى من جديد بعد تفادى تفجير أزمة مندوثا مع سوسانا إلى سرد الأحداث فى اتجاه جديد يكشف فيه عن القدرات البدنية والأخلاقية والنفسية للسيد فليكس؛ حيث يتعرض وهو بصحبة ديفيد للاستفزاز من جانب رجل مسلم تعرّض لديفيد بالضرب ولفليكس بالإهانة مما اضطره لقتل هذا الرجل، وهذه تعتبر ثانى أزمة فى القصة؛ حيث يطالب المسلمون بإعدام السيد فليكس، الذى اقتادوه إلى ملك تونس. ومن هنا تتوالى المفاجآت التى تكشف عن الشخصية الحقيقية للسيد

فليكس دى قُزمان الذى يعترف بأصله النبيل، وشرفه الرفيع أمام ملـك تونس؛ الذى يمنحه الحماية وفرصة الدفاع عنه فى منافسة ضد ملـك بوتويا، وتستعر المبارزة وتنتهى كما كان يتوقع القارئ بفـوز الـسيد فليكس دى قُزمان وملك تونس. وتستمر الأحداث حاملـةً كـل جديـد لمصلحة السيد فليكس ومندوثا الذى كشف عن هويته سـرًا لـسوسانا، وهنا تنفرج أزمة مندوثا وسوسانا. وتنتقل أحداث القصة إلـى مكـان جديد؛ حيث يرحل بطلا القصة من تونس ويعودان إلى إسبانيا. وقرب نهاية أحداث الحكاية يضع المؤلف نهاية لقصة كل من البطلين؛ حيـث تتزوج فليثيا من رجل ثرى، ويرحل فليكس إلى بلدته؛ حيث يبدأ هناك أزمة جديدة بسبب حبه لفتاة من النبلاء، لكن هذه الأزمة سـرعان مـا تنتهى بزواجه منها. وفى هذا الجزء الأخير مـن الحكايـة تتـصاعد الأمور والأحداث إلى حدّ تفجير أزمة جديدة فى هذه المرحلة الحاسمة من القصة، التى تتشابك خيوطها وتتعقد من جديد عندما تدبر مـؤامرة ضد فليكس تنتهى بدخوله السجن؛ حيث يصدر ضده حكـم بالإعـدام بسبب اتهامه بالتمرد والتآمر على الملك. وهنا يتفجر عدد جديـد مـن المفاجآت؛ حيث يتدخل أحد رجال البلاط البارزين للدفاع عنه ويتوسط لدى جلالة الملك، الذى يصدر أمرًا بالعفو عن السيد فلـيكس نظـرًا لشجاعته وبطولاته العظيمة، ويتم له السماح بالعودة إلى بلدته مـسقط رأسه وبهذا تنتهى أحداث هذه الحكاية. لكن القصة لم تنته حيث يستمر صوت الراوى ـــ وهو لوبى دى بيغا ـــ الذى يتعـرف علـى الـسيد

فليكس دى قُزمان وهو طاعن فى السن. تبدو براعة المؤلف واضحة فى كل أحداث القصة، وعلى وجه الخصوص فى طريقة إنهائها؛ حيث يتوجه كعادته بالحديث إلى السيدة مارثيا ليوناردا التى يعدها بقصة أخرى مليئة بالحب والعواطف. كما يركز فى آخر ثلاثة أسطر من هذه القصة على ما ينتج من علاقات الحب والمشاعر الحميمة من غيرة وحقد وحسد وخيانة من خلال جمل قصيرة يكثر فيها الطباق بهدف شدّ انتباه القارئ. ومن المدهش أنه وضع كلمة "النهاية"- كما هى عادته فى كتابة المسرحيات - عندما وصل إلى نهاية هذه القصص. وهذه الكلمة فى حد ذاتها تعبير صادق وواضح على نهاية الأحداث.

السرد ومنظور القصّ

ننتقل بعد ذلك للحديث عن السرد ومنظور القصّ؛ حيث يحكى الراوى فى القصص الأربع بطريقة الراوى العارف بكل شىء، والذى لديه معرفة سابقة بنهاية الأحداث ومصير الأبطال قبل الشروع فى كتابة هذه القصص. ففى قصة "أقدار ديانا" نسمع أولاً صوت المؤلف نفسه، الذى يوجه حديثه للسيدة مارثيا ليوناردا؛ حيث يتحدث عن أصول القصة كلون أدبى، وعن أوائل من استخدموه فى الكتابة. ومن الطريف أنه يذكر أن هذا اللون الأدبى من الكتابة لم يشغل تفكيره، إلا أنه يكتب هذه المجموعة القصصية لأنها بتكليف منها. وهكذا فى باقى القصص يبدأ كل واحدة منها بالتوجه إلى السيدة مارثيا ليوناردا مداعبًا

إياها من خلال سرد بعض التجارب الخاصة به أو بسرد طرفة وردت فى كتاب أحد الفلاسفة، ثم يبدأ بعدها فى سرد أحداث القصة.

لكن الصوت الغالب فى هذه القصص هو صوت الراوى العارف بكل شيء، والذى يتولى مهمة التعليق على الأحداث وتقديم الشخصيات ووصف المشاهد. وأكبر دليل على الوجود المستمر لهذا الراوى أنه يعقد مقارنة بين قصة "أقدار ديانا" ومسرحية *القوادة*، ويربط مأساة البطلتين في مشهد مماثل، مما يعكس ثراء النص الذى يقدمه للقارئ ومحاولة إبعاده عن الشعور بالملل، ولذا نتعرف على الأحداث والشخصيات من خلال منظور الراوى؛ حيث يعكس وجهة نظره بالتعليق والتدخل المستمر فى الأحداث؛ فهو يقوم برسم الشخصيات وبوصف مشاعرهم. فعيناه ترصدان الأحداث وتحركات الشخصيات، وتصفان المواقف والمشاهد، وأوضاع الجسد المختلفة، كأن عينيه عبارة عن عدسة كاميرا ترصد ما يدور فى الخارج من أحداث، فلا نطلع على مشاعر الشخصيات إلا من خلال هذا الراوى.

لكن استخدام الخطابات بين بعض الشخصيات أتاح للقارئ فرصة سماع أصوات جديدة، وهى أصوات الشخصيات التى تعبر عن نفسها من خلال الخطابات، ومنها نعرف أيضًا وجهة نظرهم. ومن هنا يستطيع القارئ التعرف على الملامح النفسية للشخصية وآدابها ومستواها الأخلاقى والاجتماعى، ومدى تطورها ونضجها من خلال مضمون الخطابات التى تتبادلها، وأحيانًا يتم هذا من خلال بعض الحوارات والأحاديث القصيرة بينها. وكثيرًا ما تقدم هذه الحوارات

على لسان الراوى ولكن ما تعرضه من أفكار يعكس وجهة نظر الشخصية التى يتحدث على لسانها. كذلك استطاع المؤلف أن يدخل بعض الأبيات من الشعر فى هذه القصص مما أتاح لنا الاستمتاع بموسيقى الشعر وسماع أصوات جديدة هى أصوات منْ تغنوا بهذه الأبيات. ولكن إذا نظرنا إلى علاقة هذه الأبيات الشعرية بالبناء القصصى نجدها فى معظمها عبارة عن محطة يستريح فيها الراوى من سرد الأحداث؛ حيث يترك الكلمة للشخصيات التى تتغنى بالشعر. ولكن إذا حذفت هذه الأبيات بأكملها فلن يؤثر هذا مطلقًا على سير الأحداث، ولن يتعرض النسيج القصصى للتفتيت ولا للضعف، وليس أدل على ذلك من حديث لوبى دى بيغا للسيدة مارثيا بأنها يمكنها تخطى هذه الأبيات إن كانت لا ترغب فى قراءتها، "فيمكنكم تخطى هذه الأبيات من الشعر الرومانسى دون قراءة"، وهذا يدل على أنها نوع من الحشو الزائد فى القصة(*).

كثيرًا ما يستخدم الراوى أسلوب الاستفهام وذلك بهدف إشراك القارئ معه فى التفكير حول الموضوع الذى يطرحه، أو لإعطاء شكل منطقى لترتيب الأحداث؛ حيث يتولى بعد ذلك الرد على الأسئلة التى طرحها من قبل.

فى قصة "تعيس بسبب الكرامة" ليس هناك مثل أدق يدل على وجود الراوى العالم بكل شيء، مثل تلك الجملة التى يحذر فيها أن

(*) ربما كان لوبى يسخر من القارئ المتعجل الذى يهتم بالأحداث دون تأملات المؤلف (المراجع)

البطل رجل أحمق من أجل كرامته وينبه بأن القصة فى بدايتها ونهايتها حزينة. مما يعنى أنه يعلم بكل شيء بشكل مسبق على وقوع الأحداث، وإلى أى شيء ستنتهى أحداث هذه القصة قبل أن يبدأها.

ويظهر الحوار الداخلى فى كلمات سيلبيا، وهى تنظر إلى البحر لتعبر عن أحزانها وتعاستها لرحيل فليساردو، الذى تركها ممزقة بلا كرامة ولا شرف. هذا الحوار الداخلى يتيح للقارئ فرصة للتعرف على الملامح النفسية للبطلة، والتعرف على شعورها الحقيقى فى هذا الموقف الذى تشعر فيه بالوحدة والضعف والضياع أمام مصير مجهول. أحيانًا نجد أن الراوى يبتعد عن دوره ويترك المجال مفتوحًا للمؤلف، الذى يأخذ الكلمة ليذكر قول شاعر، أو فيلسوف، أو أديب، أو مفكر، أو رجل سياسة، أو رجل دين، ولذلك نجد أن هذه القصص مليئة بكثير من التعليقات التى تظهر شخصية المؤلف الموسوعية، الذى أدرج هذه الاستشهادات من الأشعار، والحكم، والأقوال المأثورة؛ مما جعل من هذه الحكايات، فضلاً عن دورها فى الإمتاع الأدبى مرجعًا ثقافيًا يضيف الكثير من المعلومات للقارئ، ويبين من جانب آخر عمق ثقافة المؤلف.

ومما يلاحظ من خلال أسلوب السرد فى القصص الأربع كثرة الاستطرادات والخروج عن موضوع القصة، ثم العودة لسير الأحداث مرة أخرى. وهذه الطريقة تضيف عنصر التشويق على ملامح القصة؛ حيث يترك الراوى الحدث معلقًا ثم يعود لتناوله بعد أن تناول موضوعًا آخر وهكذا. وهذه الطريقة تثير فضول القارئ وتزيد من

إحساسه بالتشوق لمعرفة مزيد من الأحداث، وغالبًا ما يكتشف فى أثناء عملية القراءة صدق نوايا المؤلف الذى لا يكف عن كشف مجموعة من المفاجآت التى تتوالى فى هذا العمل الإبداعى.

فى قصة "تعيس بسبب الكرامة"، نجد أن المؤلف يعبر صراحة عن الأساليب التى سيستخدمها فى سرد الأحداث، وأنه سيلجأ لاستخدام الجمل الاعتراضية، والخروج عن سياق الكلام والاستطراد، وغيره لأنه يعتبر ذلك من الضرورى. فعندما يتحدث عن شخصية الراهب فرانثيسكو خيمينث دى ثيسنيروس، هنا يستمع القارئ لصوت لوبى دى بيغا نفسه، وليس لصوت الراوى الذى يعود بعد عدة سطور ليرتدى من جديد عباءته ليستأنف الحديث عن بطل القصة فليساردو.

وكثيرًا ما تتحد شخصية الراوى والمؤلف معًا، عندما يقف المؤلف موقف المصلح الاجتماعى ويتخذ موقفًا أخلاقيًا أمام بعض التصرفات التى تعرض من خلال الأحداث. هذا المؤلف نجده أحيانًا حكمًا فاصلاً بين أقوال الفلاسفة والمؤرخين عندما يعرضون آراءهم وأفكارهم حول موضوع ما فيظهر ميله لرأى دون آخر، أو تأييده لقول دون آخر. حدث ذلك فى الخلاف- على سبيل المثال- حول مفهوم الحظ بين رأى أرسطو وبلوتارخ.

يتكرر حديث لوبى دى بيغا للسيدة مارثيا ليوناردا من آن لآخر، مما يشعر القارئ بأنه يحكى هذه القصص على نمط الحكايات الشعبية التقليدية، التي يتلقاها الجمهور عن طريق السمع من خلال راوى

يحكى لمجموعة من الناس تحيط به بعض القصص المستوحاة من التراث الشعبى التقليدى، فيوجه خطابه لمَنْ يحيط به من حين لآخر لإشراكهم فى الموضوع وجذب انتباههم باستمرار لما يقص وما يحكى، وهذا ما ينطبق على ما كتبه لوبى فى هذا الجزء من القصة عندما يقول: " من خلال الباب الذى نبهت سيادتكم عنه. خرجت- السيدة مرثيا- السلطانة العظيمة" (تعيس بسبب الكرامة).

كثيرًا ما يظهر المؤلف على أنه فيلسوف له فلسفته الخاصة التى يترجم بها الأشياء وخاصة تلك التى تتعلق بالجمال والحب والعلاقات الإنسانية، ففى قصة "انتقام عاقل" يترك الراوى الأحداث جانبًا ليترك المجال مفتوحًا للمؤلف ليعبر ويشرح معنى فلسفة الحب وتأثيره على تعاقب الأجيال والانسجام والفتور وكل ما ينتج عن هذا الشعور من تفاعلات بين الناس من حب وكره، وحقد وحسد، وما إلى ذلك من أمور يشرحها بشكل فلسفى. أحيانًا يسرد بعض القصص الأسطورية داخل نسيج القصة التى يرويها، كقصة الفلاح والأرنب فى مطلع قصة "قُزمان الشجاع". وهذه القصة تتوفر فيها كل عناصر القصة من حيث المقدمة والموضوع والخاتمة، فضلاً عن أننا نستمع من خلالها لصوت راوى جديد. وأحيانًا يظهر لوبى كأنه شخصية من شخصيات قصصه؛ حيث إننا نراه يظهر فى "أقدار ديانا" و"قُزمان الشجاع" على أنه أحد الشخوص فيها.

يظهر أيضًا المنولوج فى قصة "انتقام عاقل" من خلال الكلمات التى كان يعبر مارثيلو بها عن حزنه وألمه لاكتشاف خيانة زوجته.

هذا المنولوج ترك لنا فرصة سماع الصوت الحقيقى لمارثيلو ومعرفة حالته النفسية والشخصية كما عبرت كلماته عن وجهة نظره الخاصة.

الشخصيات الرئيسية

إذا انتقلنا إلى الحديث عن الشخصيات فإننا نجدها تنقسم إلى شخصيات رئيسية وشخصيات الأبطال، وأخرى ثانوية. وكل هذه الشخصيات يتوالى ظهورها على مسرح الأحداث حسب الترتيب والنظام الذى وضعه المؤلف، وذلك من خلال البنية الروائية التى تجعلنا نشعر بسيطرة شخصية دون غيرها على الأحداث. والشخصيات نعتبرها شخصيات بسيطة، لكن يمكن اعتبار شخصية فليساردو بطل "تعيس بسبب الكرامة" شخصية مركبة؛ لأنه كان يتصرف بكثير من الازدواجية والتناقض. ولكن لا يمكن اعتبار أن السيد فليكس دى قُزمان بطل "قُزمان الشجاع" شخصية مركبة أو ازدواجية، لأنه كان يظهر فى الأسر ملامح شخصية تتعارض مع طبيعته وذلك من باب التخفى، وعندما أتيحت له الفرصة أزاح القناع عن شخصيته الحقيقية التى يضرب بها المثل فى الشجاعة والمروءة. لو تحدثنا عن ملامح النضج فى الشخصيات نجد أن معظم الشخصيات بالغة لا يوجد بين الأبطال أطفال ولا شيوخ؛ لكنهم ليسوا على الدرجة نفسها من النضج والعمق والوعى. فبينما نجد أن شخصية كل من ديانا وفليثيا تتطور تطورًا كبيرًا، وتنمو حتى بلغت من النضج مبلغًا كبيرًا، تتضح معالمه

من خلال المواقف والأحداث التى تتعرض لها كل من البطلتين مما اضطرهما للتنكر فى زى الرجال. لكن هناك شخصيات لم تتطور من بداية القصة وحتى نهايتها، ولم يطرأ عليها أى تغيير فى ملامح شخصيتها مثل: سيلبيا وليساردو ولاورا.

يقدم لوبى الشخصيات بأسمائها ثم يقدم رسمًا لشكلها ووصفًا لطبيعتها، بشكل يعجز فيه القارئ أحيانًا عن تحديد ملامحها. فهو لا ينخرط فى رسم الشخصية من ناحية الملامح والتفاصيل بقدر ما يهتم برسم علاقة الشخصية بالمكان الذى يحيط بها. فدائمًا يحاول وصف المناخ والجو العام الذى يتحرك فيه الأبطال والشخصيات الثانوية، فنرى من خلاله علامات التقدير والاحترام، أو التنافس والعداء، أو الحقد والغيرة، لكن من المدهش أن الملامح العامة التى يقدمها لوبى عن شخصياته تعكس لنا ملامح العصر الذى يعيشون فيه؛ فشكل الأزياء والأسلحة الحربية يعكس ملامح الفترة الزمنية التى ترجع للقرنين السادس عشر والسابع عشر؛ وهى تلك الفترة التى ينتمى إليها المؤلف. ومع ذلك نراه يهتم بإضفاء عنصر الجاذبية والجمال وحسن المنظر على الأبطال؛ فكلهم يتميزون برشاقة القوام وجمال الشكل والشباب والحيوية. وهذه صفات عامة تعطى للقارئ حرية تخيل الشخصية بالطريقة التى يراها فلم يحدد المؤلف تفاصيل الوجه ولا حجم الأنف ولا شكل الشفتين ولا الذقن ولا شكل ولون العينين إلا فى بعض الحالات كما فعل فى وصف كل من ديانا وسوسانا؛ حيث أعطى لنا وصفًا دقيقًا عن ملامح هاتين الشخصيتين النسائيتين، وذلك لأن هذا

الوصف يؤدى وظيفة دلالية فى الأحداث. كما أن معظم الأبطال ينتمون لطبقة النبلاء، وجميعهم يتمتع بأحسن الصفات والثراء، وبالتالى فالوسط الذى يتحركون فيه يعكس علامات تدل على الفخامة والغنى والقوة والكرم. ومن خلال الأحداث يتعرف القارئ على طبيعة المجتمع الذى تعيش فيه هذه الشخصيات. فهو مجتمع طبقي؛ حيث إن هذا النظام يمتد من الشخصيات وطبيعتها ليشمل السلوكيات التى يتعاملون بها ولهجة الخطاب الذى يستخدمونه.

الشخصيات الثانوية

أما الشخصيات الثانوية فتنقسم إلى شخصيات تنتمى لطبقة النبلاء وأخرى تنتمى للعبيد أو الخدم؛ وهذه الشخصيات تحدد ملامح البناء الاجتماعى وتبيِّن طبيعته من خلال ممارستها للحياة اليومية وما تؤديه من أعمال فى هذا النسيج الروائى. وفى الحقيقة أن هناك بعض الشخصيات الثانوية التى تتحرك بين طيات هذه القصص بشكل فيه الكثير من الإثارة والأهمية، مثل شخصية أنتندرو فى "أعقل انتقام" التى كشفت عن تسامح ليساردو وربما عن سذاجته فضلاً عن أنانيته، كما كشفت شخصية ثوليمو؛ ذلك العبد الذى استخدمه مارثيلو فى قتل لاورا، عن شراسة وعنف مارثيلو، التى كانت مختبئة تمامًا تحت قناع من الهدوء والعقل والحكمة. وكذلك شخصية الرجل المسلم الذى ضرب ديفيد فى "قزمان الشجاع" كشفت عن الوجه الحقيقى للسيد

فليكس من حيث الشجاعة والقوة والإخلاص للسيد الذى أكل طعامه وعاش فى بيته، على الرغم من أنه عبد له.

وعلى الرغم من سطحية بعض الشخصيات التى لا تصل إلى العمق ولا إلى النضج فى تصرفاتها، فإننا نجد أنفسنا أمام نخبة هائلة من الشخصيات الرئيسية والثانوية التى نشعر بها كأنها من لحم ودم، تشعر وتتألم وتتنفس وتأكل وتشرب وتحزن وتفرح. فمنها مَنْ وصفهم المؤلف بالعقل والحكمة ومنها مَنْ وصفهم بالتهور والاندفاع.

اللغة والأسلوب

من خلال اللغة التى استخدمها لويى دى بيغا فى سرد هذه القصص نجد أن الجمل التى صاغها محكمة البناء، دقيقة التركيب، راسخة متماسكة؛ حيث اختيرت كلماتها بكل دقة وبساطة وبعيدا عن التعقيد. والأسلوب يتراوح ما بين الطريف والرسمى والهزلى، الذى قد يصل إلى حد السخرية اللاذعة أحيانًا. فالبناء الداخلى للقصة يتشكل من خلال اللغة. والدليل على ذلك أن المؤلف استخدم أنواعًا من الجمل تتفق مع طبيعة الحدث الذى يسرده الراوى، فبينما يلجأ فى حالة الوصف للجمل الطويلة، نجده يستخدم الجمل القصيرة اللاهثة عند الحديث عن إحدى الأزمات، وعند احتدام المواقف التى تتصارع فيها الأحداث ليعكس حالة نفسية معينة يريد إيصالها للقارئ من خلال هذه الجمل. وتلعب الكلمات دورًا كبيرًا فهى تأتى معبرة عن المعنى المراد

إيصاله للقارئ؛ فهى فى مكانها تمارس فاعليتها فى السياق. فنشعر أحيانًا بالجو الرومانسى وبنهر الحب الذى يسبح فيه الأبطال، وكذلك تجعلنا بعض الألفاظ نعيش وسط جو ملئ بمظاهر الفخامة والعظمة والنبل، وكلمات أخرى ترسم لنا جوًا مشحونًا بالاضطراب والخوف والارتباك..إلخ.

فاللغة هنا ليست مجرد كلمات، لكنها عبارة عن بناء مركب، وعبارات مؤلفة متماسكة، جمل وكلمات لها فاعلية كبيرة وموسيقى داخلية متناغمة ذات أهمية كبرى فى نقل انفعالات معينة للقارئ.

كذلك يستخدم لوبى دى بيغا بعض الألفاظ الأجنبية ثم يقوم بشرحها للقارئ حتى يفهم معناها. ومع أنه يستخدمها فهو يعيب كثرة استخدامها فى الكتابة القصصية.

ومن خلال اللغة يستشعر القارئ أن هناك بعض المواقف تخلو من الطبيعية أو التلقائية: ففى "أقدار ديانا" نجد بعض المواقف مفتعلة، فمثلاً عندما تركت ديانا مزرعة فيليس، وذهبت بالقرب من بيخار، كانت تقف فى ميدان وهى متنكرة فى ملابس الرجال. وهنا يظهر لها رجل يمنحها فرصة عمل. فليس من المنطقى ولا من الموضوعى أن أول رجل يمر عليها يمنحها هذه الفرصة التى تنقلها إلى بيت رئيس الرعاة، ثم تتوالى بعض المواقف التى لا تقل عن هذا الموقف افتعالاً تنقلها إلى بيت الدوق، ثم إلى البلاط الملكى، حتى تصل إلى درجة نائب الملك فى إسبانيا الجديدة. كل هذه الخطوات ترسم بالطبع أقدار

ديانا التى رسمها المؤلف، لكن تعاقب الظروف بهذا الشكل لا يبدو طبيعيًا، لأنه ليس من المنطق أن يتصرف أحد الخدم بشكل غير لائق أمام شخصية رفيعة المستوى كالدوق، وأين! أمام القصر الملكى، مما ينتج عنه تدخل ديانا بشكل ظريف وتتصرف بشكل يعجب الملك، ومن هنا تنتقل لخدمته.

لكن لا يعنى هذا مطلقًا ضعف مستوى اللغة، بل على العكس فالبناء اللغوى لهذه القصص قوى ومتماسك ويعكس السيطرة الكاملة للمؤلف على اللغة التى يسرد بها الأحداث. وهذه اللغة هى التى تمنحنا الشعور بالإثارة والتشويق لمعرفة مجريات الأحداث حتى ننتهى تمامًا من القراءة، ونحن نعيش الأحداث ونتألم لألم الأبطال ونفرح لفرحهم، بل نشعر بما يشعرون، وهذا يحدث وسط جو من المتعة والإثارة يشعر به القارئ فى أثناء قراءته.

المترجمة

أقدار ديانا

لم أتخل عن طاعة حضرتكم بسبب الجحود، بل بسبب خوفى من ألا أوفق فى خدمتكم؛ لأن أمركم لى بأن أكتب قصصًا يعد أمرًا جديدًا، ولو أنه فى الحقيقة فى قصتى *"أركاديا" و "الحاج"*[1] هناك ملامح من هذا اللون الأدبى الذى كان أكثر شيوعًا عند الإيطاليين والفرنسيين وأقل عند الإسبان ، ومع ذلك فإن الفرق كبير بين الماضى والحاضر ، فقد كانت الكتابات الأدبية أكثر تواضعًا فى الماضى عنه فى عصرنا ، وكانوا يسمون الروايات قصصًا .

وهذه القصص كانت تحفظ عن ظهر قلب، ولم أرها مكتوبة قط، حسب ما أتذكر؛ بل كانت حبكات القصص فقط هى التى توضع فى كتب، وكانت تلك الكتب تسمى "فروسيات" أى "بطولات الفوارس الشجعان" . كان الإسبان فى هذا اللون بارعين جدًا، فى الابتكار لم يكن لأى أمة من الأمم فضل عليهم، كما يُرى فى العديد من الأعمال مثل: *إسبلاندياس*،و *فيبوس*، و*بالمرينس*[2]، و*ليسوارتس*، و*فلاورامبيلوس*،

---

(١) أركاديا: منطقة فى اليونان القديمة، اتخذت ابتداء من القرن السادس عشر كنموذج أدبى للبلد السعيد.

(٢) بالمرينس: مجموعة قصصية عن الفروسية، وهى تتكون من *بالمرين دى أوليبا* (١٥١١)، الذى يحكى غراميات بالمرين و بولينارد، و *بريماليون* (١٥١٢)، الذى يحكى مآثر أبناء بالمرين والسيد دواردوس الإنجليزى، و *بالمرين الإنجليزى* (١٥٤٧، ترجمة قشتالية لكتاب المؤلف =

و*إسفيراموندوس* و*أماديس* الشهير[٣]- رائد كل هذه الإبداعات، الــذى ألفته سيدة برتغالية – و*البوياردو*، و *الأريستو*[٤] وغيرهما تبعوا هــذا اللون الأدبى، مع أنه مؤلَّف من أبيات من الشعر؛ وفى إسبانيا يحاولون أيضًا ، حتى لا تترك المحاولة فيــه بالكامــل، ولــذلك توجــد كتــب قصصية، منها ما هو مترجم عن الإيطاليين، و منها ما هــو أصــلى، وهذه شخصيات لا تخلو من الظُرف و الأسلوب الراقى الذين يميــزان مُبدعها ميغل دى ثربانتس. أعترف أنها كتب مُــسلية إلــى درجــة كبيرة، و يمكن أن تكون نموذجية، مثل بعــض الحكايــات المأســاوية للبانديلو، ولكن كتابتها كانت على يد رجال من العلماء، أو على الأقــل كبار رجال البلاط الملكى، وهى شخصيات تجد فى خيبة الأمل حِكَمًــا بارزة وعلمًا غزيرًا .

وأنا لم أفكر قط أن الكتابة القصصية ستدخل فى حيز اهتمــامى وتفكيرى، ولذا أجدنى حائرًا بين ذوق سيادتكم وطاعتكم؛ ولكن حتى لا أترك الواجب، فيبدو ذلك كأنه إهمال، ونظرًا لبراعتى فى إيجاد العديد

= البرتغالى فـ. دى. موراياس كابرال لم تنشر حتى ١٥٦٧ فى لغتها الأصلية)، وهذا العمل تم إنقاذه من النار فى فحص مكتبة الكيشوت.

(٣) *أماديس دى جاولا* : كتاب إسبانى عن الفروسية، كتب فى القرن الرابع عشر تقريبًا، ويرجع الفضل فى إعادة صياغته لغارثى رودريغث دى مونتالبو (سرقسطة- ١٥٠٨). وهو يحكى مغامرات أماديس و عشقه لأوريانا. هذا العمل يعد أبدع نموذج مثالى للفارس الرحال و العاشق المخلص.

(٤) لودوبيكو أريوستو، (١٤٧٤- ١٥٣٢)، كاتب إيطالى وهو مؤلف القصيدة الحماسية *أورلاندو الغاضب* (١٥١٦- ١٥٣٥).

من الأفكار لكتابة ألف مسرحية، فإننى أستأذن كتّاب الرواية، لألبّى طلب حضرتكم بهذه القصة، التى على الأقل أعرف أنكم لم تسمعوها من قبل و لا هى مترجمة عن لغة أخرى، وتحكى أن:

من زمن ليس بعيدًا، وفى مدينة طليطلة المشهورة، التى يطلقون عليها حقًا إمبراطورية، والدليل على ذلك ترسانة أسلحتها، كان هناك فارسان من السن نفسه ، صديقان حميمان، كما يحدث عادة فى سنوات العمر الأولى، بسبب التشابه فى العادات. سأسمح لنفسى هنا بأن أخفى اسميهما، لأنه لن يكون من العدل النبيل من احترامهما مع تعاقب الأحداث و الحوادث التى ستُحدد مصيرهما: واحد منهما يدعى أوكتابيو و الأخر ثليو. كان أوكتابيو ابنًا لسيدة أرملة، كانت فخورة به وبابنة كانت تسمى ديانا – التى منها أُخذ اسم هذه الرواية – وكان فخرها بها مثل فخر لاتونا بأبوللو والقمر[٥].

كان اسم الأم هو ليسينا، وكانت تحضر الاحتفال واللهو الذى يعده أوكتابيو وهى فى أبهى زينتها، بينما تبخل بالزينة على ابنتها ديانا، وتلبسها ملابس تدل على الحشمة والحياء، وهو ما كان يثقل عليها، لأن رغبة العذارى هى أن يظهرن بوادر حسنهن ومفاتنهن

---

(٥) الإله أبوللو: ولد فى جزيرة ديلوس، وهو ابن زيوس ولاتونا، وأخ توأم لأرتيميسا (القمر)، وهو إله يمثل الشمس، ويعتبر إله الضوء والموسيقى والشعر، والخطابة. ويعتبر أيضًا إله يحمى الأنبياء والمغنيين، وكذلك الشباب. ويمثل فى صورة شاب بلا لحية، لأن الشمس لا تصيبه بالهرم، ويظهر عاريًا بلا ملابس، أو يرتدى معطفًا قصيرًا من ملابس الإغريق والرومان (قديمًا)، ويحمل الجراب والسهام – كرمز لأشعة الشمس –والقيثارة، كرمز للانسجام السماوى.

بالإفراط فى الزينات، و يخدعن أنفسهن بهذا كما ينخدعن فـــى أشـــياء أخرى، لأنه يكفى على نضارة الأزهار فى الصباح النـــدى الطبيعـــى، لكنها وهى مقطوعة تحتاج إلى حيلة الغصن؛ حيث تستمر وقتًا قلـــيلاً بعده يثير منظرها الإحساس بالضيق. فلم تخطئ ليسينا عندما ألبـــست ابنتها ثياب العفة، إذ إن عذراء فى ملبس غير عادى فى مثـــل حالتهـــا وظروفها، لابد أن تثير أحاسيس غير عادية، مما يدعو إلى النظر إليها أكثر من اللازم.

أظهرت ديانا رضاءها فى الامتثال للأوامر والطاعة، وبتعقـــل واضح لم تزد ذرة على التعليمات التى تلقتها من أمها؛ حيث لـــم تنـــل منها مطلقًا، لا فى القداس ولا فى احتفال عـــام، النظـــرات الفـــضولية للعديد من الشبان، و لم يوجد فى كل المدينة مَنْ يستطيع أن يتفوَّه بمثل ما يقال الآن عن الكثيرات، اللائى تسببن فى توجيه الكثير من العتـــاب لإهمال أبائهن. الذين يبدوا لهم أن مدحهن و إظهار جمالهن سيـــسرع فى زواجهن. و لم يكن تليو لديه هذه المفاهيم، لكنه وُهِـــبَ فـــضائل كبرى وظرفًا طبيعيًا؛ اعتقد أننى بهذا قلت إنه كان فقيرًا و لـــم يحـــظ بتقدير الأغنياء: لم يكن أوكتابيو يـــسير مطلقًـــا بدونـــه؛ فقـــد كانـــت صداقتهما كبيرة، أثارت غيرة الآخرين فى بـــادئ الأمـــر، و انتهـــت بالهمس و بكثير من الضيق عند أقاربه، الذين شكوا إلى ليسينا من أنه فى المحادثات العامة كان يهملهم عندما كان يرى تليو، و فى كثير من الأحيان كان يذهب معه دون أن يودعهم. وذات يـــوم عنفته ليـــسينا بصراحة ووضوح أكثر مما فعلت فى مرات أخرى، لأنها شعرت من

خلال سلوك ابنها بأنه يتعامل بالإهانة والاحتقار مع أقاربها و بالحب والتقدير مع ثليو؛ لكن خبث الجميع و المعلومات الزائفة التى أرادوا بها الإطاحة به، دفعت أوكتابيو الذى شعر بكل هذا الشر والأذى إلى أن يقول لأمه بأدب وطاعة: بأنها لو علمت ما الصفات التى يتحلى بها ثليو لكى يكون محبوبًا و مقدرًا، ما كانت لتؤنبه مطلقًا، بل حقًا لكانت أمرته صراحة بألا يرافق شخصًا أخر غيره، وذلك لعلمها بعدم إخلاص الأصدقاء الأخرين، وقلة صدقهم، وعدم مواظبتهم، وعدم احتفاظهم بالأسرار، فضلاً عن العادات السوقية التى يتعاملون بها، ولذا فقد اقتصر على حب التعامل والاحتفاظ بأنبل فارس، وأعقل رجل، وأطيب إنسان؛ فهو الأكثر إخلاصًا والأصدق والأشد كتمًا للأسرار، ويتحلى بأفضل العادات الموجودة فى طليطلة، فهو بعدما أصبح يسير معه ويرافقه لم يغضبه ولم يشهر السيف مطلقًا فى وجهه؛ لأن ثليو كان مسالمًا، وكان عاقلاً وحكيمًا، وكان يصلح كل الخلافات التى كان يتسبب فيها الفرسان الأخرون، وقد نال بفضل فهمه وذكائه نفوذًا كبيرًا فيما بينهم؛ ومن الأسباب المؤكدة التى دفعتهم للحقد عليه أنه كان يستحسنه ويميل إليه. وكانت ليسينا تصغى باهتمام، ودون أن تردَّ على أوكتابيو، لأنها كانت تعرف أن ما يقوله حقيقة، ثم إنها لم تسمع مطلقًا عكس ذلك؛ لكن ديانا كانت أكثر اهتمامًا، فلسماعها العديد من المديح فى ثليو، شعرت بتغير مفاجىء، رقق قلبها وقوى مشاعرها؛ فرغبت فى الدفاع عن أخيها، فقالت شيئًا مما سمعته عن ثليو، و لكن لكى لا

تفصح عن ما كان يتطلب الكتمان، حبست الكلمات فى قلبها، والرغبات في نفسها، و قالت بألوان الوجه ما عجز اللسان عن النطق به.

بعد مرور عدة أيام ذهبت ابنة عمها، وهى سيدة تحمل لقب شرفى، مع بعض السيدات الحسناوات، والصديقات، فى زيارة إلى بيت ليسينا للاسترخاء والمتعة أكثر من المجاملة، وقد أمكن ذلك بناءً على العهود التى قطعتها ديانا على نفسها أمام أُخيها ، إذ أكدت له إنهم فى ليلة العيد ينتظرونها ، وهو أمر مألوف فى إسبانيا منذ زمن طويل. فى ذلك المساء ترجى أوكتابيو ثليو أن يذهب معه إلى البيت؛ حيث إنهما يستطيعان قضاء الوقت معًا فى مكان بعيد عن أعين أولئك السيدات، وهكذا دخلا فى غرفة ملحقة بأخرى كانت لأبيه، وهو مكان بعيد تمامًا عن مكان محادثة أولئك السيدات؛ ولكن الوضع لم يكن كما تصور أوكتابيو؛ لأن ضوضاء الضيوف، وعدم ثقة ديانا فى معظم الأشياء التى تقوم بها الخادمات، جعلها تذهب إلى غرفة حفظ الأوانى لإخراج بعض الأوانى الزجاجية والهدايا التى تقدم فى مثل هذه المناسبات إلى شخصيات معينة؛ شعرت بدخول أخيها، فتوقفت وهى مرتبكة نوعًا ما. وتوقف أيضًا ثليو، وعندما خرجت بالفعل ديانا دخل أوكتابيو إلى الغرفة الملحقة. ظل ثليو فى الخلف، ووقعت عيناها عليه، وبرزت من خلال ألوان وجهها كل رغبات النفس، مما زاد من حسنها بدرجة كبيرة وزاد من ضعف نفسها. وعندما تمكن ثليو وصل إليها، وكان كل ما استطاع قوله لديانا عندما مرت وهو يُقبل عليها مرتبكًا: "كم كنت أشتاق لهذه الزيارة!"، وردت هى عليه بوجه مشرق لطيف: "لا تخدع

نفسك". هنا يا سيدة ليوناردا، أتذكر تلك الكلمات الأولى من مسرحية *القوادة*[٦] الشهيرة عندما قال لها كاليستو: "يا مليبيا: أرى فى هذا عظمة الإله". و أجابته هي: "فى ماذا يا كليستو؟" لأن أحد رجال البلاط الكبار قال لو لم تجب مليبيا حينذاك، فى ماذا يا كليستو؟ ما وجد كتاب عن ثليستينا، وما وقعا الاثنان فى العشق. هكذا ، ومن الآن فصاعدًا سيترتب على هاتين الكلمتين لثليو وصديقتنا ديانا المرتبكة العديد من الحوادث، والكثير من العشق والمخاطر التى أتمنى أن أكون هليودور[٧]، أو المؤلف المشهور لوثيبى، والعاشق كليتوفونتى كى أحكيها على طريقتهم. دُهِشَ ثليو من الرد العاطفى؛ حيث كان يتوقع ردًا جافًا، كعقاب على جسارته، فقد ظل كما لو كان فاقدًا للوعى بين حماس الأمل وعظم المغامرة.

دخل فى الغرفة الملحقة وهو يخفى مشاعره، وتحدث مع أوكتابيو متظاهرًا أمامه بالإعجاب بالأسلحة، وبالحرص الذى وُضعت بهما السيوف التى ترجع لمختلف المعلمين، والقصور، والزينات، التى

---

(٦) مسرحية *القوادة*: مسرحية تتكون من ٢١ فصلاً، كتبها فرناندو دى روخاس (١٤٦٥- ١٥٤١). وتعبر هذه المسرحية عن الحب المأسوى لكليستو و مليبيا، التى كانت تتوسطها القوادة ثليستينا. و قد طبعت فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر. وكان نجاحها كبيرًا جدًا، ويبرهن على ذلك كثرة عدد الطبعات والترجمات لهذه المسرحية، فضلاً عن الشهرة الواسعة التى حققتها والتى كان لها صدى فى كثير من الأعمال التى تلتها. وهذه المسرحية تعد قمة من قمم الآداب الإسبانية.

(٧) هليودور: كاتب روائى يونانى، أثرت أعماله فى الأدب الأوروبى خاصة فى القرنين السادس عشر و السابع عشر.

كان لديه منها الكثير. جعل ثليو أوكتابيو يتسلح بدرع العنق والتنورة الحربية، وتسلح هو ببعض السيوف السوداء[٨]. ثم اتفقا على التدريب للمبارزة.

الحب له اختراعات واضحة لكي يجد مكانًا لآماله ولرغباته، وهكذا بهذه المشاعر التي كان ثليو يحملها بين ضلوعه تردَّد عدة مرات على بيت أوكتابيو، وأيضًا لكي تراه ديانا ولتهيم به حبًا، ولكي يستطيع، في يوم سعيد على ما يبدو بينهما، أن يعطيها خطابًا ومعه خاتم من الماس. وقد استقبلته ديانا بعلامات واضحة تدل على الشكر والامتنان، وبعدما اختفت عن أنظار الآخرين، قبَّلت الخطاب، وقرأته ألف مرة، وكان نصه هكذا:

(خطاب من ثليو إلى ديانا)

"زائدة الحسن ديانا، لا تجرِّمي جرأتي، إذ إنك ترين في كل يوم في مرآتك عُذري. فلم أكن أعرف مقدار السعادة التي كانت تنتظرني عندما ذهبت لرؤيتك؛ ولكن أستطيع أن أقسم لكِ بعينيك الجميلتين إنني قبل أن أراكِ كنت أحبك، وعند مروري على أبوابك كان يتغير لون وجهي، وكان قلبي يحدثني بأن هناك يعيش السم الذي سيقتلني. ماذا أفعل الآن بعدما رأيتك وبعدما أكدتِ لي سعادتك بهذا الحب، أنه شعور

---

(٨) السيوف السوداء: هي نوع من السيوف في لعبة الشيش (في المثاقفة)؛ والسيف الأسود هو سيف بدون حد، وله زرٌ عند طرفه.

حقيقى جدًا، ولكن كم كنت أخشى عدم القبول ولكن لثقتـــى فـــى هـــذه الكلمات، التى لم يكد سمعى يعتقد أنها كلماتك، ولو لم تؤكدها العينـــان اللتان كانتا تراكِ عندما كنت تنطقين بها، هذا الإحساس الجديد والحنان اللذين شعر بهما قلبى عندما سمعت هذه الكلمات، أرجو أن تسمحى لى أن أتحدث معك، إذ إننى لا أعرف ماذا يجب علىَّ أن أقوله لكِ، لكـــن إذا منحتينى فرصة الكلام معك ستعرفين أنـــكِ ســـتحتفظين بكرامتـــك وستنتقمين من اجترائى".

يا لقلة الاحتياج إلى الإرادة، لمن توافقه النجوم كى يتجاوب مع ما يرغب! لا يمكن أن تصف الكلمات ما شعرت ديانا به من خلال هذا الخطاب الذى همس به العاشق تليو فى أسماع روحها؛ وهكـــذا كانـــت ديانا أكثر سعادة وحنانًا مما تظهر فى الحقيقة وأعمق من بساطة حيلة ذلك الخطاب، فأجابته هكذا:

"يا تليو، الذنب عند أخى أوكتابيو الذى أحبكم لكـــرم شخـــصكم وصفاتكم؛ أنت لم تخطئ لأننى أنا التى وضعت نفسى موضعًا تـــسبب فى الكثير من الاجتراء. فيما يتعلق بمبادلتكم الحب، فإن هذا حسب ما يسمح به وضعى؛ ولذا سأطيعكم فيما يتعلق بإعطائكم الفرصة لتتحدثوا إلىَّ، إلا أن ذلك ليس من الممكن، لأن الغرف الموجودة حول غرفـــة نومى تطل على أفنية بعض البيوت الصغيرة لـــبعض الفقـــراء، ولـــن أتجرأ لأى سبب فى العالم على إغضاب أمى وأخـــى، إذ إن التحـــرر المطلق من التزامى ربما يصل إلى أسماعهما".

لم تعدم ديانا الفرصة لإعطاء هذه الورقة لثليو، الذى لم تتح لـه فى حياته فرصة كهذه تسبب له هذا السرور الكبير؛ لأنه كان يعلـم أن فى البيوت الصغيرة التى ذكرتها له، كانت تعيش السيدة التى ربته. لذا قام بزيارتين أو بثلاث لهذه السيدة، وفى الأخيـرة كـان يرجوهـا أن تذهب لتعيش معه فى أفضل غرف بيته؛ لأنه كان يؤلمه أن تعانى هى من عدم الراحة. فكرت هذه السيدة بخبرة كبار السن، أن الذى دفعه هو الحب الكامن فى صدره، ولذلك كان من السهل إقناعها ومن السهل أن تمضى حيث أراد. أحتفظ ثليو بمفاتيح تلك الغرف، وبإظهارها لـديانا، جعلها تفهم بالإشارة أن هذه الغرف أصبحت له، وأصبحت هى آمنـة من مخاوفها. جاء المساء، وذهب ثليو ليرى إذا كانت شمسه قد أشرقت بعد(*)، والتى بكثير من الحذر عند سماعها خطوات فى الفنـاء؛ كـان وقعها يتردد فى أعماقها، فتحت نافذة، ثم فتحت بعد ذلك مشربية، ثـم وضعت وجهها فى الإطار، وهى مملوءة بالحب والخـوف. مـع أول ارتباك وضعف يحملهما ثليو بين ضلوعه، وشعور غمر قلبـه بـدماء عذبة وعينيه بالفرحة، همس إليها بكلمات رقيقة، وناعمـة، وعاشـقة جدًا، استطاعت ديانا بالكاد الرد عليها؛ لأن الخجل عقد لسانها، وهـذا الشعور الجديد عتّم فهمها. هناك وجدها مثل الفجر؛ الذى طلع بصعوبة بعد الشمس، وهى تنظر إليه من مكان أعلى.

(*) يتلاعب لوبى بالألفاظ، فالشمس التى تشرق ليلاً هنا تذكرنا بالنجوم –الفتيات- التى تطلع فى وضح النهار فى مسرحية "نجمة إشبيلية". (المراجع)

أمضوا على هذا النحو عدة أيام، دون أن يجرؤوا إلا على زيادة الإحساس بالحب والوحدة فى الغياب. كانت النافذة الأرضية تبعد أربعة عشر أو ستة عشر قدمًا، ولهذا طلب منها ثليو ذات ليلة أن تسمح له لكى يصعد إليها. فتظاهرت ديانا أنها تضايقت كثيرًا، دون أن يثقل عليها الإذن، فسألته، دون أن تحدث كثيرًا من الصخب، يمكن لذلك إحضار سلم من منزل لم يعد أحد يعيش فيه؟ فأجابها ثليو، بإذن منها: سيصعد هو دون أن يحضر سلّمًا. واتفق الاثنان وتعاهدا على ألا يدخل من النافذة. آه ياحب، كيف ترفض أشياء ترغب فيها! أسعد الله من يفهمك. أخرج ثليو سلّمًا من الحبل، كان قد أحضره فى بعض الليالى لتلك اليلة التى يحظى فيها بالسعادة، وبإلحاقه بعصا، كان قريبًا بشكل متعمد، ربط هو الأطراف، وقذفه إلى النافذة بعدما نبهها، ثم أشار إليها أن تمرره من خلالها. وقد وضعته فى المكان المناسب ؛وهى مرتبكة ومرتعده، وجد ثليو صعوبة فى تثبيت السلم ولكن عندما وثق جسده فى الدرجات النقالة، وجد نفسه بين يدى ديانا، التى كانت حجتها فى إمساكها به، هو ألا يقع، ولكنه كان يتوقع منها ذلك. قبّل ثليو يديها بالحرص نفسه شاكرًا السلامة والحياة، لأن حبه لهما حب رفيع المستوى. ما فعله ثليو بدافع الرغبة صوره على أنه من باب تقديم الشكر. نظر الاثنان فى كل الاتجاهات والجوانب بحرص، خائفين من أن تكون النافذة مرئية، وعندما تأكدا من استحالة ذلك، أو لأنهما كانا يتمنيان ألا يبدو لهما كذلك، وعن قرب وبمودة ظهرت مقاصد ومبادئ الرغبات، التى تعتاد الحمامات العاشقة إهداءها من المناقير وتبادلها مع الهديل الرقيق وهكذا استمرات الحوارات التى أشرنا إليها سرًا على

مدى ليالٍ، لأن ديانا لم تعط الفرصة لما كان يتطلع إليه ثليو على الرغم من توسلاته المؤثرة التى كان يؤكدها بأغلظ الأيمان. هنا أتذكر بعض سطور الحب، التى كتبها تيرنثيو[٩] فى مسرحيته *أندريا*؛ إذ كان لثليو أربعة من الخمسة: فقد كانت الرغبة تعذبه بوضوح. وكم كان يظهر بليغًا! وكم من أشواق كان يتظاهر بها! وكم من وعود! وكم من مبالغات كان يبحث عنها! وياله من ممثل عذب؛ لآلامه يغير لون وجهه، ويشكو بكلمات رقيقة! وأخيرًا، ذات يوم طلب منها بعزم وبثبات الإذن بالدخول إلى الغرفة، ولصمت ديانا، ولقلة المقاومة من جانبها دخل غرفتها، وجثى على ركبتيه، وطلب منها بدموع زائفة أن تعفو عن اجترائه.

ياسيدة ليوناردا تفضلوا حضرتكم و قولوا لى إذا كان الرجال يستطيعون فعل ذلك وقوله، فلماذا يهتكون أعراض النساء بعد ذلك؟ يستميلون مشاعرهن بالخداع ، ثم يريدون منهن أن يصبحن بلا مشاعر كالحجر بعد تعرضهن للاحتقار والأذى. ماذا عساها أن تصنع ديانا مع هذا الاجتراء؟ هل كانت ديانا طروادة[١٠] ، أو كانت كارتاخينا أو نومانثيا[١١]؟ يا لحسن ما قاله الشاعر:

---

(٩) تيرنثيو (١٨٥- ١٥٩ ق.م)، كاتب مسرحى لاتينى. كان قد ألف ست مسرحيات، نذكر من بينها: *أندريا*، و *الخصى*، و *إثيرا*، و *الذى يعذب نفسه*. و كانت كل مسرحياته تقوم على أساس التحليل النفسى.

(١٠) طروادة: هى مدينة قديمة فى آسيا الصغرى، تقع فى مكان مدينة هيسارليك الحالية، بالقرب من الدردانيل. كانت مدينة مزدهرة فى الألف الثالثة، ثم دمرت فى مناسبات مختلفة بسبب الحروب، أو بسبب الكوارث الطبيعية حتى تم هدمها تمامًا فى نهايات القرن الثالث عشر، أو أوائل القرن الثانى عشر ق. م.

(١١) كارتاخينا و نومنثيا: مدينتان إسبانيتان؛ الأولى فى محافظة مرسية . أما نومنثيا فهى مدينة قديمة تقع فى محافظة سوريا الإسبانية. قاومت الحصار الذى ضربه حولها بومباى (١٤٢ – ١٤٠ ق.م) =

تأخر غزو طروادة ؛

لكن فى النهاية أمكن غزوها!

أغشى على الفتاة الحائرة؛ فتلقاها ثليو بين ذراعيـه ووضـعها باحترام وشرف فى فراشها؛ حيث نفعت دموعه الخاصة كماء للإغماء وكنار للقلب؛ لأنه على طريقة أولئك الناعسين تشعرك ليالى الشتاء بأن السماء تمطر، وهكذا فإن ديانا بين حلـم الإغمـاء و يقظـة الإرادة، شعرت بدموع ثليو تنهمر فوق وجهها. فأفاقت تمامًا من هذا الحـدث، وعاد يطلب منها أن تسامحه، إذ إنها لم تستطع رفضه، لأنه كان ثقيلاً على نفسها أن يطلب منها ذلك؛ لكنها توسلت إليه أن ينفذ الكلمات التى وعدها بها بعدما دخل فى غرفتهـا، علـى أن يـذهب دون أن يهـين كرامتها أو يفسد سعادتها. لكن ثليو لم يستطع إطاعتها فى ذلك الحـين، ولم يعتقد أن المقاومة قد تكون أكبر من الفرصة، فقد اسـتعد ليكـون تاركينو بالنسبة للوكرثيا[١٢] الأضعف، و بين القسم و الوعـود هـزم سمعتها، وأصبح من الواجب العادل أن يكون زوجًا لهـا. هنـا أكّـد الاثنان من جديد على مشاعر الحب، ولم يحـدث لثليـو مـا حـدث

= و خلفائه حتى تم غزوها بواسطة إميليانو عام (١٣٣ ق.م). وفوق أطلالها أقاموا مدينة نومنثيا الجديدة. عثر عليها عام ١٨٦٠، و منذ عام ١٩٠٥ بدأت فيها الحفريات الأثرية.

(١٢) تاركينو المغرور (٥٣٤- ٥٠٩ ق.م). آخر ملك أسطورى لروما. القصص التقليدية تقدمه على أنه طاغية. فبعد اغتصاب لوكرثيا بواسطة ابنه السادس، قام الرومان الثائرون بطرده، وماتت لوكرثيا منتحرة حوالى ٥٠٩ ق. م. وهذا الحدث أثار الانقلاب الذى وضع نهاية للحكم الملكى فى روما وأسست الجمهورية.

لمغتصب الحسناء تمار؛ لأن رغبته في إتمام الزواج ازدادت، ولم يترك مجالاً للجمال للخوض في الإحساس بالندم.

بعدها عُرِفَ عن الفارس السعيد حسن حظه، إذ إنه بماله القليل منح خدمه ثيابًا خاصة، إذ إنه عندما ينتصر الحب، لا يبخل، ولا يفكر في أن يخسر ما ملكه ذات مرة. سأل ثليو ديانا، إذا كانت أمها تأتي إلى غرفتها في بعض الأحيان، فقالت له لا؛ بهذا سمح لنفسه أن يظل فيها عدة أيام، بينما هي على مدى وقت طويل كانت تتردد في أعماق نفسها صورة ما حدث، بحيث أنها لم تستطع أن تخفى عنه حقيقة ما تشعر به، وبدموع كثيرة أظهرت له ندمها، وخوفها من أن يعرف كل من ليسينا وأخيها الأثر العلني للفضيحة. ولهذا كان يصل إليها ما يقال في كل المدينة عن اعتزالها وحرصها على الاحتفاظ بالمظاهر، بينما كانت قريباتها وصديقاتها مصرّات على حُسن سُمعتها، وصدق شرفها. وكان ثليو يقترح عليها الطرائق الممكنة لعلاج الضرر، فإن قتل الابن لم يأتِ في تفكيره، لكنه رأى أنه إذا طلبها للزواج يعني العداء مع أوكتابيو، وهو لن يزوجها له، لأنه فقير جدًا، فعزم على طلبها من القاضي الكنسي؛ لكنها رفضت هذه النصيحة، لأنها بدت لها مؤذية جدًا لشرفها، إذ إن ذلك يعني كشف العلاقة الغرامية وما ترتب عليها. فالفتيات النبيلات إذا نظرن إلى هذه النهاية، فلن يقدِّمن بدايات لتعاستهن. في النهاية ترك ثليو في يد ديانا مصيرها حتى لا يخسر صداقة أوكتابيو، إذا طلبها كزوجة، وكذلك لأنها لم ترض أن تتدخل العدالة في زواجها.

لعنت ديانا نفسها ألف مرة لأنها سمحت لثليو أن يدنس شـــرفها، إذ إنها أحبته برقّة، وكما يقال بلغة عامة الناس، كان النور يـــشعُّ مـــن عينيه. وهو وسط هذا الجو من البرد بين اتخاذ قرار أو اتخــاذ قــرار آخر، لأن النفس الحائرة من السهل أن تنتقل من رأى إلى آخر، كمـــا قال سينيكا[١٣]، فقرر أن يقول لها ذات يوم إنها إذا قررت ترك منـــزل أمها، فإنه سيحملها إلى إسبانيا الجديدة[١٤] وسيتزوجها: و بلغت ديانـــا من اليأس مبلغًا كبيرًا، لدرجة أنها قبلت الرحيل، وطلبت منه باكية أن يحملها بعيدًا ؛حيث لا ترى شدة عذاب أمها ولا ثورة أخيها، حتى ولو قتلها عند أول جبل. وبالصدفة لم يكن ثليو أقل ندمًا منها، فوضع عينيه على الخطر، ونصحه الخوف، وخطط للرحيل، لأنه قد علم من ديانـــا بالضيف الجديد الذى بدأ ينمو فى أحشائها، وبما أن البيت خاص، فقـــد أصبح ذلك الضيف يتوسع بداخله. كان لثليو جوادان جمـــيلان، كانـــا ينفعانه فى الطريق وفى السفر؛ جهَّز واحدًا باللجام، ووضع على الآخر مقعدًا ثريًا، وبعناية كبيرة وضع سترتين للسفر ذاتا ألوان وزينة، واحدة له والأخرى لديانا. وظل ثليو مع ديانا بعض الليالى، يحدثها عما أعدَّه وعما احتاط به للرحيل، وهذا ما سيجعله يشعر برضى واضح؛ لأنهـــا تخيلت أنه سيعتذر بحزنٍ شديد؛ وباعتبار أنها لن تعود مطلقًـــا لبيتهـــا

---

(١٣) سينيكا: كان يلقب بسينيكا العجوز أو الفصيح، ولد فى قرطبة عام ٦٠ ق. م تقريبًا، وقضى نحبه فى روما عام ٣٩ م. وهو كاتب لاتينى. ألف المناظرات، والعديد من الوثائق الثمينة عن تعليم الخطابة فى القرن الأول الميلادى.

(١٤) المقصود بإسبانيا الجديدة هى أمريكا اللاتينية حديثة الاكتشاف آنذاك.

ولأقاربها، أرادت ألا تفوت فرصة الاستفادة من بعض الأشياء؛ ولهذا السبب ولما قد يحدث لها، لأن الأقدار تتغير، وفي قليل من السنوات تحسن للعشاق خارج أوطانهم. أخذت مفاتيح ليسينا وأخرجت من صناديقها أغلى المجوهرات التي تمتلكها، مع عدد من العملات؛ ووضعتهم معًا داخل صندوق صغير كانت تمتلكه منذ حداثة سنها.

جاءت الليلة التي تواعدا فيها على الرحيل، وارتدى ثليو في ذلك اليوم ثيابًا فاخرة، سوداء، ليأمن بدرجة كبيرة من أوكتابيو؛ لكن كما لو كانوا قد أبلغوه بنيته في الرحيل، فلم يبعد عنه ولا خطوة مع أنه قال له مرتين أو ثلاث إنه يجب عليه أن يقوم ببعض الأعمال الاضطرارية. كانت الساعة التاسعة تماما، ولم يبعد أوكتابيو عن جانب ثليو الذي أراد مضطرًا أن يذهب، وبإلحاح واضح وغير عادي اصطحبه معه. دخلا معًا في صالة لعب؛ وهي من تلك الصالات التي يتوافد عليها الشباب العاطل: فالبعض يلعب، والبعض يتهامس، والبعض ينسى رعاية بيته بضمان أنهم يذهبون عادةً تاركين آخرين يعتنون به. أحيط ثليو بخوف حزين، لأنه إذا ترك أوكتابيو، فإنه سيرسل غلامًا ما كي يتعقَّبه ليعرف إلى أين يذهب، وإذا انتظره فإنه سيفقد فرصة إخراج ديانا، فقرر الصبر والاستعداد للنصيب، وبدا له أيضًا أنه قد يكون عذرًا كافيًا له أمام ديانا عدم استطاعته البعد عن أوكتابيو.

فديانا، التي لم تكن غافلة عما يجب عليها فعله وما يجب عليها أخذه معها، ارتدت ملابس جديدة فاخرة، وأخذت المفاتيح سرًا، وظلت

تنتظر ترثليو في شرفة كانت فوق الباب. وعندما دقت الساعة الثانية عشرة وهو وقت يخرج فيه أخوها دائمًا من اللعب أو من غيره من اللهو والتسلية الشبابية، وبينما هى تنتظر مليئة بالشكوك القاتلة والهموم رأت على ضوء القمر رجلاً يأتى ذا قوام جميل ومهيئًا تمامًا بقبعة من التفتا لها طرف عريض، وريشة بيضاء وشىء ما من الذهب وقرطان من الماس، كان يتلألأ عند ظهوره؛ هكذا تصورت في هذا الشخص أنه ترثليو كما تصورته فيما تلا ذلك. مضى الرجل دون أن ينتبه إلى شىء، وشى، خائفة وعمياء، لثغت إليه بالسين مرتين؛ التفت الرجل بوجهه، ورأى امرأة جميلة الشكل وفى بيت نبيل جدًا، فاقترب منها دون أن يتحدث إليها، خوفًا مما قد يحدث له. فقالت له ديانا حينئذ: "هل حان الوقت المناسب ؟" وأجابها هو: "أى وقت يكون مناسبًا". حينئذٍ ودون أن تنتبه إلى صوته، وبالخيال المخدوع الذى كانت تنتظر به، أعطته الصندوق، وقالت: "انتظر عند الباب". أدرك الرجل أن الرسالة ليست له وأن المرأة كانت تنتظر شخصًا أخر، ولكن أعماه الطمع، فأسرع هاربًا خائفًا من أن السيدة إذا أدركت الحقيقة، فسوف ستصرخ. ودون أن تحدث ضجيجًا، وصلت ديانا إلى الباب، وفتحته بحرص شديد، وعندما لم ترثليو، تصورت أنه لمزيد من الحرص والاطمئنان ذهب إلى آخر الشارع، وهى تتبع خداعها، وصلت إلى خارج المدينة؛ حيث رأت الحقول والأشجار وحدها، وأرادت أن تعود ألف مرة؛ لكنها خافت من وجود أخيها فى هذه اللحظة فى البيت؛ وقد يتسبب وجود الباب مفتوحًا فى جلب الارتباك

والضجيج، ولم تعتقد أن ثليو وهو الرجل النبيل العاشق الملتـــزم جـــدًا سيفضح نفسه بالطمع فى تلك المجوهرات. وعنـــدما رأت أن الـــساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل فى الكنيسة الكبيرة عبـــرت القنطـــرة، وبدأت تمشى عبر تلك الصخور الوعرة، مع أنها كانت مبللة بـــالعرق المميت وتدور فى رأسها آلاف الأفكار والشكوك، وأخذت تبتعد أقصى ما تستطيع عن الطريق الملكى، حتى وصلت إلى جبل وخـــلال تلـــك الرحلة أوشكت على الموت ألف مرة، إذ لم يمنـــع ذلـــك إلا الخـــوف الحقيقى من فقدان الروح.

الرجال الذين كانوا يلعبون ظلوا حتى الثالثة من بعد منتـــصف الليل مستمتعين. فى هذه الساعة ذهب أوكتابيو إلى بيته وكان يـــصحبه ثليو، الذى حاول عند وداعه أن تسمع ديانا صوته لكى يكون ذلك هـــو العذر فى تأخيره. دُهشَ أوكتابيو من أن بابه لم يكن موصدًا فى مثـــل هذه الساعة، فتخيل أن خادمًا سمع صـــوتهما فتـــرك البـــاب مفتوحًـــا لإرضائه ولإحساسه به. بحث الخادم عن المفاتيح ولم يجـــدها، فظـــل ساهرًا حتى استيقظ على هذا أوكتابيو أولاً قبل طلوع النهـــار وعنـــدما وجده متيقظًا بلّغه الخادم أنه عندما لم يجد ما يغلق به الباب فقد ظـــل فى مكانه هناك؛ لأن المفاتيح لم تكن موجودة فى المكان المعتاد الـــذى توجد فيه دائمًا. فى ريبة من الخادم، نادى أوكتابيو على الخادمة التـــى كانت فى غرفتها، وهى سيدة فُضلى وموثوق بهـــا، وبـــسؤالها عـــن المفاتيح، وهى ناعسة ومندهشة، تسببت هى وهو فـــى إحـــداث جلبـــة وضوضاء عند الباقين من سكان البيت، فدخلت فتاة إلى غرفة ديانـــا

فلم تجدها فيها، ووجدت السرير مرتبًا، فتسلل إليها الريب وقالت باكية: "آه يا سيدتى ويا خيرى! لماذا لم تأخذى معك خادمتك التعيسة فلوريندا؟" فدخلت الأم والأخ على هذه الصيحات وعندما أدركا غياب ديانا عن بيتها وعن شرفها، سقطت ليسينا على الأرض، وفحص أوكتابيو وهو شاحب اللون وبأفكار مشوشة فى رأسه الخدم، وأخذ ينظر فى كل مكان كالمجنون. قالت فلوريندا إنها منذ ثلاثة أو أربعة أيام فقط رأتها تبكى برقة وعذوبة بالغة، مع أنها كانت تتكلم عن أشياء أخرى، كانت الدموع تتساقط من عينيها بحزن وكانت تصدر عنها تنهدات عميقة. وها قد طلع النهار وافتضح الأمر، عندما أرسلوا إلى اثنين من الأديرة ؛حيث كان لديانا خالتان راهبتان أجابت كل واحدة بأنها لا تعرف شيئًا عنها، وكذلك أيضًا كل القريبات والصديقات اللاتى فى لحظة واحدة امتلأ بهن البيت. من هذه الشائعات، وهذه الأصوات والتحركات شاع الخبر فى المدينة، والأصدقاء الحاقدون، إذا كان هناك أصدقاء حاقدون، بدأوا يقولون أن ثليو أخذها، وأخرون يؤكدون أيضًا أنهم رأوها. سمع فنيسو خادم ثليو هذا الكلام بين الحلقات الصغيرة من الناس فى البلدية، وفى السفينة التى يطلقون عليها سان كريستوبال، ولكونه رجلاً حكيمًا تجرأ وقال إن مَنْ يقول إن ثليو ارتكب مثل هذه الخيانة ضد أوكتابيو فقد كذب؛ وعندما أدار ظهره للمشائين، أخذ يقول: "فى الثالثة بعد منتصف الليل فارق ثليو أوكتابيو، وقد تركت أنا ثليو نائمًا، وسيأتى سريعًا ليرد شرفه". وأيقظ فنيسو ثليو الذى سمع ما حدث، فظل خارجًا عن شعوره لمدة طويلة،

ولمعرفة مدى أهمية أن يعود إلى رشده، ارتــدى ملابــسه مــسرعًا، وبخطوات مرتبكة وحائرة ووجه شاحب أخذ يمر على كــل الأمــاكن التى أخبره فنيسو أنهم يتهمونه فيها، فبزيارته أحس المشاءون بالخجل؛ حيث أضيف حزنه إلى الصداقة التى تربطه بأوكتابيو، والمعروفه جدًا لدى الجميع. وجد ثليو أوكتابيو عند بوابة بيته، فنظر كل منهمــا إلــى الأخر، وظلا هكذا واقفين صامتين بلا حراك، يشعر كل منهما بــالألم. كان ألم أوكتابيو كبيرًا، لكن ألم ثليو كان أكبر. عندما تمكّن ثليو ســعى نحو أوكتابيو وأخذه من يديه، اللتين كانتــا ترتعــدان، وتحولتــا إلــى قطعتين من الثلج، وقال له: "ماذا كان يمكن أن يحدث لى ويسبب لــى حزنًا شديدًا، وإن فقدت الشرف؟ آه، يا أوكتــابيو إن ألمكــم اختــرق روحى!" ومع أن أوكتابيو فارس شجاع، فقد خارت قواه وأغشى عليه بين ذراعى ثليو، فقد رقّ لرؤية الدموع فى عينيه. حملوه إلى غرفتــه؛ حيث أفاق إلى رشده وعاد لسابق عهده أمام مشاعر ثليو. هنــا أخفــى المذنب مشاعره وتساءل بحماس عن المساعى التى قــاموا بهــا. وقــد أشــار أوكتابيو إلى كل شىء بإسهاب، فقال ثليو إنها غير موجودة بالمدينــة، وقد يكون من الأفضل اللجوء إلى كل الطرق للبحث عنها، وســيكون هو الأول فى البحث عنها. وربت على كتف أوكتابيو مشجعًا، وأعطاه وعدًا بألا يعود إلى طليطلة بدونها أو بدون أن يعرف ما حــدث، ثــم تعانقا. ذهب إلى بيته، حيث كان كل شىء معدًا، وجــد بــسهولة مــا سيرحل به، وعند حلول الظلام، وبرفقة خادمه فنيسو فقط خــرج مــن المدينة، باكيًا وراجيًا السماء أن تقوده إلى المكان الذى توجد فيه ديانا،

بهذه التنهدات، والضيق ولوعة العشق التي تلين لها الصخور والأشجار، وفي الجبال؛ حيث يجرى نهر التاخو كانت تجيب الأصداء.

وأصبحت ديانا في واد يقطعه جداول الماء من جوانب مختلفة، وكانت تظهر أجزاء من مياهه بين أشجار الأسل والبلوط، كما لو كانت مرآة ما قد تحطمت؛ جلست قليلاً، وشربت وأنعشت صدرها من الكرب والألم بعد مضى ليلة حزينة، وبينما كانت تخلع حذاءها لتعبُر هذا الجدول، قالت: "آه، يا لها من سعادة فارغة، بأى حقائق تدفعون ثمن الأكاذيب التى تتظاهرون بها علينا! كيف تخدعون بكلمات عذبة جدًا، لتحصلوا على متعة زائلة من خلال أهداف حزينة جدًا! آه ياثليو! منْ كان يعتقد أنك ستخدعنى؟ انظر لما حدث بسببك، إذ إننى وصلت، بسبب حبى لك، إلى أن أكره نفسى، فلا يوجد الآن شىء شاق بالنسبة لى أكثر من هذه الحياة التى كنت تحبها؛ لكنى حقًا اعتقد بأنك إذا رأيتنى ستحزن لما حدث لى". وفى هذا الوقت نظرت إلى قدميها، وتذكرت كم كانت محببة إلى ثليو، ولم تعبر الجدول، وظلت لبرهة، وهى حزينة باكية، ناعسة على صوت الماء بينما كان هناك راعٍ، ليس بعيدًا عن المكان الذى كانت فيه، وكان يغنى:

بين شجرتين من الحَوَر الأخضر

تشكلان معًا قوسًا،

يمر التاخو صامتًا،

كى لا يوقظ الطيور.

أرادت الأذرع مناقشة

جمع الجذور،

لكن النهر الحانق

لا يسمح بوصول الأغصان

منتبهًا ينظر إليهم سبايو

من صخرة مطلية،

ظلال لمياهه العذبة،

وبرج لحقوله الخضراء.

الشياه مبعثرة

فى الماء والمرعى

فبعضها يشرب، وبعضها يرتع،

وأخريات يستمعن له.

شاكيًا يعيش الراعى

من أحقاد لاوسو،

فهو أغنى من النهر بالذهب؛

وأحمق لكونه عنيدًا.

هكذا يبعد عن إليسا،

كما يبعد التاخو عن الدردار،

قوى فى الفصْل بين الجسدين،

ولكن ليس فى فصْلِ الأرواح التى تربطهما معًا،

أخذ سيلبيو الآلة،

وعلى آنات آلامه،

أجابته بلابل الغابة منشدةً:

"ستجمع، أغصانك،

أيها الحورَ الشامخ،

عند انحسار مياه

نهر التاخو الصافية؛

لكن إذا كانت التعاسة،

التى تهزم السنين، مُقدَّره،

فستنمو مع الزمن

الأحزان والآلام".

أفاقت ديانا وهى متوجسة خيفة؛ حيث تصورت، إما أن أخاها يتبعها، أو أن ذلك الراعى الذى كان يغنى كان يقول لها من أين تذهب.

واصلت السير حافية على ضفة الجدول، وعندما تصورت أنها أصبحت آمنة وأنها لم تعد ترى الماء، لأنه كان ينقسم عند سفح جبل صغير، عادت وغطت قدميها، ثم سارت رويدًا رويدًا، دون تناول أى شيء من الطعام سوى الماء الذى تناولته من ذلك الجدول فى الصباح، إلى أن منعتها من السير عتمة الليل. فوقعت مغشيًا عليها بين بعض الأشجار، وبما أنها لم تجد منْ يعزيها ولا منْ يساعدها، نامت فى هذه الإغماءة نفسها واستراحت بعض الوقت، وهكذا أمضت ليلتها، ذاهلة عن الخوف الذى تثيره عن قرب أصوات بعض الحيوانات والضوضاء الشديدة التى تأتى من بعض الينابيع، التى تنحدر من تلك الصخور، فدائمًا تكون ضوضاؤها أكبر من صمت الليل. تألم من خوفها الفجر، أو ربما يكون قد غار من دموعها، فبزغ مبكرًا جدًا، ومع ضوء الفجر الجديد أفاقت وهى تُقوى ضعفها النسائى وتمنت الموت، ومضت ديانا من حيث تصورت أنها قد تصل بسرعة أكبر إلى نهاية بائسة. وها قد علت الشمس عند منتصف اليوم، عندما تصورت أنها تُهين السماء إذا تركت نفسها للموت، ثم واصلت سيرها إلى أن وجدت بين الأشجار الخضراء نافورة، وفى زينتها وجدت بعض الأعشاب، التى أكلتها بدموعها، ثم ارتجفت من حرارة قلبها، وانهمرت الدموع من عينيها. بهذه الطريقة مشت ثلاثة أيام، وفى نهايتها، وهى تخرج من كثافة الشجر إلى أرض فضاء، فقدت قواها، وهى على مقربة من شجرة من هذا المكان رأت من بعيد غلامًا راعيًا، كان يتحدث مع امرأة من سكان الجبال، ويبدو أنه كان ذاهبًا حيث كانت هى. هناك تصورت ديانا أن

العالم كله قد عرف السبب الذى من أجله تركت بيت أبويهـــا، وحتـــى هذان الراعيان جاءا ليوبخاها ويقبحاها على حبها لثليو. وهنا خـــارت قواها فتركت نفسها تسقط فوق الحشائش الخضراء، وبعينين مُميتتـــين زائغتين فقدت الرؤية. الفتى الذى كان كل شغله الشاغل هو أن يعجب المرأة القروية، وكان يعتقد أنه فى ذلك المكان لن يسمعه إلا الطيـــور التى كانت ترافقه، بدأ يغنى هكذا؛ وإذا شئتم ياسيدة ليوناردا، وإذا كانت لديكم رغبة فى معرفة أقدار ديانا أكثر من رغبتكم فى ســـماع غنـــاء فابيو، فيمكنكم تخطى هذه الأبيات من الشعر الرومانسى دون قـــراءة، وإذا أردتم التأنى فى فهمها، فلتعرفوا ماذا تقول هذه الأفكار الـــشاكية، لأتل أسباب العشق.

أه، كم كانت حقائق الحب

دائمًا نكبات!

أفضل مثال هو ما عندى من حقائق،

إذ إنها تُجازى بالأكاذيب.

عندما تعاملتُ بالغش

مع صدقك، يا فيليس يا جاحده،

كم من شكوى رأيتها ارتسمت على فمك،

وكم من لؤلؤة أشرقت فى وجهك!

أه، كم من ليالى قلت فيها،

متى تأتى على بابى وتنادينى:

"بلا جدوى ينادى على الباب

منْ لا يناجى الروح!"

رُعاتى قالوا لكِ:

"فابيو ليس فى الكوخ"؛

وكنت أقول أنا:

"لماذا يبحث من يسبب التعب؟"

على شكواك فقط

تجيب المياه،

لأنهم تهامسوا عنك، يا فيليس

لا لأنها كانت تسمعك.

أتذكر أنكِ ذات ليلة

قلتِ لى بألف شوق:

"اترك نفسك يافابيو للحب،

إذ إنه لن يكلفك شيئاً".

أنا لا أبغى أن تحبيننى؛

إذ إن الحب روح،

فلم أرَ قط سيدة عاقلة،

أردتُها مكرهة.

على أعتاب بابك

كنا نتخاصم حتى الفجر،

أنتِ، لأننى يجب علىّ الدخول

وأنا، كى لا أدخل فى بيتك.

"فقلت يائسة،

"فلتعاقبك السماء يا فابيو،

بالنار التى تثلجنى بها،

وبالثلج الذى تحرقنى به".

أصررتِ، يا فيليس الجميلة:

والإصرار ينهى الحب؛

إذ إن منْ يعتقد أنه لا يُحب،

يخدعه المحبوب.

ليس لأحد ثقة،

فى المعاملة ولا فى الزمن

لأنهما يمران دون شعور،

ويشعرون بهما عندما يغيبان.

أحببتك كثيرًا،

ونحن معًا يحسدوننا:

القمر، عندما يحل الظلام،

والشمس، عندما يطلع الفجر.

فالمروج، والجبال، والأدغال،

عشقت سماعها لنا؛

والنباتات المتسلقة العاشقة

تعلمت منا عناقها الأخضر.

لكن نزول سيلبيو، صديقك

الراعى القديم، فى هذا الوقت

من الجبال المثلجة

جلب من هناك تغيرك.

فلم تَضيعى الفرصة،

إذ إننى عندما كنت أعبدك،

أردتِ الانتقام

من ازدرائى القديم.

أموت حبًا فيك يا فيليس؛

أعترف بأن ليالىَّ

تمضى على أعتابك،

والأيام فى نوافذك.

لا أنادى، لأننى أتخيل

أنكِ ستردين غاضبة:

"لماذا ينادى على الباب

من لم يناج الروح؟"

إذا تظاهرتُ بأننى لا أنظر إليكِ،

فهو اختراع من يحب؛

فعندما لا تنظرين إلىَّ،

أصنع مرآة من وجهك.

كنت تعطينى، يا [illegible]، علامات

وكنت أغضب منها.

الآن أراها وأضعها

فوق العينين والروح.

لا أزيد عليكِ أحزانى،

لكى لا أعطى المجد للسبب،

حتى أعانى أنا من أحزانى

دون أن تأخذى أنت بثأرك

لا تريدين مزيدًا من جنون

حبى الكبير،

فآتى لأضع فمى حيث تطبع قدماكِ.

لكن، مع كل ما أقول،

لا أفكر فى التحدث إليكِ،

فالذى يسير وراء الغيرة

يحكم على الصداقة بالانتهاء.

كان فابيو على حق فى مقولته، لأنه بعد الغيرة المؤكدة يصبح من العار الحب، مع أخذ العبرة من العديد من الحيوانات [illegible]

عنها كل من بلينيو[١٥] و أرسطو، مع أنه يوجد رجال لا يحبون قبل تعرضهم للإهانه، حيث يفتح شهواتهم ما يبغضه الأخرون. فى النهاية، هذا ما كان يغنيه ذلك الفلاح للقروية التى أشرنا إليها من قبل، والتى كانت تستمع له برضا وكبرياء. فى نهاية هذه الأبيات من الشعر التقى الاثنان بين الأشجار؛ حيث كانت ديانا غائبة عن وعيها، ويدور فى خيالها العديد من الحوارات حول مصائبها: فإما تدين ثليو، وإما أن تتصور أنه من المستحيل أن يتقاعس سيد فى قمة النبل، وعراقة الأصل، ومنتهى العقل والرقة، عن الوفاء بواجباته؛ وإما أنها تدين اندفاعها فى الحب، الذى خرجت تبحث عنه بتفكيرها الساذج. وبين هذه الشكوك كان يعذبها أكثر التفكير فى أن ثليو لم يعد يحبها، فتتخيله وهو مغتبط لايقدّر مصائبها ولا يعتبرها كوارث كبيرة. إنها كوارث بالنسبة لامرأة وحيدة وسيدة نبيلة، قطعت مسافات طويلة على قدميها عبر جبال وعرة، دون طعام ودون أمل فى أن تجد نهاية سعيدة لحبها تحْول دون وضع نهاية لحياتها. ظلّ الراعيان ذاهلين عندما شاهدا بين تلك الأغصان مثل هذه الآية من الجمال، مغشيًا عليها، حافية القدمين ومنهكة، ومستسلمة لحقيقة الموت أكثر من استسلامها للنوم الذى جعلها تبدو كأنها تُرسم فى هذا الوضع. نادت عليها الراعية مرتين أو ثلاث مرات، وعندما رأت أنها لاترد، جلست إلى جوارها، وهى تعتبرها

---

(١٥) بلينيو العجوز: عاش فى الفترة ما بين (٢٣ – ٧٩ م). وهو عالم فى التاريخ الطبيعى و كاتب لاتينى. وكان القائد الأعلى للأسطول فى ميسينا عندما فاجأته ثورة بركان البيسوبيو عام (٧٩) التى مات فيها.

ميتة أو أنها قد أشرفت على الموت. أخذت يـديها، وعنـدما رأتهمـا باردتين جدًا ولونهما أبيض، لأنهما كانتا تملكان كـل صـفات الـثلج وخواصه، نظرت إلى وجهها، فرأت أنها رائعة الجمال والحـسن فـى هذا الإغماء، فوضعت رأسها على حجرها وأزاحـت شـعرها الـذى انساب فى حرية وبلا نظام على وجهها وعنقها، فتحرر الـشعر مـن قيوده التى كانت تربطه فى الماضى؛ انتقامًا من العينين، اللتين وقعتـا فى أسرهما وسجنهما. وبما أن رأس ديانا كانت تميل من جانب إلـى آخـر بسهولة، بدأت الراعية فى بكاء رقيق وحزين، معتقدة أنها ميتـة. فـى هذه البلبلة، أفاقت ديانا تمامًا على إحساس الراعى الذى أحبها بـشكل عذرى، ومع أنها لم تعطهما أملاً عن حياتها، هـدأت مـن روعهمـا وقلقهما وأوقفت دموعهما بتأوه منها، آه! مؤلم جدا، مع وضـع يـديها فوق قلبها، كما لو كانت تضغط عليه، عادت كما كانت أولاً، مستسلمة. عندئذٍ استعملت الحسناء فيليس العلاج نفسه فبـدأت تـساعدها بخلـع ملابسها، وأخذ الراعى يحضر المياه من النافورة، وأخذ الماء يتـساقط فوق وجهها مكونًا دموعًا أو لآلىء؛ لكن بهذه الطريقة، بدا مـا كـان يتساقط من عينيها الزرقاوين كأنه لؤلؤ رقيق وأصلى. وما يتساقط من النافورة مزيف. شكرت ديانا كلاً من المرأة القروية والراعى، فسألاها عن سبب سوء حالتها، فقالت لهما إنها ظلت تمشى لمدة ثلاثة أيام دون طعام. عندئذٍ أخرجت فيليس من كيسها ما سمعتم حـضرتكم ياسـيدتى عما يتعودون حمله معهم، فى كتب الرعاة، وبدأت ديانا تأكـل بمـشقة برجاء منهما؛ فقوَّت ضعفها بهدوء، وشعر الجسد المنهك بـشىء مـن

الراحة. بينما كانت ديانا تأكل سألتها فيليس من تكون ومن أين أتت، ولأي سبب، وهي مندهشة من أن الذئاب التي تأتي من الجبال متتبعة أثر الماشية حتى حدود إكستريمادورا[١٦] لم تقضِ على حياتها في تلك الليالي. هنا أجابت: أنه حتى الحيوانات المفترسة قد أبغضتها كبغضها السم، ولخوفها من أن تموت، لم تقتلها. وبمعرفة فيليس الأسباب اليائسة لديانا: التي ألانت الجبل الذي أحبت أن تنهي حياتها فيه، فقد أقنعتها بالذهاب معها إلى المزرعة التي يمتلكها أبوها، واستطاعت إقناعها بأسباب واقعية ودلائل على الحب الكبير، الذي استولدت أمامه ديانا بأديها وإرادتها، واعتبرت أن هذا قد يكون علاجًا لما تحمله في أحشائها، والذي كانت تنظر إليه بعناية طبيعية، عندما كانت تكره حياتها أكثر من أي وقت مضى. ذهبت مع الراعيين وأُحسن استقبالها، مع أن سيلباخيو والد فيليس– وكان وبالصدفه خشنًا جدًا في ذلك السن مثل اسمه– لم يكن في البداية راضيًا عن وجودها في منزله؛ ولكن بعد ذلك، اضطره حسنها وتواضعها إلى أن يظهر بعض الرضا، وذلك لإرضاء ابنته.

منذ أن خرج ثليو من طليطلة، دون أي طريق يقوده سوى حبه، صرخ شاكيًا عند أول جبل؛ لأنه يعتبر أن بسببه هجرت ديانا بيتها، وأمها، وأخاها، وأقاربها، وصديقاتها، وراحتها ووطنها، والأعمال التي كانت تؤديها بسعادة أو بشقاء، وأوشكت على فقد حياتها. ولم يدخل

---

(١٦) إكستريمادورا: هي محافظة تقع في غرب إسبانيا

على مدى ستة أيام أى قرية، وتحملت الخيول أحزانه، إذ إنهـا كانـت تتغذى فقط على الأعشاب. رأى فنيسو قرية من بعيد، كانـت تغطيهـا تقريبًا بعض الأشجار ويعلوه برجان عاليان يزينهما قطع من الإردواز والقيشانى، الذى تتلألأ عليه الشمس. أقنع فنيسو ثليو أن يذهبا إلى هذه القرية، وعند وصولهما، عَلِما من الناس الذين أصغوا إليهمـا بـضياع حبيبة القلب؛ لكنهما لم يجدا فى هذا المكان ،ولا فى غيره مـن تلـك القرى الكثيرة التى تبعد من عشرة إلى عشرين فرسخاً عـن طليطلـة التى مشيا فيها على مدى شهر من الزمن، لم يجدا لها أثـرًا. وطبقًـا لاتفاقه مع ديانا على أن يذهبا إلى بلاد العالم الجديد، خطَر على بـال ثليو أنه من الممكن أن ديانا قد تصادفت مع منْ يحملها إلى إشـبيلية، وهكذا مع اعتقاده بوجودها، ومع رغبته فى أن يبعد عن بلـده، قـرر الذهاب ليتحرى عما إذا كانت موجودة فى تلـك المدينـة المـشهورة. أصبح شكل ثليو قبيحًا جدًا بسبب عدم الأكل وعدم الراحة والنوم فـى الحقول، فقد كان يستطيع العودة بكل تأكيد إلى طليطلة دون أن يعرفـه أحد. عند وصوله إلى إشبيلية، قام بمساعى كبيرة، تلك التى يـستطيع تخيلها رجل عاشق جدًا يحمل فوق كاهله العديد من الالتزامات؛ لكـن عدم عثوره على ديانا ولا منْ يعطيه معلومات عنها ولو بالخداع، لـم يغضبه كثيرًا، مثلما أغضبه رؤية رحيل الأسطول إلـى بـلاد العـالم الجديد، لأن ثليو كان يعتقد أن به ديانا، التى يعلـم بحبهـا، وقيمتهـا وروحها. شاءت أقداره أن يجد مركبًا واحدًا فقط استأجره تـاجر، لـم يكن مستعدًا للرحيل إلا بعد عشرة أو اثنى عشر يومًا؛ تحدث إليه ثليو،

واتفق معه على الرحيل في المركب نفسه، وقبله ربان السفينة، ونشأت بينهما صداقة كبيرة، كان يأكل معه في بعض الأحيان، وكـان يـسأله كلما سنحت الفرصة عن سبب حزنه، ومع أن ثليو كان يعتذر دائمًـا، بقوله إنه لا يريد زيادة همِّه بتذكر بعض الأحداث الحزينة فلـم يبلغـه بشئ؛ وهكذا، حتى جاء وقت الرحيل، وفي جو غني بالرياح، أبحـرت السفينة، وانطلقت في البحر، وبهذا ابتعد ثليو أكثر عن ديانـا، عنـدما كان يتخيل أنه يقترب أكثر؛ لكن الأمل في تحقيق الخيـر والحـصول عليه- مع أنه أمل خادع لا يؤذى، فإنه يشغل الحياة.

كان أوكتابيو يمضى وقته في طليطلة وسط ظـروف مملـوءة بالخزى والعار، والحزن الشديد، لأنه لم يعرف أى جديد من الكثيـرين الذين كانوا يبحثون عن ديانا يجعله يستطيع التمسُّك بأمل ضعيف، فلـم يصل لأى جديد، لا من الأقارب، ولا من الأصدقاء؛ وعنـدما رأى أن ثليو لا يعود، ظن أنه كان اتفاقًا فيما بينهما على أن تخرج هى أولاً ثم يخرج هو بعد ذلك للبحث عنها؛ لكن الحديث الذى دار في المدينة مـن بعض الناس، الذين قالوا بأنهم شاهدوه وحده مع فنيـسو فـى بعـض البلاد، وهو يبحث عنها باهتمام واضح، جعل اوكتابيو يـستبعد هـذه الفكرة من خياله. هكذا، هدأ أوكتابيو بهذا، كما أن أمه صرفته عن هذا التفكير، خوفًا من أن تفقده هو أيضًا.

ظلت ديانا شهرين في مزرعة أولئك الفلاحين الشرفاء كهديـة طيبة من فيليس؛ وعندما جاءتها لحظة الولادة، وضعت طفلاً جمـيلاً،

لكى لا تستطيع الشكوى، مثلما حدث عند بيرخيليو[١٧] بين المخدوعة ديدو والهارب إنياس[١٨].

إذن بقى لى منك

إنياس صغير،

قبل أن تفصلك عنى

السماء الغاضبة.

فى بيتى يلعب،

ووجهك يشبهه

لا لخداعى يأسف،

ولا لغيابك يبكى.

مع أن أوفيد[١٩] أحسه بطريقة أخرى فى رسالته:

---

(١٧) فرجيل: شاعر لاتينى (١٩ ق.م -٨٠ م). من أصل قروى متواضع؛ وهو عضو فى المجمع الثقافى لأسينيو بوليو؛ وكان صديقًا للإمبراطور أوكتابيو، وتعرّف على كل من مثيناس و هوراثيو. وظل بعد ذلك فى روما؛ حيث نشر كتابه عن الجغرافيات. بعدها بدأ ملحمة كبيرة، لم ينهها، وكانت بعنوان "لا انيدا" كان تأثيره فى الاداب اللاتينية والغربية كبيرًا جدًا.

(١٨) ديدو: هى الأميرة الأسطورية لمدينة تيرو، وهى المؤسسة الأسطورية لمدينة قرطاج (٨١٤ ق.م)، وهذا طبقًا لملحمة فرجيل. أما إنياس، الهارب، فقد أحبته ديدو، لكنه كان عليه أن يهجرها، بأمر من جُوبيتر (كبير آلهة الرومان)، وهو ما دفع الأميرة للانتحار.

بالصدفة تركت

جزءًا منك فى صدرى،

والآن تحكم

الأقدار علىَّ بالإعدام.

وهكذا، تفقد ديدو التَّعسة

الحياة بسببك،

بالابن الذى لم يولد

ستكون أبًا وقاتلاً.

لكنى أعتقد أن حيلة أوفيد التى اشتهر بها جدًا كشاعر، أجبرت ديدو على التظاهر بأنها حامل من إنياس لكى تجبره على أن يعود ليراها؛ النساء لا تتصنع ذلك فقط، بل تتصنعن الولادة نفسها. لم يكن وضع ديانا كذلك، لكنه كان حقيقيًا جدًا، فقد كان سببًا لترحالها ومصائبها. حالة غريبة، عندما يجىء ولى العهد، بسبب رغبة فاحشة، فأبوه إما أن يصمت من الخجل، أو أنه لا يستطيع الوفاء بوعده لاستحالة ذلك، فتضيع الثمرة وربما الشجرة، وبعد القيام بأعمال كثيرة

---

(١٩) أوفيد: (٤٣ ق.م - ١٧ أو ١٨ م). شاعر لاتينى. مؤلف مُفضل للمجتمعات الدنيا فى بدايات الإمبراطورية ؛ مات فى المنفى على الرغم من التوسلات التى كتبها فى قصائده الأخيرة عن الرثاء (*حزناء وجفاة*).

جدًا، وقطع مسافات، طويلة والتعرض للجوع والسير بأقـدام حافيـة، يصل هذا الطفل التعيس حرًا إلى ميناء الحياة. بعد مضى شهر علـى نقاهتها، نادت ديانا فيليس وقالت لها: "أنا مضطرة للرحيل عـن هـذه الأرض، ويثقل على نفسى تركك، والرب يعلم ذلك، والتزاماتى الكبيرة تخبرك بذلك؛ سأترك لكِ فلذة كبدى؛ وهذا سوف يجبرنى على العودة. لا يجب أن أرحل فى ثوبى ولا فى ثياب النساء، إذ إننى شقيت بهـذه الملابس، ولذا، فإننى أرجوكِ أن تعطينى بعضًا من ملابـس هـؤلاء الفلاحين الذين يخدمون والدك أو يخدمونك، لأنها ستكون أنظف مـن الرداء الذى أحضرته معى، صنعت بعض السراويل وهو أفـضل مـا علّمته لى النكبات". قالت هذا، ثم بدأت تخلع ملابسها، دون أن تستطيع توسلات ودموع فيليس أن تغيّر قوة إرادتها. أخرجـت قطعتـين مـن الماس كانت تحملهما فى صدرها، وأعطتها الأولى وهى قطعة ثمينـة جدًا، لكى تنفقها على تربية ابنها، وبالثانية دفعت ثمن الاستضافة، أمـا الحب فيستحيل دفع مقابل له. وأخيرًا ارتدت معطفًا، وقصّت شـعرها، وغطت بقبعة ريفية ما كانت تغطيه من قبل الشرائط المنتقـاه بعنايـة، والماس والذهب. كانت ديانا جميلة المنظر ذات جسد طويل ومتناسق، ولم يكن وجهها أنثويًا، فظهرت فيما بعد كفتى جميـل، يـشبه أبوللـو الجديد عندما كان يحرس ماشية الملك أدميتو. ودّعت كلاً من فيلـيس وأبويها العجوزان، وكان الجميع يبكى، وكان أكثرهم بكـاءً لاورينـو، الذى وقعت عيناه عليها، وكان متأثرًا بفكر المدينة. وسمّت ديانا نفسها باسم مستعار هو ليسيس، وهكذا فإن لاورينو الذى كان يزهـو بكونـه

موسيقيًا وشاعرًا، كان يشكو فى بعض الأحيان غيابها من خلال هــذه الأبيات من الشعر، وعندما سمعته فيليس شعرت بشىء مــن الغيــرة ضاعفت آلام فابيو.

ليسيس، بعدما حملت

حياتى إلى التورمس[٢٠]

أحتفل برحيلك

بدموع راضية؛

يفكر غضبى

فى تهدئة النار بدموع العين.

كم كان رائعًا لى

أنه فى عينيك الساحرتين

كانت الروح تمد

جسور الودّ

فحياتى لم تعد حياة

---

(٢٠) التورمس: هو نهر فى مدينة سلامنكا الإسبانية.

بعد رحيلك.

عند موتى الحتمى،

الذى يدركنى الأن، أوقفى

ياليسيس، الأمل

كى أعود لرؤياكِ؛

إذ إنه ليس من العدل أن يُقضى

منْ تسكن روحه فيكِ،

ويأمل فى رؤياكِ.

إذا رأيتِ هذه الربا،

فسيحزنك

ذلك الذى كان يزهر

قدمك البيضاء المكسوة بالثلج؛

فقدمك البيضاء والصغيرة،

امتلكت الكثير من الأرواح والزهور.

لكى تَسْعَدِى بها،

غرستها يا سيدتى،

لا لكى تتركينا الأن؛

إذ إنه لن توجد حياة ولا زهرة

لا فى قلبى ولا فى هذه الغابات حتى تعودى.

فى سجون ذهبية

أمسكت بالطيور الصغيرة،

التى اعتقد أنكِ بسماعها،

ستسُرين كما أُسرٌ أنا؛

ففى قيودك الذهبية

أغنى للفجر وأبكى للمساء.

ها هنا وضعت نافورة

كى تغتسلى،

وتتركين اللآلىء الكثيرة

تتناثر فى تيارها؛

وأنتِ كى تثيرى غضبى،

تركت لى لؤلؤتين فى عينىّ الشاردتين.

وصلت ديانا الشُجاعة والحزينة، بعدما مشت عدة أيـــام، إلـــى مكان قريب من بيخار[٢١]، حيث إنها لم تقترب من بلاسنثيا[٢٢] لخوفها من بعض أقاربها هناك؛ خرجت إلى الميدان، وعنـــد وقوفهـــا فيـــه، أظهرت من خلال ذلك أنها كانت تنتظر المالك. فرآها مزارع ثـــرى، وأعجبه حسن منظرها وجمال وجهها، لكنه تصور أنه شيء مصطنع، كما كان بالفعل[*]. وصل إلى ديانا وسألها عدة أسئلة؛ فعرفـــت كيـــف ترضيه، وأعطته بيانات كاذبة عن اسمها وبلدها، ثم أخذها معه. كـــان هذا الفلاح على علم من رئيس الرُعاة لدى الدوق أنه كان يبحث عـــن غلام، بسبب زواج الغلام الذى كان لديه من قبل، لكى يهـــتم بالطعـــام وبأشياء أخرى مهمة يحملونها إلى الحقل ؛حيث تكثر الماشية هنـــاك. أعطى طعامًا لديانا، وكتب ورقة لرئيس الرُعاة الذى أشرنا إليه وسلمها لها، ووضعها على الطريق وزودها بـــبعض المعلومـــات والعلامـــات والطعام حتى اليوم التالى. لم ير رئيس الرُعاة ديانا، عندما بدأ يضحك من رقة الصديق ومنها، فنـــادى بـــاقى المـــزارعين وبـــين الجميـــع، وباستخدام المكر، ألّفوا نكتة ساخرة. سأله[٢٣] رئيس الرُعاة عن موطنه الأصلى، فأجابه من أندلوثيا، لكن لم يكن داكن اللون كما تتطلب العادة،

---

(٢١) بيخار: مدينة تابعة لمحافظة سلامنكا الإسبانية.

(٢٢) بلاسنثيا: مدينة تابعة لمحافظة كاثريس فى إقليم اكستريمادورا.

(*) نلفت انتباه القارئ إلى إنه من هنا وحتى نهاية القصة ، ستتعامل الشخصيات مع ديانا على أنها رجل .

(٢٣) يجب لفت نظر القارئ إلى أن السؤال موجه لديانا المتنكرة فى ملابس الرجال، وهكذا فى باقى العبارات التى يوجه إليها الحديث على أنها رجل وليست امرأة.

هذا ما سبَّبه وجوده لفترة طويلة فى الغابة؛ حيث كان يتعرض للشمس عندما كان يرغب. أخيرًا استطاع أن يقول له الكثير من الأشياء وأظهر سعادة كبيرة وحماسًا شديدًا؛ وهو يحمى نفسه من خبث وسخرية الفلاحين، المولع بها رئيس الرُعاة، فاستقبله فى بيته، وعندما رآه فى تلك الليلة يهمس بالغناء، بينما كان يخرج بعض قدور الماء من بئر كى يملأ بها حوضًا، تشرب منه الحيوانات المنزلية، سأله إذا كان يستطيع العزف على أية آلة، كما هو معتاد عند الرُعاة فى أندلوثيا. قالت ديانا إنها تستطيع العزف على العود، الذى ربما تُخفف به بعض الأحزان، التى تقهرها بالطبع.

دُهِشَ ليساندرو، هكذا كان يُدعى رئيس الرُعاة، من أن راعيًا يعزف على آلة بعيدة تمامًا عن مجال الحقل، وبدأ ينظر إليه نظرة مختلفة، وليس هذا بأقل من اهتمام سيلبيريا، ابنته، التى منذ أن دخل فى بيته لم ترفع عيناها عن وجهه. أتصور أن حضرتكم ستقولون إن ذلك كان واضحًا، وإنه إذا كانت هناك ابنه فى ذاك البيت، فأنها ستعشق الفتى المتنكر. أنا لا أعرف إنْ كان ذلك حقيقيًا، لكن من أجل أن أكمل القصة، فلتصبروا، ولتعرفوا أن سيلبيريا المذكورة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عامًا، فهو سن يجبر على مثل هذه الأفكار. كان يعيش فى مكان ليس ببعيد عن بيت رئيس الرعاة طالب كان ينظر إلى سيبريا، وكان يمضى فى هذه التخيلات الوقت المخصص للمواد الخفيفة التى أحضرها معه من سلامنكا، أكثر من

الوقت الذى يكرسه لدراسة بـــارتولوس وبالـــدوس[٢٤]. هنـــا أرســـل ليساندرو فى طلب آلة حتى ولو لم تكن عودًا. استطاعت ضبط الآلـــة على صوتها، كما تابعها الطالب، مع أنه لم يدخل البيت، لكنـــه ســـمع جيدًا من الشارع أن ديانا كانت تغنى هكذا:

من بين حوادث ظالمة

جلبتها لى أوهامى،

حيث يكون الآذى آذى،

والسعادة ليست سعادة.

مشاعر حب أحسنوا استغلالها،

مع أنهم لم يمتّنوا لها،

فما لديكم ضائع،

حتى ولو اعتقدتم بفوزكم؛

فماذا تهمُّ السعادة الماضية،

إذا كانت الأحزان الجارية

---

(٢٤) باتولوس : هى مجموعة من الشخصيات الفنية، والموسيقية، والسياسية، و التاريخية من شعوب مختلفة، والواحد منها يُدعى بارتولى أو بارتولوميه أو بارتولوميو؛ وكذلك الحال بالنسبة لبالدوس، فالمؤلف جمع فى هذا الاسم عدد من أسماء الشخصيات السياسية و التاريخية والأدبية التى أسمائها هى بالدو.

أكبر من المسرات،

والمعروف ازدراءً،

إذن لقد ضاع خيرى

من بين حوادث ظالمة؟

أحضروا لى أملاكًا

لتحصلوا على ثقة حقيقية

وتحول غريب

ربما يكون رضا.

لكن كما أن الخداع

يسبق الظلم

كما يثبت ذلك الزمن،

أشعر بأننى مذنب

إذ إن الحالة التى أنا عليها

جلبتها لى أوهامى،

أيتها الأفكار العاقلة؛

لكِ شىء من القداسة،

فبطرق مختلفة جداً

أبلغتيني بعذابي؛

[illegible] لا تعطيكم ثقة

فكانت [illegible] كالغرباء،

فلا يمكن أن توجد أوهام

[illegible] العقل،

سوى الاعتقاد بأنها ليست أوهامًا

حيث *يكون الأذى أذى.*

بين الشك والخوف

كانت تمضي سعادتي،

كمنْ يخشى كما تخشى

العاصفة من السماء،

أن يقضوا على حبي وغيرتي؛

لا أريد سعادة ظالمة،

مملوءة بأحزان كبيرة،

فبنِّية مشكوك بها،

تمضى الروح خائفة

والسعادة ليست سعادة.

تغنت ديانا بهذه الأبيات، فلا شيء من كل ما كانت تحفظه كان أكثر ملائمةً لأحزانها، وبهذه الخدعة، لم يعرفوا من صوتها أنها امرأة، ولا برغبتها فى التخفى أدركوا أنها متنكرة . شعرت سيلبيريا بأنها ضائعة عندما رأت هذه الخفة إضافة إلى الملَكَات الخارجية الأخرى عند ديانا. أتصور أن هذا السياق يبدو لحضرتكم، يا سيدة مارثيا، على أنه كتاب للرُعاة أكثر من كونه رواية، فصحيح إننى فكرت أنه لا لهذا السبب يفقد الحدث فى الرواية متعته، ولن يكون هناك ألطف من محاكاة كتب الرُعاة. بعد مرور عدة أيام، حاولت سيلبيريا استمالة عطف وحب ديانا، وكانت تحرص على إرضائها كلما سنحت الفرصة لذلك، حتى أنهما قد اتفقا فى مساء يوم العيد على أن يتقابلا وحدهما فى بستان صغير مملوء بالأشجار أكثر من الزهور، وهذا البستان تنتفع به بعض القرى. بدأت تسأله عن بلده، والسبب الذى جعله يتركه وإذا كان ذلك لأسباب عاطفية، معتذرة عن ذلك بحجة صغر سنها، وهى تستحسن وتستصوب خطأه، وبدأت تعرض عليه ما كانت تفكر فيه من اقتراحات. على كل هذه الأشياء كانت ديانا تجيب بتعقل كبير وحكمة، مدعية بأن زواج أبيها أبعدها عن بيته، مع المبالغة فى وصف حالة زوجة أبيها الفظة. وفى هذه اللحظة وصل بعض الأشخاص وانقسمت المناقشة، وبإحساس كبير من جانب سيلبيريا، التى من الآن فصاعدًا كانت تنظر إليها بكل صراحة ووضوح. وتهامس

المزارعون حول خجل ديانا؛ وذلك لأنها من أجل ألا يفتضح أمرها، أصرت على أن تقوم بدور الفارس الأنيق مع القرويات اللائى أتين لزيارة سيدته. ولأن البيت كبير وبه الكثير من الخدم فقد كانوا يقيمون العديد من حفلات الرقص، وكانت ديانا تصُر على الخروج إليها لتتسلَّى، بحجة ألا تُغضب الفلاحات، وخصوصًا أخت الطالب الذى أشرنا إليه، التى كانت فضولية للغاية وجميلة، وكانت تقرأ فى كتب عن الفروسية والحب، ولكنها كانت تضايق سيلبيريا. التى بدأت تقول ذات مساء وهى تحترق من الغيرة ودامعة العينين كيف كانت تعيسة جدًا، لأنه[٢٥] لم يتجاوب مع رغبتها مثلما فعل مع باقى الفلاحات، وأن يعرف أنه ليس من العدل – إذا كان لا يحبها مما يجعلها أتعس وأشقى– أن يقتلها بالغيرة من جارتها. تأثرت جدا ديانا لرؤية سيدتها مُعذَّبة، فقررت أكثر من ألف مرة أن تخبرها بأنها امرأة مثلها؛ لكنها خافت من أن يكتشفوا حقيقة أمرها، وهو ما قد يسبب لها أضرارا كثيرة؛ ولهذا فقد أظهر امتنانه، وهدأ من غيرتها بالقول بأنه تجرأ على الأخريات، ولم يتجرأ عليها، بسبب الاحترام الواجب نحو سيدته، مع الوعد بأنه من الآن فصاعدًا سيصلح كل شىء، ومن هذه الآمال ظلت سيلبيريا سعيدة وواهمة. أخذت يده، ومع أن ديانا قاومتها، قبَّلت يده مرتين، ملطِّفة بثلجها نار الفؤاد، لأن ما يزيد بينهما يمكن إن يسمى عفة. الآن بدأ حب سيلبيريا يظهر فى البيت، يقال إنه من المستحيل إخفاء الحب والمال والحرص. يقولون إنه من المستحيل إخفاء هذه

---

(٢٥) المقصود هنا هو شخص ديانا المتنكرة فى زى الرجال.

المشاعر، فالحب لأنه يتكلم بالعينين، والمال لأنه يخرج ليزيِّن صاحبه، والحرص لأنه يظهر على ملامحِ الوجه. مضت ديانا الخائفة تبحث عن فرصة لتودِّعهم، وكان الجميع يكن لها حبًا كبيرًا، مما جعلها تُقدِّر ألا تكون جاحدة أكثر من تقديرها للخطر الذى يهدد حياتها. ولكن ما حدث لها من أقدار كان أفضل مما كانت تتوقَّع ومما هو معتاد. فقد كانت خائفة تترقب حتى حدث ما هو عكس ذلك. كان دوق بيخار يتحرى الصيد فى أرضه؛ فنزل ضيفًا ذات ليلة فى بيت رئيس الرُعاة، أولئك الرعاة الذين يرعون ماشيته، ولأن العجوز كان معتادًا على تقديم بعض الحضور، الذين من خلالهم يشعر الدوق أنهم يحسنون استقباله؛ حيث يُحمد للأمراء ثراء الحقول أكثر من غنى وثراء قصورهم. كان رئيس الرُعاة يتمنى إسعاد وتسلية الدوق، فكان بالطبع عليه أن يستدعى ديانا، فوقعت هى من الدوق موقعًا حسنًا، وهكذا أمرها بالغناء. هنا كان من الضرورى أن يُحضر الطالب آلته على غير رغبة منه؛ لأن غيرته من ديانا وسيلبيريا جعلته يفقد رشده، وضبطت ديانا الأوتار وفقًا لصوتها، وبإنصات من الجميع، أنشدت هكذا:

أدغال وغابات من الحب،

فى أشجارها من الدَرْدار والحُرّان

لا تزال تعيش ذكريات عذبة

لراعيكم العجوز.

أطلب منكم الإصغاء

لغنائى،

لشكواى، وسترون

كم أشكو بعذوبة.

اسمعوا من راعيكم،

بهذه الآلة الجديدة،

دموعًا أكثر من الكلام

وتنهدات أكثر من الأشعار.

فلتعلموا أننى أتيت خاسرًا؛

أقلت لكم خاسر؟ فأنا أكذب،

فلم يربح أحد

على نحو جيد مثلما أضيع أنا.

أتيت رابحًا وخاسرًا،

من أجل إنسان عالٍ

أكسب مجد رغباتى،

بينما أخسر حياتى.

في النهاية، أدغال عاطفية،

أتيت ميتًا وسعيدًا:

ميت في عشق عينين،

سعيدًا لرؤيتي فيهما.

أريد أن أبلغكم بالعنوان،

لكني أخشى الآخرين؛

إذ إنني مازلت لا أجرؤ على النظر إليهما،

مع أنني على عبادتهما أتجاسر.

عشقهما يكلفني روحي،

وتعطياني الحياة، إذا رأيتهما،

ولكن الجرأة تعوزني

لأشاهدهما ألف مرة.

إذا قلت لكم أنهما سوداوان،

أقسم لكم أنهم سيقولون فيما بعد:

"هما عينا خائينتا،

إذ إن هذا الرجل يضيع من أجلهما".

"وتقولون، لكن ألا توجد فى الوادى

عيون أخرى سوداء؟"

يوجد الكثير، لكن لم تضع

السماء فى أى منـها كل هذا الحُسن.

صدقونى، يا أدغال ،

فإذا لم تكن عيناها حية جدًا،

ما كنت أنا ميتًا تمامًا.

عن رغبة منى

يا أشجار، لست وحدى

الذى خصَّه القدر بعشقهما،

فلم ينعم بالحياة مطلقًا

منْ لم يذهب وراءهما.

منْ يسخر منى،

أرسله إلى لهيبهما،

ففى وجود شمس حامية

لا تنفع جبال من الثلج.

كانت روحى من الثلج
قبل أن أصل لرؤيتهما،
وها هى تذوب فى شعاعهما،
إذا قالوا إن لى روحًا.
فلم تكونا معى جاحدتين؛
فقد أعطيانى برحمة
فرصة لكى أضيع؛
فأشكر لكما ضررى.
فالشر عندى هو أن أعرف
إننى لا أستحق حبهما؛
مع أنهما أدغال
فحقيقى إننى أستحق حُسنهما.
ووصلت لهذا الحال،
بين الأمل والخوف،
ومع علمى بأنهما تقتلانى،
فلا أستطيع العيش بدونهما.

ففى غيابهما عنى أكون شجاعًا

وعند وصولى لرؤيتهما أرتعد،

لأننى الأول فى العالم

الذى يرتعد من شدة النار(*).

أشياء يتناولونها كثيرًا

ويعتادون على التقليل من شأنها؛

وبينما أنا أتعامل معها أكثر،

فإننى أقدِّرها وأحترمها أكثر.

فى حقول قريتى

أخبركم عن الكثير من الغزل،

الذى رأيته يُوقف المياه،

وتصمت له الطيور والرياح.

وعند وصولى لرؤية عينيها،

أظل صامتًا ومتوقفًا

(*) الارتعاد من شدة النار –لا من البرد- ورؤية النجوم فى وضح النهار ... إلخ من لوازم شعر لوبى دى بيغا. (المراجع)

أكثر من توقف النافورات من ضغط الثلج

عند منتصف الليل.

إلى كل هذا الحب قد وصلت،

وفى كثير من الأحيان

عندما يكون عندى وقت لأتلذذ بنورهما

أُضيِّع الوقت خائفًا.

عندما كنت أقل عشقًا لهما

كان اجترائى كثيرًا؛

الآن، فإن عشقى لهما أكثر،

وأقل منه اجترائى.

لكن أقسم لك، أيتها الأدغال الخضراء،

بأننى أحب من أجلهما

هذه الأحزان أكثر من حبى للمجد

الذى صنعت السماء منه الكثير.

فالحقيقة أن من بين أحزانى

غيرة تنزع عقلى،

لأنـه لا فائدة من الحب

دون دفع ثمن الغيرة.

ليس فقط من الرُعاة،

الذين ينظرون إليها من قريب أو من بعيد،

لكن من أشياء كثيرة تنظر،

فمن الغيرة أحترق وأموت.

حدث أننـى غرت

من نفسى ذات مرة،

معتقدًا بأننـى شخص أخر،

لأن رغباتى أُعجبت بها.

عندما تخرج من قريتها

أنظر إليها وأتابعها؛

وحيث تحمل فى قدميها عيناى،

وفى أفكارها روحى.

بهذه الرغبات الغيورة

أتابعها، متوسلاً إلى السماء

أن كل الرُعاة الذين تراهم

يكونون خشنين ودميمين.

طمحت ألف مرة

فى تحطيم مرآتها،

لأنها تصنع اثنتين من خاثينتا،

ولا أستطيع الاحتفاظ بواحدة.

أيتها الأدغال، احزنى من أجلى؛

لكن لا تفعلى هذا، لأنى وعدتك

بأن أجعلها تدفع كل ما كان يؤلمنى

بمجرد رؤياها.

أعجب الدوق بشكل واضح بشخصية ديانا، لكن أعجابه زاد أكثر بعدما لاحظ الظرف، والمهارة وعذوبة الصوت الذى أنشدت به الأبيات التى أشرنا إليها. وسأله[٢٦] فى هذه المناسبة عن كل ما يمكن تخيله من سيد نبيل؛ إذ إن الرجال يسألون كثيرًا، لأن ما يعرفونه عما يحدث بين الناس البسطاء قليل. سأله عن بلده وأبويه، وهو ما أكدَّ عليه، فأخبره بأنه تربى فى إشبيلية على يد رجل، كان يسميه أب، وكل

---

(٢٦) السؤال هنا موجه لديانا التى يتعاملون معها على أنها رجل.

شهرين كان يأتى رجل إلى بيته ليعطيه نقودًا وخطابات، وكان يكلِّفه بهداياه، ومنه تسرَّب الشك إليه بأن أباه لابد أن يكون رجلاً آخر أكثر نبلاً يعيش فى مكان بعيد عن إشبيلية، وهكذا ذات يوم عندما وجده فى حالة مزاجية جيدة، طلب منه أن يخبره عن ابن منْ هو؟ إذ إنه كان يعرف بالفعل أنه ليس أباه؛ لكن لا فى تلك المناسبة ولا فى غيرها من المناسبات الكثيرة استطاع أن يجبره من خلال قيامه بكثير من الخدمات على أن يخبره بحقيقة الأمر؛ إذ إنه يومًا بعد آخر قال له بنص الكلام، وهو يقسم بأنه دون إذن ذلك الشخص سيكون من المستحيل أن يخبره بشئ؛ وفى خضم هذه الأمال توفى الرجل من المرض، فعندما أراد أن يخبره لم يتمكن من ذلك. وعندما أصبح بلا حماية، ولم يستطع أن يتوافق مع أى حرفة، مهما كانت رغبته يرغب فى محاولة ذلك؛ أراد اختيار مهنة الراعى ورجل الحقل، ليس لأنه أدرك أن ذلك الطريق لن يصلح حظه، بل لكى يعيش فى عُزلة، وخصوصًا عندما وجد نفسه حزينًا جدًا ومجهول الهوية والأصل، إذ إنه لم يتمكن من معرفة منْ هو. "خدعت نفسك- أجابه الدوق-، لأننى أرغب فى أن أخذك معى وأن أقدِّرك وأعطيك ما تستحق؛ لأنه صعب جدًا أن تعيش بين الناس البسطاء ولك كل هذا الظرف واللطف، لأنه جحود للسماء سوء استخدام هذه المواهب أو إخفائها". قبَّلت ديانا يد الدوق بالأدب نفسه والوقار والطقوس التى تعلَّمتها فى ظل ظروف أفضل، وقبلت النعمة التى قدمها بكلمات متواضعة وحكيمة، وهكذا أصبحوا يجدون باستمرار رقة كبيرة وعذوبة فى عينى ذلك الرجل

العظيم، الذى زودُها بكل ما هو ضرورى، ثم أخذها معه. ولــم يجــد ضيق سيلبيريا ما يستطيع تعويضه، بل كان يسير فى الإتجاه المضاد، لسعادة الطالب الغيور، الذى كان سعيدًا جدًا عندما رأى ديانـــا تـــستعد للرحيل، مثلما كانت سيلبيريا وأخته حــزينتين، وتودعـــان بالـــدموع رحيلها.

منْ يشك، يا سيدة ليوناردا، أن لديكم رغبة فى معرفة ماذا فعل صديقنا ثليو، الذى أبحر إلى إسبانيا الجديدة منذ زمن بعيد، وتظنون أن قصته قد أُهملت؟ فلتعلموا حضرتكم أنه فى كثير من المرات يفعل مثل ذلك هليودور مع تياخنيس، وأحيانًا أخرى مع كلاريكيا، لإدخال عنصر التشويق والإعجاب بشكل أكبر على منْ يسمع، من خلال التوقف عــن استكمال حدث ينتظره المستمع، ثم يعود لتناوله من جديد. كـــان ســـفر ثليو سيئًا جدًا؛ حيث هبت عاصفة شديدة، لم يتمكّن البحارة من التعامل معها، فحطمت الأسلاك والأربطة وكل حبال السفينة وعدتها الأخرى، وقد أوشك على الموت أمام القوة الطاغية للأمواج. بين التباس أصوات جمع الشراع، والرفع، وجنوح السفينة، والارتطام، والتدافع مــن كــل جانب للعمل، بينما الرياح شديدة ونظام الإبحار مُعطّل، كان ثليو أسوأ حظًا من السفينة؛ حيث تشوشت أجهزته الحسِّية، فكـــان واعيًـــا فقــط لفقدان ديانا، التى كان يتخيلها شمس العالم الجنوبى. قال تقريبًـــا فـــى

محاكاة لمارثيال[٢٧] -وهو شاعر لاتينى- من الأفضل لسيادتكم يا سيدة مارثيا، ألا تعرفوا لغته:

أيها الموج، دعنى أمضى،

واقتلنى عندما أعود.

وقلَّده غارثيلاسو[٢٨] العظيم:

أيها الموج، لا اعتذار فى موتى

اتركنى هناك لأمضى، وفى العودة

فإن غضبك سيقضى على حياتى.

وهنا بالمناسبة، لاحظتم سيادتكم أن الكثيرين من الجُهال يدَّعون المعرفة ويظنون أنهم يعرفون، ويسوؤهم أنه مع مثل هذه الألفاظ يُمنح غارثيلاسو اسم أمير الشعراء فى إسبانيا. فلفظ *العودة*، وغيره من

---

(٢٧) مارثيال: هو شاعر لاتينى من أصل إسبانى (٤٠- ١٠٤م). رسمت كتاباته الساخرة والهجائية لوحة لاذعة للمجتمع الرومانى فى عصره.

(٢٨) غارثيلاسو دى لا بيغا: هو شاعر إسبانى ولد فى طليطلة وتوفى فى نيس (١٥٠١- ١٥٣٦). فتح بأعماله بعدًا جديدًا فى الشعر الإسبانى. أدخل بشكل كبير أسلوب الشاعر الإيطالى الشهير بيتراركا: استخدام الطبيعة كمصدر للصور الشعرية، والتحليل النفسى الذاتى، والحساسية أمام الجمال الحسى، مع الإشارة إلى كبار الشعراء اللاتينيين، والتجديد اللغوى والأسلوبى (العروض) نشرت أعماله بعد وفاته عام ١٥٤٣، وتشمل قصائد رعوية، وأغانى، ورثاء، وأشعار قصيرة، ورسالة إلى بوسكان. بالإضافة إلى الموضوعات الرئيسية، وهى إدماج إحساس الحب مع الإحساس بالطبيعة، وظهور عناصر كلاسيكية.

الألفاظ الأخرى نجدها فى أعماله، وهذا ما كـــان يـــستخدم حينـــذاك، وهكذا، فلا أحد من هذا العصر يجب أن يتشدق كثيرًا، وأن يتصور أن غارثيلاسو إذا ولد الآن، فلن يستخدم الزيادات فى لغتنا بهذه الشجاعة، لكن بالنسبة لسيادتكم، بماذا يفيدكم أو يضركم الحديث بما يريدون عـــن غارثيلاسو؟ هكذا كانت تقول الأغنية التى كان ذات يوم يتغنـــى بهـــا الموسيقيون لدى رجل عظيم:

أشعار بوسكان وغارثيلاسو

تباع بريالين،

ولن تفرضوا مثلها

حتى لو كنتم من أهل البرناسو(٢٩).

أجترئ بذلك على سيادتكم بما يصدر من قلمى، لأننى أعــرف، بما أنكم لم تدرسوا البلاغة، فــإنكم لــن تعرفــوا كــم تُعــاب فيهــا الاستطرادات الطويلة. وصل ثليو بمركبه مُنهكًا، بعد عاصفة طويلــة جدًا، إلى جزيرة فى أفريقيا؛ حيث كانت تقوم بعض المراكب الصغيرة بتحميل المياه منها، كان المسلمون يحرسون الجزيرة بسبب الأضــرار التى يتعرضون لها من قبل السفن الإسبانية . لهذا كان من الضرورى أن يخرج الكثير من الناس بسلاح جيد وبحرص شديد، وصلت ســفينةً

---

(٢٩) البارناسو: هو جبل فى اليونان، فى الشمال الشرقى من دلفوس، يبلغ ارتفاعه نحو ٢٤٥٧ مترا. فى الزمن القديم كانوا يعتبرون هذا الجبل جبل آلهة الفنون والعلوم، وكان مخصصًا لعبادة أبوللو.

ثليو تالفة جدًا من العاصفة، فلم يستطيعوا المرور بهـا إلـى الأمـام، فقرروا إصلاحها. وخرج المسافرون والربان إلى الشاطىء، وكان هذا عن طيب خاطر، لأن الأرض كانت دائمًا أمًّا للإنسان وكانـت الميـاه زوجة أبيه. تناولوا طعامهم فوق بعض الحشائش، التـى اسـتخدموها كمفرش، وفى نهاية هذا الغذاء الذى تميـز عـن غيـره بالاسـترخاء والراحة على مدى هذه الرحلة، وذلك لأن المنضدة كانت ثابتـة، علـم الربان بحزن ثليو، فتوسل إليه أن يخبره عن السـبب، ولتـأثر ثليـو بروحه الطيبة الرحيمة، حكى له عن أصله ، وما حدث له، وما كـان يبحث عنه بالشكل الذى تكون عليه عادة حكايات المسرحيات، إذ إنـه يوجد شاعر يكتب فى نفَس واحد قصيدة روائية من ثـلاث صـفحات. "فى تلك البلدة- قال ربان السفينة- لى عم يملك الجـزء الأكبـر مـن الأموال التى أحملها معى فى هذه السفينة؛ وذات ليلة عندما كنت عائدًا بعدما قدمت له حسابات الأرباح والمكاسب من الأسطول السابق، عنـد عودتى بعدما ودَّعته، ومعى أوامر لما يجب علىَّ تنفيذه وعمله، وتقريبًا عند منتصف الليل، وفى شارع مرتفع، نـادتنى سـيدة مـن الـشرفة وسألتنى إذا كانت الساعة مناسبة، فأجبتها بأن أى ساعة تكون مناسبة؛ وعندئذٍ أعطتنى صندوقًا صغيرًا مملوءًا بالمجوهرات والنقود، وقالـت لى: انتظر عند الباب. لا أعرف ما هى الظروف التى دفعتنى إلى هذا التصرف السيئ جدًا، وبكل سرعة عبرت الشارع ولـم أرغـب فـى انتظار ما سيحدث، لأنه توجد بعض الأساطير التى تصل فيها الأحداث بكل سعادة إلى الفصل الثانى، وفى الفصل الثالث يضيع كـل شـىء.

رهنت المجوهرات فى إشبيلية لأشياء كانت مهمة بالنسبة لى، وعزمت على أنه إذا وفقنى الرب فى نهاية هذه الرحلة التى بدأتها، فسأعيد المجوهرات إلى صاحبها؛ لكن- أضاف الربان- إذا كنت بسبب الحكاية التى رويتها لى تعرف هذه السيدة، فهذا الخاتم الماسى هو ملك لها، فانظر إذا كنت تعرفه". تذكر ثليو أنه أعطاها هذا الخاتم مع أول خطاب، فشعر بغصة فى حلقه، وبصعوبة استطاع التغلب عليها ولكن لم يستطع الرَّد عليه، وخصوصًا عندما أضاف الربان أنه لو حكى له ذلك فى إشبيلية، لكان وفَّر على نفسه مهمة البحث عن ديانا، لأنه كان يعرف بالتأكيد أنها لم ترحل مع الأسطول. فقال له ثليو، وهو راضٍ ولكن فى حالة مميتة، بأن ذلك الخاتم كان أول شىء أعطاه لديانا، وأن المجوهرات لايجب عليه أن يحاول إعادتها؛ لأن السيدة من مقام رفيع وأن ذلك قد يكلفها حياتها؛ لأن المجوهرات كانت مسروقة، وأن يصمت على ذلك وأن ينتفع بها، على أن يعطيه فقط الخاتم؛ لأنه لا يريد شيئًا آخر كى يواسيه سوى هذا الخاتم، لكن لا عن طريق المساعى التى قام بها ثليو، ولا عن طريق التوسلات، ولا عن طريق التهديدات، استطاع أن يتفق مع ذلك الوحش على أن يعطيه الخاتم. فالكلمات عادة تسيطر على المشاجرات أكثر من الإهانات، ومن بعضها بعضًا وصل كل من ثليو والربان إلى الاضطراب التام والانهيار، لأن أكبر عدو للحب ليس هو الغياب، والغيرة، والنسيان والاهتمام، ولا عدم ثبات الحال، لكنه العناد. ولذا وصل الأمر إلى ذروته؛ حيث طعنه ثليو بخنجر طعنتين فأرداه قتيلاً. توافد ركاب

السفينة على الجلبة والضوضاء، ومع أنه حاول يائسًا الدفاع عن نفسه، فقد أمسكوا به وحملوه إلى المركب الذى كان مستعدًا للرحيل وأبحـــر برياح طيبة وبه ثليو مربوطًا بسلسلة فى وسط المركب، وحملوه إلـــى كارتاخينا، بعدما حرر كاتب المركب معلومة صغيرة عـــن الحـــادث، بسبب عدم إنكار ثليو موت الربان، لأنه قال بصراحة إنه قتلـــه لأنـــه لص سرق ماله، وسرق حياته، وسرق عرضه. وفى النهاية وضـــعوه فى السجن، لعدم وجود حاكم فى البلاد ، وكانت المدينة حديثة الغـــزو، مملوءة بالصخب والثورات والسرقات، ومتمردة لأنهـــا كانـــت بعيـــدة ومختلفة بسبب طموحها عن التاج الإسبانى. وكما قال بلينيو العجـــوز: "لا توجد حكومة مكروهة أكثر من تلك التى تناسب الشعب".

كانت ديانا تخدم فى تلك الأوساط الدوق، الذى جعلها فى وقـــت قصير من الزمن وصيفه الخاص، ولأنها فى كل شيء كانـــت تتمتـــع بذوق رفيع وكان يساعدها على ذلك الرغبة فى أداء عملها؛ لأن لا أحد يخدم جيدًا إذ لم يرغب فى إدخال السرور علـــى مـــنْ يخدمـــه. لهـــذا اختصها الدوق بالاعتناء بهندامه ونظافته .

قرر الملك الكاثوليكى غزو مملكة غرناطة، وأرسل فى طلـــب كبار رجال الدولة، وكان من بينهم الدوق، إذ إنه عندما تسلم الخطاب، فى التَّو حدَّد الخدم الذين سيرافقونه، وألبسهم وزينهم بالملابس الثمينة. ولم تسعد ديانا فى أى يوم من أيام عملها مثل سعادتها فى هذا اليـــوم، لأنها تخيلت أنه إذا كان ثليو يبحث عنها، فإنه لن يجدها فى أى مكـــان أخر سوى فى البلاط الملكى، وسعد الجميع بهذا، وهنأوها عندما رؤها

مسرورة، لأن الكل كان يحبها ويحترمها؛ لأنها كانت تتعامل مع ظروفهم جميعًا بكل تعقل ورصانة؛ وهو شيء ضروري جدًا في القصور، لأن منْ يسعى للحصول على حظ أفضل دون اهتمام بمعاناة الآخرين، لن يستطيع الاحتفاظ بكرم سيده، وربما يتخلى عن طموحاته بسبب الأحقاد. في هذه الرحلة أكَّدت ديانا مكانتها، وأظهر الدوق حبّا كبيرًا لها؛ إذ إن المسافات والسجون تصنع الصداقات الجيدة وتظهر التفاهم أكثر. وذات يوم حدَّدا ساعة للمشي، وطلب الدوق من ديانا أن تنشد إحدى قصائد الأدغال التي تعودت على إنشادها. وفي طاعة لطيفة، بدأت تنشد القصيدة الثانية، هكذا:

أيتها الأدغال الخضراء الحنونة،

اسمعن مرة أخرى شكواي

لثقتي في صمتكن،

فلكن أحب أن أروي أحزاني.

صُحبتي أجدها في وحدتكن،

فلن يتعْبكن سماع أحزاني،

لأنني أستريح في معاناتها.

فإذا بدا لكن أنه إزعاج،

فلتعلمن، أيتها الأدغال الحنونة،

أن السماء قد أعطت للآلام

تصريحًا كى تشكو.

بما أنكنَّ عندما رويت لكُنَّ سعادتى

فرحتنَّ بها،

فلتلعبنَّ دور الصديق،

ورافقن أحزانى.

تلك الفلاحة الحسناء،

ذات الحسن الربانى

أحضرت الشمس بنجمتين

لكى ترعى أزهاركنَّ؛

فالنجمة التى هبطت

لقتل الوحوش فى أحراشكنَّ،

كذبت، لأن ما كانت تسميه وحوشاً

كانت أرواحًا.

أيتها الغابات،

بسبب الغيرة من راعية،

قبيحة ومزعجة جدًا،

كانت تنظر بصعوبة،

كما لو لم تكن حمقاء.

فذهبت من القرية حانقة،

فقط لأنها كانت قرية،

ولأنه كان معها خجولاً،

وكان معها لطيفًا.

كيف أعبِّر لكُنَّ عن آلامى،

إذا كنتنَّ لا تعلمنَّ ما هو الغياب؟

لكن نعم تعلمن، إذ تنتظرن الربيع

ثلاثة أشهر.

وشهورًا أخرى كثيرة تعيش هى

فى ذلك المكان من الجبل؛

حيث أرادت أن تتعايش مع ثلوجه

لكى تترك لهيبها فيه.

يوجد رُعاة حيث تكون،

ومنهم أخشى حقًا،

فلا أعرف إذا كانوا أقل حماسًا،

لكنى أعرف أنهم أثرياء.

فالآن تعرفنَّ صفاتها، أيتها الأدغال،

فمنْ ذا الذى لا يحبها؟

ومنْ ذا الذى لن يقتلنى؟

ومنْ ذا الذى لن يهيننى؟

أعتقد أن الكل ينظر إليها،

وأن الكل يتمناها؛

إذن كيف أتأكد

عندما تتركنى بسبب الغيرة؟

بهذا أموت وأنا حى،

لأن أحزانى تعتقد

أن شخصًا ما سيكون سعيدًا

لكى لا أكون أنا هو.

كتبت لها عن غيظى

وأننى لا أريد أن أحبها:

يالها من حيل عشق بلهاء،

إذ إننى أموت من أجلها!

أصرُّ على انتظار

كلمة حانية قد تكتبها،

حيث سأستفيد من هذه المناسبة

لكى أرجوها أن تعود.

لكن، بما أن حبى المجنون

يرضيها كثيرًا،

وهى تعلم بأننى سأتوسل إليها

فستجيب بأنها ستظل هناك.

وأن أرسل إليها أوراقها،

لأنها لا تحب أن يكون هناك

مجال استطيع، بعد مرور الوقت،

أن أطالبها من خلاله بالدين.

وبهذا، غيورًا وحزينًا،

ذهبت إلى الجبال لرؤيتها،

وأنا واثق من أن الليل

سيخفى ضعفى.

وعندما رأيتها فى كوخها،

أهدأ من مرات أخرى،

توسلت إلىَّ أحزانى

أن أصدق ظنونها.

أيتها الأدغال، منْ يحبٌ ويتلحف

بالغيرة والبعد،

لن أقول بأنه يحب،

لأن الحب كله أحزان.

بدت لى أكثر حسنًا؛

لأن الغضب يزيد

الحُسن، لأنها فى النهاية،

تبدو غريبة.

عدت، وأقسمت على الانتقام؛

لكن وسط هذه الاختلافات،

أحبت أن تتحدث إلىّ

وكأن لها ألف روح.

سار الجميع وهم سعداء يحيطهم ظرف ديانا، فى كل شىء، وخاصة الدوق الذى كان فى غاية الحرص على أن يغمرها بكرمه، وكان سيقوم بذلك لو لاحظ ميلها للزواج، لأنه فى بعض الأحيان كان هو والدوقة يتحدثان عن هذا الموضوع، بزواجه(*) من وصيفة الدوقة، التى كانت تحظى بإعجاب سيدتها، وكانت ديانا تحترس منها كلما أمكن، لأن أمر زواجها من الفتاة كان مستحيلاً. نزل الدوق فى البلاط الملكى ؛وهو محاط بكل مظاهر الفخامة التى تليق بأمير مثله. فى ذهابه وإيابه إلى القصر، كان يصطحب ديانا معه فى عربته الخاصة، التى تحولت إلى عيون أرغوس(٣٠) لترى إذا كان ثليو سيظهر من خلال تلك الشوارع، أو الأفنية، أو طرقات القصر، لكنه كان تحت ضغوط كبيرة فى كارتاخينا الجديدة.

وكان الملك يقف فى كثير من الأحيان فى شرفة فوق باب القصر، كانت هذه الشرفة تمنح منظرًا رائعًا، وكان يرى منها دخول

(*) أى بزواج ديانا – المتنكرة فى شكل رجل - من الوصيفة .

(٣٠) أرغوس: (طبقًا للأساطير اليونانية) هو أمير مدينة أرغوس، الذى كانت له مائة عين، وكان نصفها يظل مفتوحًا طوال نومه. ووكل إليه مهمة حراسة إيو، لكنه اغتيل بواسطة هرمس وهيرا، التى نثرت عيونه فى ذيل الطاووس.

كبار الزوار. شاء حظ ديانا، الذى تعب من كثرة الحوادث، عند مرور العربات ، أو الوصول إلى الباب أن يأتى خادم للدوق بفعل غير لائق، وبما أن المرافقين له ظلوا صامتين وبلا حراك، كرجال جدد على البلاط، قامت ديانا؛ التى بظرف اعتادت على أخذ السيوف السوداء التى كان يتسلى بها أوكتابيو، شقيقها، وثليو مع الوصيفات فى بيته، ونزعت برشاقة الرباط، وقبل أن يثبتوا سددت إليه طعنة ظريفة، وكانت الفوضى كبيرة، مما جعل الدوق يتدخل بسلطته ،وأخذ معه خادمه حتى باب الحمام، وتحدث الملك إلى الدوق، ولأنه كان يضحك وهو يتحدث إليه، سأله الدوق عن سبب ضحكه، فأجابه: " أضحك من ظرف ذلك الوصيف الذى يعمل لديكم، والذى سدد تلك الطعنة لذلك الذى تصرف معكم بشكل غير لائق وغير مهذب وباجتراء شديد". وعندما لاحظ الدوق، أن الملك لم يكن حانقًا، فقد مدح له وبالغ فى الحديث أمامه، عن ظرف وفضائل ديانا، بحيث إن الملك أراد رؤيتها، فدخلت وقبّلت يده. إن جمال ديانا ورشاقتها ورصانتها وذكاءها أجبروا الملك على أن يطلبها من الدوق، فقال هو: إنها هدية له بالكامل، فهو منذ أن استقبلها فى بيته كان يفكر فى أن يمنحها له.

يا سيدة ليوناردا، ستشعرون سيادتكم بالرضا من تحسن قصتنا، إذ إن ديانا ستظل فى خدمة الملك الكاثوليكى، وفى أيام قليلة ستصبح مقربة جدًا، لأنه من بين آلاف الأشياء التى كانت تقدم له كان يستريح لرؤيتها، ورويدًا رويدًا حصلت على أدوار أعظم وأهم. ومع هذا أوكد لسيادتكم أن السيدة المسكينة لم تكن كذلك؛ لأن روحها كانت بين ثليو

وابنها، وكلاهما غائب، واحد منهما فى أرض بلاسنثيا و الآخر فى إسبانيا الجديدة ، هذا هو ابنها، وذاك هو زوجها. زاد حب الملك لديانا مع لطفها وخدمتها، وقبل خروج الدوق من البلاط الملكى، دفع له الملك ما أنفقه من أجلها، و أعطاه وسام القنطرة الأكبر، ولأخيه الثانى راتبًا يقدر بستة آلاف من العملات المعدنية.

ولم تختف فى القصر رقة وعذوبة صوت ديانا؛ لكن الآن مع الوضع الجديد كانت تلزم الصمت. خطأ العالم، عندما تصل الأوضاع إلى السلطة، تضيع القيمة والجودة، وإذا منحت السماء رجلاً ما عذوبة الغناء، والعزف أو نظم الشعر، يظل غير أهل لبعض المهن الأخرى، ويهمس عن هذه الميزات، كما لو كانت شيئًا قبيحًا. فكان الإسكندر يعزف ويغنى، وكان أوكتابيو(٣١) ينظم الشعر، ولا لهذا السبب ترك أى منهما العالم فى سلام، ولا الآخر من أن يغزوه. كان ابن رجل عظيم يعشق إحدى النبيلات، وكانت هى ترغب فى سماع غناء ديانا إلى أقصى درجة، ولم تتزعج من شخصيتها وذكائها. فطلبت بمغالاة شديدة من عشيقها المذكور أن يطلب منها أن تغنى ذات ليلة. وقبلت ديانا، لكى لا تضايقها، وباعتقاد منها بأن معرفة هذا لن تهم، فغنت فى حوالى الواحدة ليلاً، فى الدور الأرضى، هكذا:

أيتها الأدغال، كان لى فى حياتى

فرص كثيرة لنظم الشعر،

---

(٣١) أوكتابيو :هو الاسم الذى كان لأغسطس الإمبراطور الرومانى قبل أن يتبناه عمه يوليوس قيصر.

وأسباب كثيرة لكى تكون أشعارى سامية،

وحب كبير لكى تكون أشعارى عذبة.

اليوم ستعرفنَّ الضرر الذى لحق بى،

وستعرفنَّ الخير الذى أعيش فيه؛

لأن صوتى سيكون

روحًا لصمتكنَّ.

أيتها الأدغال، لم أرغب فى الحديث

فى القرية، لأننى أخشى

من كتاب الرموز والأفكار الغريبة.

أجدنى فى خير بينكنَّ،

لأنه إذا همس نهر صغير

بما أقول،

فى النهاية يجرى ويمر مسرعًا.

كان فى قصور ثيريثه[٣٢]

---

(٣٢) ثيريثه: (فى الأساطير اليونانية) هى شخصية الأوديسا. وكانت ساحرة حولت رفاق الإلياذة إلى خنازير.

عقلى أسير بلا جمال

ومشكور بلا جائزة.

فى هذا التحول

لم أتمكن من رؤية عيوبه.

يا لرداءة الحب، الذى بمروره،

كل شىء يصبح ندمًا!

لكن الآن، أيتها الأدغال الصديقة،

من أجل خيرى، فأنا أتبع سيدًا أخر،

رائع الحسن لدرجة أنه يبدو

كأنه من صنع الخيال.

عيونها خضراء، ومرسومة عيناه

أتوسل إليكن النظر إليها.

إذا كان هذا يسمى رسمًا،

فكيف يكون ما هو حقيقى؟

عندما أنظر إليهما فإننى أذهل،

لأننى أظن أنها معجزة،

لكونها شموسًا مطلية،

تطلق أشعة من النار.

فيهما تعيش طفلتان،

دون طلاء كالعيون الجميلة،

لأنهما فنانتان،

إذ إنهما ترسمانى فيهما.

هذه السماء التى فى عينيها

تسمح لقوسين سوداوين

بأن يكونا قريبين منهما،

من أجل صداقة الحُسن.

مروجكنَّ الجميلة

التى تغطى الطبيعة بالجمال

فى أبريل ومايو،

تتنافس عند فيها.

ومع أن الربيع أعطاكن

الزهرة على شرف فينوس،

والتى ضاعت مع شفتيها؛

حيث أُضيع أنا أيضًا .

صنعها من مرجانتين؛

لكن اللآلىء التى رأيتها فيهن،

تخبرها الابتسامة نفسها

بأننى وأنا مرتبك لا أصدّق.

يداها من العاج،

وأصابعها سهام من الحب،

ولكون الشمس من الثلج

فلتكن الأشعة من الجليد.

ما بقى، مع أنه كثير

فلن أفصح عنه، لأننى أعتقد

بأنكنَّ تعتبرننى سعيدًا،

وأنا أقرب ما أكون إلى الحمق.

لكن تخيلنَّ الروح

التى تداعب جسدها الجميل،

وسترين عبر الزجاج

ضياء فطنتها.

من لم يروا جمالك يقولون إن صفات الجمال ثلاثة،

ولو رأوك لزادوا عِدد الصفات،

أو لنقصت صفات الجمال فى غيرك.

عن هذا الجمال الذى أتحدث عنه،

أمضى هاربًا منذ ستة أعوام؛

لكن فى ساعة من الحب

سأدفع لها ما أنا مدين به.

هنا أعيش برؤيتها،

ودون رؤيتها أموت،

دائمًا أقول إننى سأرحل،

متخيلاً أننى سأعود.

فأنا سعيد وغيور.

منْ رأى إنسانًا سعيدًا وغيورًا؟

ولكن من سعادتى أشعر بذلك،

دون أن أعطى لنفسى فرصة الغيرة.

واحسرتاه، إذا أصبح ما أخشاه

حقيقة!

لكن لا أريد التفكير فى ذلك،

لكى لا أموت من خشيته.

كانت هذه هى تعاسة أو سعادة ديانا، وقد سمعها حقود لم يحظ برضاء الملك، الذى كانت ديانا تحظى به، فأبلغ الملك بذلك وأساء إليها بشكل واضح. والملك بعدما سمع وتظاهر بغير ذلك، بدأ يعطى أوامره. وكان الخادم الجديد مطلوبًا من الكثيرين، وكانت حظوته مكروهه، كشىء لا علاقة له بالدم والخدمات النبيلة المتعلقة بالسلام والحرب، ولما كان الملك يعلم أن الوضع فى إسبانيا الجديدة ملىء بكثير من الاضطرابات، و أن ديانا بدأت تتعرض للحقد، ولأنها على الرغم من الإفتراءات لم تخسر ثقته، فعيَّنها كحاكم وقائد عام للأراضى التى تم غزوها، وبهذا يمكن أن يعاقب المذنبين فى جرائم القتل التى وقعت، والتى من ورائها تأتى كل يوم إلى إسبانيا شكاوى وقضايا. ولم تستطع ديانا رفض هذا المنصب، وقبَّلت يد الملك، ورحلت إلى بايادوليد(٣٣) ثم إلى إشبيلية، ومعها القرارات والمساعدون الضروريون؛ حيث كان هناك الأسطول واجتمع الناس الذين يجب أن يرحلوا معها، ورحلوا إلى

حيث الشهرة التى لا حدود لها من الخير الـوفير الـذى تنتجـه تلـك الأراضى. مرت على طليطلة– مسقط رأسها– وكما أن هناك الأخبار الجديدة تحرك السيدات النبيلات والفرسان، خرج الجميع لرؤية نائـب الملك الجديد، الذى مظهره وذكائه نالتا شهرة كبيرة فـى كـل مـدن قشتالة. خرج أخوها أوكتابيو، وعندما رأته بين الأخرين، تغطى وجهها بالدموع، وأغلقت ستائر العربة، وارتمت فوق الوسائد، وفكـرت فـى التغلب على النفس. ولم ترغب فى التوقـف فـى طليطلـة، وعنـدما أصبحت بعيدة عن النظر، أزاحت ستائر العربة، ونظرت إلى المدينـة بزفرات حميمة. ومن إشبيلية بدأ قدر ديانا فى التحسن، وهيأ لها القـدر المناخ الرائع فى البحر الذى حملها إلى الأراضى التـى ترغـب فـى الوصول إليها. بتصفيق حار وهتافات كبيرة استقبلها الإسبان والهنـود، وكان من حسن الحظ أن تصبح موقرة ومُهابة، والذى عاقب وكافأ، هو طهارة يدها وكمال عدلها، ولهذا السبب، ولأنهم تخيلوها شـابًا قويًـا وعفيفًا جدًا، أطلقوا عليها اسم شمس إسبانيا. أرسلوا إليها الكثيـر مـن القضايا والتحقيقات، وحكمت على الكثيرين بالإعدام شنقًا فـى الـسر والدفن فى البحر، إذا كان الحـادث هنـاك. وأخيـرًا وصـلت إلـى كارتاخينا، وزارت المساجين، ورأت ثليو، الذى كان نحـيلاً وشـاحبًا، ومع هذا فقد عرفته بعد ذلك؛ وبما أن الحب يجرى فى العروق، فإنـه يجرى سريعًا إلى القلب ويعطى إشارة إلى الروح. وتصارعت فرحـة ديانا مع حرصها على التخفى ، لكن شعورها بالحـب أوشـك علـى هزيمتها. علمت بالأسباب، وأرادت أن تنقذه؛ لكـن أخـوان للميـت،

أحدهما تاجر غنى والآخر قائد حربى، كانا حتى ذلك الحين محتفظين به فى السجن ويضطهدانه، وقد أطلقا أصواتهما وناديا بالعدل، فحال ذلك دون أن تتمكن ديانا من إطلاق سراحه. وأخلت القاعة من الجميع، وأرادت أن تعرف من فمه كل ملابسات الحادث، وأعطته كلمة رجل نبيل، بأنه إذا قال الحقيقة، فإنه سيساعده إذا أمكنه ذلك. اعتقد ثليو بأن نائب الملك قد أولع به، ولثقته فى الحقيقة، مع أنه لم يفهمه، حكى له بإسهاب كل قصته، منذ عشقه فى طليطلة، وغياب ديانا، وكل ما عاناه فى البحث عنها، وكيف أن الرجل الذى مات كان هو الذى سرق مجوهراتها، وبسبب رفضه إعادة الخاتم الماسى إليه، وكان هذا الخاتم أول هدية فى حبه، حدث ما حدث من شدة يأسه ومن توالى مصائبه.

نظرت ديانا إلى ثليو، وأعادت الدموع من العيون إلى القلب، وأرجأت دموعها وبكائها عليه إلى أن تكون وحدها. طلبت انسحاب ثليو، وطلبت سرًا من رئيس الخدم أن ينعم عليه ويكرمه. وأخذت تتحدث إليه كل يوم، وطلبت منه أن يتكلم دائمًا عن قصته، مما أدهش ثليو، عندما لاحظ بأن نائب الملك لا يرغب فى الحديث عن شىء أخر.

انتهت كل المهام التى وُكِلَت بها فى تلك البلاد، وتم تنفيذ العقاب، وأعطت المخلصين المكافأت التى يستحقونها، كما أمرها الملك بذلك فى كل المحافظات والإدارات؛ وعندما رأت أنه ليس مِنَ الممكن إرضاء الجانب الشديد للقائد المتوفى لا بالتوسلات ولا بالمال، أنزلته فى بارجتها، وحملته معها بوصفه سجينًا، وكانت تأكل وتلعب معه طوال الرحلة. وجدت ديانا الملك الكاثوليكى فى إشبيلية؛ ذهبت لتقبِّل

يده في موكب كبير؛ ومعها ثليو، حيث حملته هناك أيضًا مع الاعتذار لبعض الحراس. أعتقد، ولا يجب أن أخدع نفسى، بأن حضرتكم ترون إننى كاتب قصص سيىء لإننى أضعت وقتًا كبيرًا فى رسم وتصوير ديانا دون أن تكشف عن نفسها لثليو بعد كل هذا العناء وكل هذه الكوارث. ولكن أرجو من حضرتكم أن تخبرونى، إذا كانت ديانا ستصارحه بما فى نفسها وبالحب الأعمى ستتجرأ وتترك نفسها بين ذراعيه، فكيف سيصل هذا الحاكم إلى إشبيلية؟ إذ إنه لم ينقص أيضًا منْ يخبرنى بأنه عندما كانا يتحدثان على انفراد، تهامسوا عنهما، ولفتوا نظر الملك، حيث كانت ديانا مجبرة على أن تكشف عما بداخلها، وظل الوشاة خجلانين. لأنه من الحقيقى أنه من بين المكافأت التى طلبتها من صاحب السمو عما قدمت من خدمات فى إسبانيا الجديدة وتهدئة الوضع بها هو العفو عن ثليو، ثم طلبت منه أن يلتزم بوعده بأن يتزوجها، حيث ظل الملك وكل الفرسان مذهولين، وعلم ثليو أن الحاكم هو زوجته الجميلة، التى كلفته الكثير من الدموع والنكبات. كثيرة جدًا تلك العطايا التى قدمها الملك إليهما وكبيرة جدًا تلك الأفراح التى أقيمت احتفالاً بزواجهما، ولم تكن سعادتها بأقل من ذلك عندما رأت ابنها؛ الذى أرسلته فيما بعد شخصيات موثوق بها. أحضرته الراعية فى رداء خشن لطفل فقير، لكن له وجه جميل وشعر يصل إلى كتفيه. تتصوروا حضرتكم بذكائكم الكبير سعادة هذين العاشقين، عندما استراحا فى أحضان الثروات الكبيرة، إذ إن خيالكم قد سبق للمبالغة فى ذلك الأمر، وإننى سأرحل إلى طليطلة لأعطى

البشرى لليسينا وأكتابيو من أن نكبات ديانا الحسناء وثليو القـــوى قـــد انتهت.

تعيس بسبب الكرامة

أعتقد أنه من اللازم أن يحدث لى مع حضرتكم ما يحدث عـادة مع من يستعيرون: يطلبون قليلاً ثم يعودون بعد ذلك، فيطلبون كميـة أكـبر ثم لا يدفعـونها. أمرتم حضرتكم أن أكتب قصة، وأرسلت لكم "*أقدار ديانا*"؛ فكافأتمونى بذلك الشكر العظيم، وبعد ذلك حسبت أنكـم ترغبون فى خداعى أكثر، وها قد صدق ظنى، حيث إنكـم تـأمرونى بتحرير كتاب عن هذه القصص، كما لو كنت أستطيع قيـاس أعمـالى وفق رغبتكم؛ لكن بما إننى أحاول ذلك الآن، إذا لم يكن فى كل شىء، فسيكون فى جزء منه، فإننى سأمضى فى هذا وأنـا خـائف مـن أن حضرتكم لن تدفعوا لى رغم هذا الشك ورغم الجهد الذى أبذلـه ضـد ميولى، التى تجد متعة كبيرة فى الدراسات الكبيرة، فإن اللهب الساطع لتضحيتى سيكون كالنور الذى يقود لياندرو[٣٤]، فى مواجهته للمستحيل وفى مخالفته لاعتراضات الكثيرين، التى أرد عليها بأنه من المناسـب جدًا بالنسبة للسن المتقدمة ذكر بعض الأمثلة، وذكر الأشياء التى رواها

---

(٣٤) لياندرو: قديس من كارتاخينا، ولد فى بداية القرن السادس الميلادى وتوفى فى عام ٦٠٠ م فى مدينة إشبيلية الإسبانية، فهو أسقف إسبانى؛ وأخو القديس إيسيدورو ومطران إشبيلية. وقد أثر فى تحول القديس هرمنخيلدو، ومع ريكاردو دفع عملية الوحدة الكاثوليكية فى إسبانيا (القرن الثالث، مجمع طليطلة).

البعض فالحقيقة أنكم ستجدون فى هوميروس[٣٥] وهو يونانى، وفى فرجيل وهو لاتينى، أمثلة كافية لتصديقى؛ لأنهم أمراء أفضل لغتين. فمن اللغة المقدسة لن أجد أمثلة قليلة، إذا كان قصدى هو الاعتذار. أعترف لحضرتكم بصراحة إننى أجد لغة العصور السابقة جديدة بالنسبة لهذا الجزء، ولا أجرؤ على القول بأنها مزيدة وليست ثرية، ويضايقنى جدًا عدم معرفتها، حتى لا أقع فى مأزق القول بأننى لا أعرفها؛ لكى أتعلمها. اعتقد بأنه سيحدث لى ما حدث أيضًا لمزارع عجوز، قال له قسيس قريته: أنه لن يستطيع إعفاءه من صوم الأربعين، لأنه نسى الدين المسيحى، إذ لم يكن يحفظه عن ظهر قلب. كان للعجوز من بين عاداته الريفية شىء منذ بداية حياته هو شدة الحياء، فاستعمل الحيلة لكى لا يطلب من أحد أن يعلمه الدين، لأنه أيضًا لم يكن يستطيع القراءة. كان يعيش بعد بيته ببيتين معلم أطفال، وكان يجلس على الباب فى الصباح والمساء، وعند خروج الأطفال من المدرسة كان يقول وهو يحمل عملة معدنية بين يديه: "يا أطفال، هذه العملة ستكون لمن يقرأ الدين بشكل أفضل". فأخذ كل واحد منهم يتلو

---

(٣٥) هوميروس: من القرن الثامن الميلادى؛ هو شاعر حماسى يونانى، وهو المؤلف المفترض للإلياذة والأوديسا. كانت حياته محاطة بالأساطير منذ القرن السادس ق.م. طبقًا لهيرودوت، عاش فى آسيا الصغرى. وتمثله الحكايات التقليدية كعجوز أعمى، يتجول من مدينة إلى مدينة منشدًا شعره. قصائد هوميروس، التى أنشدت فى الحفلات رفيعة المستوى، والتى درست للأطفال لعبت دورًا كبيرًا فى التأثير على الفلاسفة، والكتّاب والتعليم فى العصر القديم، ولا تزال تحتل مكانة مهمة فى الثقافة الكلاسيكية الأوربية.

على حده، وهو يسمعه عدة مرات، وبهذا أخذ يتعلم الدين من مسيحى ملتزم، فخرج وهو يعلم ما كان يجهله.

أتصور أن حضرتكم ستنتظرون بهذا الإجراء الوقائى انحطاط الأسلوب، ونقل أشياء كثيرة خارجة عن السياق، ؛ إذن فلتستعدوا لها من الآن بالصبر، لأن فى هذا اللون من الكتابة يجب أن يكون هناك مختبر لكل ما ينسخه القلم، دون مضايقة السمع، حتى لو كانت مصطلحات أو مفاهيم؛ لإننى أفكر فى ذِكر، أشياء عالية، ومتواضعة، أحداث وجمل اعتراضية، وحكايات أو أساطير، ومواعظ وأمثلة، وأشعار، وأماكن مؤلفين؛ لكى لايكون الاسلوب رديئًا جدًا، فيزعج الذين لا يعرفون، ولا عاريًا من أى نوع من الفن، فيقذفه فى التراب الذين يفهمون. علاوة على ذلك، فإننى فكرت فى أن القصص لها القواعد نفسها التى للمسرحيات، حيث إن هدفها أن يُسعِد ويُرضى بها المؤلف الجمهور(*)، حتى ولو أعدم الفن شنقًا. كان هذا هو رأى أرسطو، مع أن هذا القول يذهب هباءً، وإذا كنتم حضرتكم لا تعلمون منْ هو هذا الرجل؟ فمن اليوم اعلموا أنه لم يعرف اللغة اللاتينية، لأنه كان يتحدث باللغة التى علّمها له والداه، وأعتقد أنه كان فى اليونان.

بهذا التحذير، الذى يأتى على طريقة المقدمة التى تتصدر أول أسطورة، فسترون سيادتكم قيمة رجل من وطننا، فى غاية الحمق من

(*) لاحظ ان لوبى يقول فى بعض اشعاره "إن الجمهور احمق، وبما أنه هو الذى يدفع، فعلينا أن نخاطبه بلغة حمقاء". (المراجع)

أجل كرامته، فإذا كانت الخاتمة مثل البداية، فإن الحزن سيغطيه بالنسيان والقلم بالصمت.

في بلدة مشهورة تابعة لمطرانية طليطلة، بكل ما لها من مكانة عالية، ومع ما لها من صوت في البلاط الملكي، نشأ فتى رشيق القوام وجميل الشكل، وليس بأقل من ذلك عاداته الفاضلة وذكاؤه وفطنته. وفي سن غضّة أرسله أبواه للدراسة في الأكاديمية المشهورة التي أسسها الفاتح العظيم لوهران، الراهب فرانثيسكو خيمنيث دي ثيسنيروس[٣٦]، كردينال إسبانيا، الذي كان محاربًا وكاتبًا صارمًا ومتواضعًا، وترك عن نفسه الكثير من الذكريات، وأيضًا على الرغم من انحطاط هذا المكان، لم يمض بدون أن يترك بصمة واضحة فيه. تردد فليساردو، هكذا كان يسمى هذا الفتى، وكما لو قلنا، بطل هذه الرواية، بعض السنوات على كلية القانون، ثم غير المحاولة من أجل بعض الاعتبارات، ثم قدم إلى بلاط فليب الثالث، الملقب بالطيب، واجتهد في الخدمة في منزل أحد كبار أشهر هذه الممالك، وهذا بسبب أصله الشريف وبسبب مكانة شخصيته. كانت صفات فليساردو طيبة،

---

(٣٦) فرانثيسكو خيمنيث دي ثيسنيروس: (١٤٣٦-١٥١٧)، هو رجل من رجال الدين والسياسة الإسبان، وكان راهبًا فرانثيسكاني، والمستمع لاعترافات الملكة إيسابيل الأولى (١٤٩٢)، وكان مطران مدينة طليطلة (١٤٩٥). أثارت حملته التبشيرية (١٤٩٩) ثورات المسلمين من سكان غرناطة. وكان رئيس مجلس الوصاية (١٥٠٥)، تفاوض في عودة فرناندو الكاثوليكي إلى قشتالة، والذي أعطاه منصب الكردينال، وعينه أكبر قاضي تحقيق في قشتالة (١٥٠٧-١٥١٦). وقد أدار الحملة التي وجهت ضد وهران (١٥٠٩)، وكان هو الوصي عند وفاة فرناندو (١٥١٦). أسس جامعة كومبلوتنسي (١٤٩٨)، وشجع على ترجمة الإنجيل لعدة لغات (١٥١٤-١٥١٧).

وكانت خصاله وعاداته لطيفة جدًا، لأنه، بعد تميزه بالشجاعة بفضل يديه، كان يتميز بحياء وتواضع فريد بسبب لسانه، فاستحوذ على إعجاب هذا الأمير، وعلى رضا الأصدقاء الذين كانوا يتعاملون معه، وكانوا كثيرين، وقد اشتركت أنا فى محادثته وفى صحبته عدة ساعات.

أرتكب خطأ باعترافى بأننى أكتب قصة عن الوقت الحاضر، لأنهم يقولون إن فى ذلك خطر واضح؛ لأنه لوجود منْ يعرف بعض محتويات هذه القصة، فإن هذا يستلزم ذم ونقد المؤلف، مهما كانت نواياه حسنه. فليس هناك من لا يرغب فى أن يكون قوطى المولد، وفى ذكاء أفلاطون، وفى شجاعة الكونت فرنان غونثالث(٣٧)؛ حيث إننى كتبت مسرحية "هجوم *ماستريكى*"، فأعطى مخرج هذه المسرحية دور أحد الفرسان إلى ممثل ذى شخصية ضعيفة وحقيرة، وعند خروجى من سماعها، أوقفنى أحد الأشراف، وقال وهو شاحب جدًا، لم يكن من المناسب إعطاء ذلك الدور لرجل سيئ الملامح وكان يبدو جبانًا؛ لأن أخاه كان باسلاً جدًا ورشيقًا وأنيقًا، فلينتقل هذا الدور لممثل آخر أو أنتظره فى أعلى مكان فى البرادو من الثانية بعد الظهر وحتى التاسعة مساءً. لم يكن لى قريب من أبناء أرياس غونثالو؛ ولذا فقد أرضيت السيد المذكور دييغو أوردونيث، وأعطيت الدور لآخر، وطلبت منه أن يقدم الكثير من البراهين والدلائل على شجاعته وقوته،

---

(٣٧) فرنان غونثالث دى إسلابا: ولد فى إشبيلية (١٥٣٤)، وتوفى فى المكسيك عام (١٦٠١). وهو كاتب مكسيكى، تعتبر أعماله المسرحية، التى تتكون من حوارات مجازية ورمزية، ومدائح ومهازل قصيرة، أول بوادر المسرح الاستعمارى المكسيكى.

وبهذا قام ذلك الرجل النبيل، الذى كانت شجاعته وقوته أكثر من ذلك، بإرسال هدية لى. هنا لن يحدث هذا الخطر مع فليساردو، لأن مصيبته ستقع على انفراد، دون أن تحتوى على مشاركين عندما تصبح الحكاية دامية. فى النهاية ياسيدة مارثيا، بالرغبة فى زيـــادة الــشرف ورؤيـــة إيطاليا الجميلة حملوا هذا الفتى إلى إحدى الممالك التابعة لجلالة الملك الإسبانى، ليكون فى خدمة أمير كان يحكمها، كما كان يفعل ذلك بكـــل سعادة. وباتصال هذا السيد بفليساردو، أصبح الفتـــى موضـــع ثقتـــه، فأكرمه وأحسن إليه، دون حقد من باقى الخدم، ومع أن هذا كان يبـــدو مستحيلاً، إلا أنه لم يجد فى الخدمة، التى تجعل الحياة تعسة جدًا، شيئًا فظ جدًا كهذه الحكـــمة التى لا تخطئ: "إذا كان السيد يحبـــك، فالخـــدم يكرهونك". من هذا يحدث العكس، إذن لكى يحبونك، فإن السيد عليـــه أن يمنحك القليل؛ لكن فضل فليـــساردو، وعلاقتـــه اللطيفـــة الهادئـــة، ورغبته فى إرضاء الجميع، وحديثه بالطيب لسيده فى غيابهم، والتماسه أن يتعامل مع الجميع بالمعروف، غلب بحداثة هـــذا الأمـــر الطبيعـــة الشرسة للخدمة. كان فليساردو يقضى بعض الأوقات فى كتابة أبيـــات من الشعر لسيدة من تلك المدينة، لا يقل حسنها عن فطنتها، وهى التى مال إليها، ومالت إليه هى بسبب رشاقة قوامه وجماله، وقبلت بعينيهـــا توسلات عينيه المتكررة فى كل مرة يمر فى الشارع . فلـــن يـــصعب على سيادتكم الاعتقاد بأن هذا الغلام كان شاعرًا فـــى هـــذا العـــصر الخصب جدًا فى هذا اللون من البقول، إذ إنهم يقولون بـــأن التكهنـــات والتقويم تضع بين الحمص، والعدس، والشعير، والقمح، العديد والعديد

من الشعراء. فلنترك الجدال حول ما إذا كان مثقفًا، أو كان يستطيع أو لا يستطيع المعاناة من قواعد النحو الخاصة بلغتنا؛ فلا سيادتكم من اللائى يستيقظن مبكرًا فى صوم الأربعين لسماع الخطبة الحكيمة، ولا أنا من الذين يخضعون فى هذه المادة لما يتصورونه، فنحكم على ما يرغبون فهمه بأنه مفهوم، وننسب إلى منْ كتبه الذكاء والقوة. أعتقد بأن حضرتكم تقولون: "إذا شئتم أن تقرأوا لى بعض الشعر فى رأس هذا الرجل، فلماذا تؤلمون رأسى؟" إذن فيالها من قصيدة:

منْ يستطيع الغزل بعد رؤياكم،

إذا كان قد تحرر من عشقكم،

لا يكون جديرًا بحبكم ولا برؤياكم،

إذ إنه يكون قد رآكم ولم يحبكم

فأنا، الذى فزت بهذا دون أن أستحقكم،

ألف روح، عندما رأيتكم، أردت إعطاءها لكم،

فقد كلفتنى الرغبة فيكم،

تحمل استياءكم.

بادلونى بالحب الذى أنتظره، فسوف أصدق،

إذ يقولون إن الانتظار يبلِّغ المراد،

على الرغم من أننى أرى الانتظار بعيدًا جدًا.

لكن إذا كان انتظارى قد ضايقكم،

فاتركوا الانتقام لرغبتى،

ولا ترغبوا فى انتقام أكبر.

أرسل فليساردو هذه القصيدة مع إحدى الخادمات، إلى السيدة سيلبيا، وهى سيدة اجتمعت فيها حقًا كل الصفات التى تصنع سيدة كاملة فى سنواتها الأولى. أعجبه فيها ما لم يكن يتمتع به هو، لأن سيلبيا كانت شقراء وبيضاء، وهو لم يكن أسمر تمامًا وكانت لحيته سوداء، ولكن لحسن الحظ، كان يبدو إسبانيًا من أول الشارع. بهذه الفخامة فى كتابة الشعر، وجسارة لا يمكن إنكارها، وحرية يعبر بها أكثر مما يشعر، استمر فليساردو فى قصده، وكانت سيلبيا ترد عليه، متظاهرة بسبب مقامها الرفيع بعدم الاكتراث؛ هكذا أصبح هذا الشاب يتردد على شارعها، وهى بشىء من التحفظ، كانت تقوم لتراه. ولكى لا أوقف سياق هذا الحب فإننى سأتحدث عن أليخاندرو، وهو رجل مشهور من هذه المدينة، وكان خاضعًا بشكل واضح لحسن هذه السيدة. وتصور هذا الرجل المذكور أنه، إذ لم تحبه سيلبيا، فلن يوجد فى هذا العالم منْ يستحقها، وبهذه الغفلة لم ينتبه إلى فليساردو، إلى أن وجده عدة مرات، ويده ممسكة بالسياج الحديدى أسفل منزلها، وتصور أنها بهذه الطريقة الجديدة للمحادثة تفضله هو . وكذلك لم يرض فليساردو عن اهتمام أليخاندرو، لأن هذا الفارس لم تنقصه الفضائل، إذ إن البياض والشقرة، لكونها شائعة فى تلك البلاد، لم تلفت النظر تمامًا.

وبهذا اتفقا فيما بينهما على ألا يتركا الميدان خاليًا فى الليل، يحرس كل منهما مكانه ويُرسِل حراسًا. شعر أليخاندرو أن فليساردو كان فى مكان أفضل، فترك نفسه للغيرة، وكما أن الحب الحقيقى ليست له حدود فـــى المشاعر، فهكذا شعر به بروبرثيو[٣٨]، وصل به الأمـــــر إلـــى عــدم احترام لمكانته وتواضعه؛ وبكل صراحة خرج ذات ليلة وهـــو يقـــود مجموعة من الموسيقيين المتميزين بمختلف الآلات الموســـيقية، وأراد أليخاندرو أن يغنى لها صوتين من أجمـــل الأصـــوات عنـــد الـــسياج الحديدى نفسه ما يلى:

الرغبة فى المستحيل

أحضرتنى فى وقت كهذا،

وتلتمس علاجى.

حيث لا علاج،

أخطو خطوات ضائعة

فى أرض كلها هواء،

حيث أتبع أفكارى،

وليس من الممكن الوصول،

---

(٣٨) بروبرثيو: (٤٧- ١٦ ق.م). شاعر لاتينى. وهو مؤلف مجموعة قصائد فى الرثاء يحاكى فيها الشعراء السكندريين.

يخدعنى الزمان،

وأطلب منه أن يخدعنى،

لأن الخير الذى أرجوه بعيد جدًا،

لأن أصغر الضرر أن يقتلنى.

آه ياإلهى، ياله منْ حب مجنون، لكنه لطيف،

حيث يعذرنى منْ يعرف السبب!

أبحث عن نهاية حيث لانهاية له،

وبمعرفة أن فى البحث عنها

أضيع خطوات وأمنيات،

فليس من الممكن أن أتعب.

أعيش سعيدًا وسط أحزانى،

ورغم أن أحزانى كثيرة،

فإن حزنى الأكبر،

هو أن تنقصنى الأحزان.

سعيد أنا لأننى حزين،

فلا يوجد خطر يخيفنى

فكما أتابع المستحيلات،

فكل شىء يبدو لى سهلاً.

أه، ياإلهى، ياله منْ حب مجنون، لكنه لطيف،

حيث يعذرنى منْ يعرف السبب!

أتمنى مالكًا جميلاً،

من الخير الكثير أن أتمناه،

وأرى أننى لا أستحقه

وتكفينى سعادة التمنى.

أقدره كثيرًا، ولذا أظن

أن فى استطاعتى الفوز به،

لو كانت قيمته أقل،

فسيحزننى أن الحق به.

لجماله أريد

المجد لما يساويه،

وأريد لنفسى

الأحزان والوحدة.

آه، ياإلهى، ياله منْ حب مجنون، لكنه لطيف،

حيث يعذرنى منْ يعرف السبب!

ولم ينم فى هذا الوقت فليساردو، وبخطوات حذرة تعرَّف على صاحب تلك الأفكار والموسيقى، ولأنها مكتوبة بشكل جيد جدًا اشتعلت الغيرة بداخله لهذا السبب أكثر من الاجتراء على التغنى بها. وضايقت خطوات فليساردو الفضولية أليخاندرو تمامًا، حيث كانت أكثر فضولية عن الحد المعقول ، وقرر أن يعرف منْ هو؟ مع أن فليساردو يظهر الأدب بشكل كافٍ، فدار حوله دورتين- أعتقد أنها فى الإسبانية تسمى لفتين- . اغفروا لى حضرتكم هذه الكلمة؛ حيث تقع أحداث هذه الرواية فى إيطاليا. فليساردو، الذى لم يكن مؤهلاً تمامًا من ناحية الكرامة، وهو شىء كان يجعله متكبرًا فقط، أفصح عن ما بداخله بشكل غاضب، وقال له إنها قلة أدب، وأجابه أليخاندرو: *أنا لست قليل الأدب، بل أنت، لأنك فى مرتين أشعرت العالم بذلك*. أعتقد أن حضرتكم تلعنونى، فأنه يقول: "أنا لست قليل الأدب، بل أنت، إذ إنك فى مرتين أشعرت العالم بذلك"، فلم يكن من الضرورى التحدث بشكل مبتذل جدًا باللغة الإيطالية. فليس عندكم حق، لأن هذه اللغة عذبة جدًا وثرية، جدًا وجديرة بكل التقدير، وكانت مهمة جدًا للعديد من الإسبان، لأن عدم معرفتهم باللغة اللاتينية بصورة كافية، جعلهم ينسخون وينقلون من اللغة الإيطالية ما يشتهون، وبعدها يقولون: "مترجم عن

اللاتينية إلى اللغة القشتالية"[*]؛ لكن ثقوا سيادتكم فى أنه قد يحدث لى فى القليل من المرات إذا نسيت، لأننى ضعيف الذاكرة. إذا كان فى ذاكرة حضرتكم المناسبة التى فيها غضب هذين العاشقين، فيجب أن نعرف أن فليساردو لم يوفق فى الحديث إليه عن الشجاعة ولا عن العناية بالشارب، فمع أنه لم توجد الدعامات التى يضعوها له الآن، إما من جلد الكهرمان، وإما مما هو ردىء عادة، أو يصنعونه أكثر سمكًا أو يثبتونه، والآن يسمى فى الصيدلية: الشارب الكثيف؛ فهو كما لو قلنا على سبيل المزاح لشخص سمين أن له ذقنين، فلم يكن شاربه غير مهندم، ولأنه كان يرتفع بواسطة اليدين، فكان يسميه بالمطيع، وعند انسحابه قليلاً، وهى بداية لمن يرغب فى الاقتراب، قال له بصوت أعلى، إن الغضب لا يصلح له أبدًا لأصحاب الأجساد الصغيرة: "أيها الفارس، أنا إسبانى وخادم نائب الملك، جئت بهذا الشارب من إسبانيا، لا لأخيف الجبناء، بل لأزين وجهى، فالموسيقى تحمل من الأذن هذا المعنى". فأجابه أليخاندرو: "من بعيد يستطيع سماعها من له أذنين طويلتين، لأنه بما يسمع يحكم على منْ لا يعرفهم بأنهم جبناء. فهنا يوجد رجل سيقطعهما بضربتى سكين وسوف يسمّرهما فى الآلات لكى يسمعونها عن قرب أكثر". وعلى هذه الكلمات المتجاسرة أجاب فليساردو: "السيف هو الإجابة"، وأخرج سيفه برشاقة وخفة، وبدرع صغير له شريط، جعله يعرف أنه لا ينكر حديثه عن الشارب. هرب كل الموسيقيين، لأنهم من الناس التى تعوقها الآلات بدرجة كبيرة،

(*) هذا نقد لما كان يفعله بعض الكتاب الإسبان آنذاك. (المراجع)

والشجار شيء لايفهم عندهم جميعًا، وأنا كنت أعرف مُوسِيقِي كانت له يدان بارعتان سواء فى استخدام السيف أو فى تحريك الأوتار؛ لكن فى النهاية لهم عذرهم الذى ذهبوا به لحفظ الآلات، لأن أقصى حد للجهل هو المغامرة بما يحملون من آلات يكسبون بها قوت يومهم. علاوة على ذلك فإن منْ يغنى لا يغضب، ولم يأتوا به لكى يتشاجر، بل ليحرك أوتار حنجرته فى خطوات، والهروب أيضًا له خطوات، ويمكن تأديتها بالإقدام عند الضرورة، كما يُرى عند منْ يرقصون؛ حيث لا تخلو الأقدام من الانسجام والموسيقى. ويعد هذا حفظًا لكرامة السادة الموسيقيين الذين يغنون بلغتنا؛ لأنه ليس بالقليل مخافة غضبهم، إذ إنه بالمجيء للغناء السيئ فقط فى شارع منْ أهانهم، يستطيعون قتل أى رجل بهذا الغناء كقتله بسلاح من المدفعية.

واجه فليساردو خدم أليخاندرو، وتشاجرو أربعة لواحد، فإذا كانوا شجعان، فلن نتجادل فى ذلك؛ سمعنا كارّنثا[٣٩]، الذى يقول فى كتابه "*فلسفة السيف*" : " يوجد رجال لهم عزائم ضعيفة جدًا، بحيث لا يحتاج واحد فقط إلى جهد كبير للتفوق على الكثيرين منهم". ويواصل فيما بعد قائلاً: "عندما يتعارك رجل وحيد مع آخر، يمكن القول بأنه يتعارك، لكن إذا كان مع اثنين أو ثلاثة، فهم الذين يتعاركون معه، وهو يدافع عن نفسه فقط". وبمواصلة هذه المادة، يؤكد أن أربع

---

(٣٩) كارّنثا: هو بارتولومى كارّنثا، (١٥٠٣- ١٥٧٦)، أسقف وعالم لاهوتى إسبانى. دومينيكى، كان عالم لاهوتى إمبراطورى فى ترينتو، وأسقف فى طليطلة (١٥٥٨- ١٥٧٦). رافق الملك فليب الثانى أثناء حكمه فى إنجلترا.

حركات تُحدِث أربعة جروح، ويجب تسديد تلك الضربات فى أربعة أماكن غير محددة، وأن الهدف لن يتمكّن من مقاومة أربعة جروح، لأن هرقل(٤٠) نفسه لم يستطع مقاومة اثنين، كما يقول ذلك المثل اللاتينى.

سأكمل ما كنت أتحدث فيه من قبل، ولو أننى أتسبب لكم فى مضايقات بأشياء بعيدة تمامًا عن الموضوع، لكنها تتعلق بمقاصد تهمنى، ولكن لماذا أستبعد التفكير فى أن شخصية سيادتكم شخصية حربية، وأنكم إذا وجدتم أنفسكم إلى جوار فليساردو، الذى ولد فى مكان قريب جدًا من بلدتكم، والمتواجد فى الغربة، والعاشق ذى القوام الرشيق، فلن تترددوا فى مساعدته، ولو كان ذلك بالصراخ؟ الأصوات المتعلقة بالموضوع كانت كثيرة؛ حيث جاءت العدالة، وتحرر فليساردو من ذلك الخطر، الذى يهدد عامة الناس الإسبان فى كل أوربا؛ فيما عدا ذلك، لم يصب، وجرح أليخاندرو واثنين من خدمه. وحملته العدالة إلى نائب الملك، الذى لم يكن نائمًا، لأنها كانت ليلة عادية فى إسبانيا، فبينما أظهر غضبه لفليساردو، أظهر للشرطى أو النقيب، كما يسمى هناك، جزيل الشكر على عنايته، وأمر بوضع القيود والسلاسل للمعتقل

---

(٤٠) هرقل: هو فى الأساطير الرومانية، بطل تتطابق شخصيته مع هرقل اليونانى، وهو إله حارس للزراعة، والتجارة، والجيوش. وهو نموذج للقوة، المنتصر على المجرمين والمخلوقات الجبارة، ويظهر بأشكال متعددة فى العديد من الصور لأبطال أخرى أفرزتها الأسطورة اليونانية: جاسون، وبيرسيو، وتيسيو، وبيليروفوتى... تحول إلى رمز التحرير والبحث عن الخلود، عن طريق الجهد البطولى والأعلى.

فى غرفته، وعندما كانا وحدهما نزل وأمـــرهم بنزعهـــا، واحتـــضنه وأعطاه سلسلة، من تلك التى يسمونها شـــريط، يعـــادل وزنهـــا مائـــة وخمسون اسكودو[41] (إذ إننى كاتب روايات دقيق جدًا، أردت أيـــضًا إلا يكون لسيادتكم شك فيما كانت تزنه)، وطلب منه أن يروى له كـــل الحادثة. وسمعه الأمير بكل سرور، وعندما امتثل أليخاندرو للـــشفاء، أرسل يستدعيه، وحمله إلى غرفة فليساردو، الذى أمره بوضع السلسلة والأغلال لإحداث نوع من التأثير، وقال له أن ينظر إلى الحزن الـــذى تسبب له فيه، ولو أنه نفى إلى إسبانيا، فإنه سيرسله فيمـــا بعـــد فهـــم أليخاندرو؛ أن الأمير يجبره بتلك الطريقة على أن يسامحه، وأنه إن لم يفعل ذلك فقد يقع فى الشقاء وبغض الأمير، وكإنسان عاقـــل اختـــار، واحتضن فليساردو، الذى بسبب جرح عدوه، كان يرى ويتحـــدث مـــع سيلبيا كل ليلة، والتى منذ احتدام المشاجرة، كانت أكثر استـــسلامًا. زاد الحب، الذى غرسته النظرة والحرمان من تحقيق الرغبات من خـــلال المحادثات الطويلة، التى دمرت الكثير من الأعراض والتـــى أحرقـــت الكثير من البيوت. وصلت الكلمات إلى أن يتبادلا القسم بالزواج، عندما أعطى نائب الملك لفليساردو عملاً خطيرًا، كان بالنسبة لمكانة ســـيلبيا ضروريًا، وبما أن الحب كالتاجر يضمن، مع أنه بعد ذلك لا يدفع قط، لأنه يعامل معاملة السيد النبيل عندما يحب، فـــلا يعطـــوه أى شـــىء كضمان، دون مقابل، ولا يدفع أى شـــىء بعـــد ذلـــك ، إلا إذا كـــان بواسطة العدالة. سمح الحب بأن يصل فليساردو إلى أحـــضانها، التـــى

---

(٤١) أسكودو: اسم لبعض المسكوكات القديمة.

كانت محمية بعناية فائقة، مما أسفر عن سوء إخفاء مـا كـان مخفيًـا تمامًا. لا يمكن المبالغة بأى فرحة مشتركة كـان العاشـقان يحـتفلان بالتقاء عيونهما، زوجان فى خيالهما، وكيف كان فليساردو يُقِرُّ بقسمه، وسيلبيا كانت تصدقه، وكما أن كل واحد يحب نفـسه- طبقًـا لـرأى الفيلسوف- يعطى الضمان على الرغم من خشيته؛ لكى يشبع رغبتـه، فلا أحد يحب الآخر كثيرًا، إذا لم يحب ذاته أكثـر. وهكـذا، عنـدما تسمعوا حضرتكم من شخص ما أنه يقول شيئًا لا يمكن أن يحدث لـه، بأنه يحبها أكثر من ذاته، فقولوا له :إن أرسطو لم يشعر بالحب بهـذه الطريقة، وإن سيادتكم متأكدون من أن هذا الفيلسوف كان رجل خيـر أكثر من بلينيو(٤٢)، وكان يتعامل مع موضـوعاته وأشـيائه بواقعيـة وجدية أكثر. فالحظ مع التجار جيد، ومع المحرومين بـشع بالنـسبة، وهو قاس مع البحارة، وفاقد الرشد مع اللاعبين، لكنه مـع العاشـقين جيد، وبشع، وقاس، وفاقد الرشد.

فى وسط هذا السلام، وهذه الوحدة، وهذا الحب، وهـذا الأمـل وهذا التملك اللطيف، افترقا بواسطة أغرب حدث يقع فى حياة إنـسان، ولا يدخل فى العقل الإنساني، إذ إنه دون أن يعتذر ولا يعطى فرصـة لسيلبيا ، طلب فليساردو من نائب الملك التصريح لـه بالـذهاب إلـى نابولى لبعض التجارة، ثم رحل من صقلية. أقلت اسم المدينة؟ لا يهـم،

---

(٤٢) بلينيو: وهو بلينيو الشاب (٦١ أو ٦٢- ١١٤)، كاتب لاتينى. ابن أخى بلينيو العجوز، وكان خطيبًا بليغًا، وقنصلاً (١٠٠) وهو مؤلف مدح *تراجان ورسائل*. وقدم دراسة وثائقية عظيمة عن المجتمع فى عصره.

فمع أن القصة تتصهر في بوتقة الكرامة، فلم أذكرها لهذا السبب على الأقل مع أن الشخصية كانت معروفة، ويسرني أن سيادتكم لا تسمعوا أشياء تشكون في صحتها؛ لأن موضوع القصص ليس بأبيات فصحى من الشعر؛ حيث يكون من الضروري التماس فهمها بكثير من الدراسة، وبعد فهمها وإدراكها، فالشيء نفسه الذي قيل هو نفسه ما كان يمكن قوله بأقل وأفضل الكلمات. عندما علمت سيلبيا بأن هذا الرجل قد رحل بعيدًا، فإنها- بشراسة وقسوة غضب الحب الذي أحبته له، والذي كلفها كرامتها وعرضها، والمجوهرات والهدايا التي قدمتها له- أجهشت بالبكاء وسالت دموع غزيرة منها، وظلت دون طعام في بعض الأيام، وأخذت تضيِّع بريق حسنها ومعنى حياتها. وانسحبت في المساء مع ألفريدا، خادمتها الوفيَّة، ومن خلال السياج الحديدية لحديقة صغيرة أخذت تطل على البحر (لم تكن السعادة قليلة في تلك الأيام، التي كانت نوافذها لها سياج)، قالت: "أه، أيها الإسباني القاسي، المتوحش مثل وطنك! أه، يا منْ هو أكذب وأخون الرجال، الذي تفوق قسوته قسوة فيرينو، دوق سولاوديا (الذي كلفها كرامتها، ومن المجوهرات والهدايا ما ترويه حكاية هذه السيدة التي قُرئ عنها في الأريوستو[٤٣])، وكل هؤلاء الذين نسوا نبلهم وواجبهم، وخدعوا سيدات عظيمات وبريئات! إلى أين تذهب، وتتركني بلا شرف وبدونك، من الذي سيردّ لي كرامتي الآن؟ إذن ترحل بعيدًا عني بعد ظلم كبير، ولم

---

(٤٣) أريوستو: (١٤٧٤- ١٥٣٢)، كاتب إيطالي. مؤلف الرواية الحماسية *أورلاندو الغاضب* (١٥١٦- ١٥٣٥).

يبقِ لى منْ أستطيع أن أسترد شرفى منه، إذ إن الثوب الذى تركته لى، ينزع عنى الشرف، أستطيع فقط أن أدين لـه بمـوتى؛ لـذلك فمـن المستحيل أن أتخلى عن الشعور بقسوتك، وأن شعورى يسلبنى حياتى. فليساردو ياحبيبى، منْ سيعتقد أنك فى تواضع وهدوء وجهـك، وفـى رشاقة ونشاط جسدك تخفى قلبًا قاسيًا جدًا وروحًا شرسة جـدًا! أنـت إسبانى، عدو! فليس من الممكن، وقد سمعتهم يقولـون وقـرأت أنـه لاتوجد أمة فى العالم تحب النساء برقة شديدة ، ولا بأكبر إصرار تفقد من أجلهن الحياة مثل الإسبان. فإذا كنت قد تعرضت لظـروف قويـة محددة أجبرتك على الغياب، فلماذا لم تعتذر بها لى، وتودعنى، وتقتلنى بقسـوة أقل، مع أنها أسرع؟ أيها المتوحش الإسبانى، هل من الممكـن أن تكون بالأمس بين ذراعى تقول إنك من أجلى مستعد أن تفقد ألـف حياة، واليوم تذهب بحياتى التى أعطيتها لـى؟ آه منـى، مـن أجـل المغامرة أنت الآن تسخر مـن دمـوعى، مـسيئًا لحريـاتى ومـسيئًا لاجترائى. الذى كان السبب، ليس فجورى، بل رقتك، وليست حريتى، بل سوء حظى! فسيكون حقيقى أنك الآن تغنى لأخرى أسعد حظًا منى، ولكن عن قريب جدًا ستكون تعيسة جدًا، وستعانى من الجنـون نفـسه الذى رأيتنى أرتكبه والأحزان التى أعانى منها بسببك. إذن فلا تـسخر الآن منى تلك التى تصدقك وتسمعك، لأنها قريبًا ستؤيدنى فى شـكواى منك، ولمعرفتها منْ تكون أنت! ستسامحنى وتعذرنى لأننى أحببتـك، وستحزن من أجلى لأننى أحبك".

قالت سيلبيا هذه الكلمات وأكثر منها وهى تبكى، دون أن تكفى مواساة ألفريدا لتهدئة غضبها، الذى أساسه كل الحق والمنطق وكذلك كل التعاسة. فى هذه الأجواء وصل فليساردو إلى نابولى، مدينة سمعتم سيادتكم عن المبالغة فى جمالها وثرائها، وفيها يعيش إسبان أكثر من الذين يعيشون فى باقى إيطاليا، منذ أن طرد منها القائد الأعلى، السيد غونثالو فرنانديث دى كوردوبا، الفرنسيين، رابحًا ومضيفًا تلك المملكة الشهيرة إلى تاج مدينة قشتالة ، وهى خدمة، بالإضافة إلى الخدمات الأخرى له، لن ينساها الزمان ولن يقضى عليها النسيان، إذ إن كاتبًا إسبانيًا حديثًا، حقده أكثر من فصاحته ومن علمه، ظن أنه يستطيع بكتاب قد دوّنه، اسمه *راغوايوس دى البارناسو*، أن يعتّم على الاسم الذى لم تستطع إنكاره، ولا حتى أمم البربر. والحزن الذى عاش فيه فليساردو لا يستحق المغالاة، لأن فى الأشياء المعروفة جدًا لا يجب استهلاك الكلمات. هناك قرر أن يكتب إلى نائب الملك فى صقلية عن السبب الحقيقى لغيابه. واستلم ذلك الأمير الكريم العظيم الخطاب، وعند قراءته، ظل مندهشًا؛ لا أعلم إذا كنتم حضرتكم تشعرون بذلك، ولكن فى الخطاب كان يقول هكذا:

"عند رحيلى من صقلية لم أخبر سموكم عن السبب؛ حيث لم يسمح لى الخجل، والآن يعلم الرب الخجل الذى أشعر به وأنا أكتب هذا الخطاب، فعلى الرغم من وحدتى، يتلوّن وجهى بكثير من الألوان كما تنهمر من عينى الدموع. وأنا فى خدمة سموكم، وأنا غافل تمامًا عن الشقاء الكبير، كتب إلىّ والداى قائلين لى:

إنه تم القبض عليها ضمن إلقاء المرسوم الجديد الذى أصدره الملك السيد فليبى الثالث بشأن الموريسكيين؛ مبلغ علمى أننى انحدر من سلالة النبلاء، وأننى على هذا الأساس كنت أتعامل مع الناس، لأن والدايّ كانا من المسيحين القدامى عند غزو غرناطة على يد الملوك الكاثوليك، وإذا كانا لا يخدعانى، فسيقولون بأننى من بنى سراج، نسب يجلب معه التعاسة وما يستحقه(*). فقررت أن أترك بيت سموكم، وأنا مترع بألمى الشديد، لأننى أحبكم بالطبع، ولأنه ليس من العدل أن يكون هناك رجل يستطيعون أن يقولوا عنه هذه الملحوظة الشائنة كلما سنحت الفرصة بذلك، وهو يعيش بينهم، فلا حزنى ولا خجلى يسمحان لى بذلك، ولو أننى بذلت قصارى جهدى، لكى لا أظل على هذا الشك كل يوم، وخاصةً فى مكان كان لى فيه وضع جيد. أطلب من سموكم العفو؛ فأنا لا أجيد فن الكتابة، ولا أظن أنه عندما يصل إلى أيديكم هذا الخطاب ستستمر حياتى".

كان شعور ذلك الرجل العظيم بهذا الخطاب واضحًا، ولذا، فقد حزن لهذا الأمر حتى عُرف حزنه الذى استمر عدة أيام، عند نهايتها أجابه هكذا:

"فليساردو: لقد خدمتنى بإخلاص، وتصرفت بشرف كبير فى كل مواقفك، ولذا أشعر بأننى مجبر على حبك وتقديرك كثيرًا؛ فى الميلاد

(*) يشير لوبى هنا إلى المصائب التى تعرض لها بنو سراج فى مملكة غرناطة الإسلامية. (المراجع)

لايسمو ولا ينحط قدر الرجال، لأنه ليس فى أيديهم(*)– فى العادات نعم– أن تكون طيبة أو سيئة فإنهم يتحملونها. أسعدنى بعودتك إلى صقلية؛ حيث أعطيك كلمة، وأقسم لك بحق حياة أبنائى، أن أقدرك أعلى تقدير هنا، وأن نأخذ بشرفى أى شيء يحدث ضد شرفك. ولا أعرف أنا لماذا كنت خجولاً؟ إذ إنك رجل فارس نبيل، وبسبب النبل لايخجل أمير فاس فى ميلان، فهو يخدم جلالة الملك هناك؛ وهو يحمل شارة سانتياغو على صدره، ومُكَرَّم جدًا من جانب الملك فيليبى الثانى والسيدة الأميرة التى تحكم فلاندس؛ حيث خلع أمامها القبعة فانحنت قليلاً احترامًا له؛ لأن الفرق بين العقائد لا يهين الدماء النبيلة، خاصة عند هؤلاء الذين لهم بالفعل دماء نبيلة حقيقية، التى عندنا، كما هى عندك، عُدْ، إذن، يا فليساردو، فلن يحميك أكثر من وجودك فى صحبتى، حيث سأجعلك قائدًا، وسأسعى لتزويجك على يدى، ودون أن أبعدك عنى، على مدى خدمتى لجلالة الملك ومدى حياتى".

استلم فليساردو هذا الخطاب، مكتوبًا كله بيد هذا الأمير الكريم، فعل كريم جدًا نابع من دمائه الشريفة؛ وبهذا الخطاب بكى بكاءً شديدًا وسالت منه دموع غزيرة، وقبّل ألف مرة التوقيع، واستعد للرد عليه هكذا:

(*) أن تكون قيمة الإنسان مبنية على أفعاله لا على أصل عائلته، هذا ما نادى به المضطهدون فى المجتمع الإسبانى من ذوى الأصول الإسلامية أو اليهودية. انظر على سبيل المثال رواية *لاثاريو دى تورميس*. (المراجع)

"حضرة صاحب السمو الأمير الكريم والعظيم: عنـــدما رحلــت عن سعادتكم، ذهبت بروح يائسة لعمل أى شىء يدل على مكانتى. فأنا أقدر وأشكر لكم ، كما هو العدل، كل النعم الكثيرة والمعروف الكبيــر، وأكتب هذا الخطاب بدماء روحى.

فسأذهب إلى القسطنطينية؛ حيث سيكون هناك أبواى، وكرجـــال نبلاء، اختارو بلاط تلك الإمبراطورية، ولم يرغبوا فى البقـــاء علـــى سواحل إسبانيا(*) لكى لا يتذكروا. ومن هناك ستعلم يا صاحب الــسمو ماهى النية التى بداخلى، فإننى أظن أنها ستكون لعمل خدمـــة عظيمـــة للرب، والملك والوطن. منذ أن دخلت بـــاليرمو، خـــدمت، وأحببـــت، وكنت أستحق السيدة سيلبيا مينناردا، وهذا شىء لم أبلغه لأحـــد علـــى الإطلاق. وأعتقد أنه بقى بداخلها تعاسة كبيرة. ولذا اتوسل إلى سموكم أن تعطوا هذا الخطاب إلى من تثقون فى أنه سيرســـله إليهـــا دون أن يعرض سمعتها للخطر وأن يحسن إلى المولـــود الـــذى ســـيأتى، وأن يعرض لها الثروة عند قدميها".

وبهذا ركب فليساردو البـــاخرة ، الفتـــى الجـــسور والـــشارد . بالنسبة لفعله هذا أنا لا أستطيع المدح، إذ إنه كان يمكن أن يظل آمنـــا فى بيت أمير كريم جدًا حتى يعود إلى إسبانيا؛ لأنه ليست له حاجة إلى ذلك فى إيطاليا، حتى لو كان فى الممالك التابعة لصاحب الجلالـــة، إذ إنه كان يسعى فقط لطرد الموريسكيين من ذلك المكان لأنه ظن أنهـــم

(*) أظن أنه يقصد السواحل المقابلة لإسبانيا أى فى بلاد المغرب العربى. (المراجع)

سيقومون بثورة، كما هو واضح فى الخطابات وفى اقتناع صاحب النيافة بطريرك أنطاكيا وأسقف فالنسيا، السيد خوان دى ريبيرا، صاحب الذكرى المقدسة العطرة.

فداخل قارتنا الأوروبية، على بعد نصف ميل من قارة آسيا، تجمد كثيرًا ذلك البحر، بسبب الجليد الذى وقع فوقه، وبسبب كوبرى الثلج الذى يربط بين آسيا وأوروبا؛ حيث تقع القسطنطينية، أول موقع للإمبراطورية الرومانية، وبعد ذلك اليونانية والآن التركية، التى تترامى أطرافها ومساحات أراضيها الشاسعة؛ ولذا يطلقون عليها الإمبراطورية العظمى، وقد حطمها الإمبراطور سيبيرو(٤٤)، وأعاد بناءها قسطنطين ، وزاد بهاؤها وتألقها على يد تيودوسيو(٤٥). كان لها

---

(٤٤) سيبيرو اليخاندرو: ولد فى فينيسا (٢٠٥) أو(٢٠٨)، وتوفى فى ألمانيا (٢٣٥) إثر انقلاب عسكرى وكان إمبراطورًا رومانيًا (٢٢٢-٢٣٥). قضى على التهديد الفارسى (٢٣٢) وحارب ضد الألمان (٢٣٤).

(٤٥) تيودوسيو: تيودوسيو الأول، كان يلقب بتيودوسيو الكبير(٣٤٧-٣٩٥)، إمبراطور رومانى (٣٧٩-٣٩٥)، وتولى عرش الإمبراطورية فى (٣٧٩)، وتسلم حكومة الشرق، أبرم اتفاقا مع القوطيين (٣٨٢)، الذين جعلهم يقيمون فى أراضى الإمبراطورية، وأدخل الكثيرين من البزبر فى الجيش. رفض لقب البابا الكبيرء وجعل الديانة المسيحية هى الدين الرسمى للإمبراطورية (٣٨٠) ومنع الوثنية. قسمت الإمبراطورية إلى قسمين عقب وفاته بين ابنيه، هونوريو وأركاديو. وتيودوسيو الثانى (٤٠١-٤٥٠)، هو الإمبراطور الرومانى الذى حكم الشرق (٤٠٨-٤٥٠) وهو حفيد تيودوسيو الأول.

جدار يبلغ طوله خمسين ميلاً، وأقامه أناستاسيو(٤٦)؛ ولحمايتها من البربر وصل اليوم إلى ثمانية عشر، أى ستة فراسخ، وعدد سكانها يصل إلى سبعمائة ألف، ثلاثة أجزاء تركية، وجزآن مسيحيان والباقى هنود. أخذها محمد الثانى عام ١٤٥٣، ومنذ ذلك الحين هى بلاط تابع لأباطرتهم، الذين يسمونهم بوجه عام الباب العالى. والمدينة تقع فى مثلث فى أحد أطرافها يقع القصر الملكى؛ الذى يطل على الشرق عند ملتقى خلق دنيا، وجزء من أسيا، وفى الزاوية الأخرى يطل على منتصف اليوم والغرب؛ حيث توجد الأبراج السبعة، التى تستعمل كقلاع وكأكبر سجن للمدينة. ومن هذه الزاوية يمكن الوصول إلى الزاوية الثالثة من ناحية الأرض، وهى معرضة لرياح الشمال؛ حيث يقع القصر القديم فى القسطنطينية على مكان مرتفع، وهو يشرف على كل المدينة، مع أنه غير صالح للسكن. من هذا القصر، وحتى قصر الملك التركى كل هذه المنطقة هى ميناء يبلغ مسافة فرسخ من البحر؛ حيث يدخل فى فراغ يبلغ طوله فرسخين، وفى العرض يصل أكثر قليلاً من الثلث، ويسكنه مختلف الناس، وهو محمى من كل أنواع الرياح. ومن الجانب المطل على السبعة أبراج تصل مياه البحر إلى جدران هذا المكان؛ حيث كانت مدينة بيزنطة قديمًا، التى لا يُرى الآن من ضخامتها إلا الأطلال فقط. بها جوامع مشهورة، ومصانع

---

(٤٦) أناستاسيو الأول: (٤٣١؟-٥١٨)، إمبراطور بيزانطى (٤٩١-٥١٨). ساند المذهب القائل بأن المسيح [عليه السلام] له طبيعة واحدة.

للسلطان محمد، بايزيد وسليم[٤٧]، ومع ذلك فلا يوجد جامع واحد يعادل الجامع الذى بناه سليمان[٤٨]، والذى يحمل اسمه، رغبة منـــه فـــى أن يتفوق على كنيسة القديسة صوفيا، وهو مبنى مشهور أقامه قـــسطنطين العظيم حفظ فيه الزمان - على الرغم من أعمال البربــر - بعـــض الأعمدة الضخمة جدًا، وخاصة التى شيدها هذا الأمير، وكلها منقوشـــة بزخارف تحكى عن أعماله. وله أيضًا أربع سرايات ضخمة للثروات والبضائع التابعة للخاصة والأجانب، وهناك شارع رئيـــسى مـــشهور، يصل حتى باب أندرينوبولى، ويمر بالميدان الذى يباع فيـــه الأســـرى المسيحيون، كأسواق إسبانيا التى تباع فيها البهائم، لكن البؤس أعظـــم. عدد أبوابه واحد وثلاثون، تطل على الشرق والغرب والشمال، وعليها حراس إنكشاريين، أما البيوت المنخفضة التى أسقفها مـــصنوعة مـــن الخـــشب المنقـــوش، فهى تغطى بعض المشغولات الثرية من الذهب. لا يستخدمون فرشًا للحوائط، بل يظهرون ثراءهم وعظمتهم فى كـــساء الأرض، التى يغطيها سجاد ثمين جدًا. هناك عادةً زوارق تحمل الناس

---

(٤٧) سليم أو سليم الأول (١٤٦٦- ١٥٢٠): سلطان عثمانى (١٥١٢-١٥٢٠). غزا سوريا، وفلسطين ومصر (١٥١٦-١٥١٧) وجعلهم يعترفون به كحام للمدن المقدسة فى المملكة العربية السعودية.

(٤٨) سليمان الأول العظيم (القانونى) (١٤٩٤-١٥٦٦) : سلطان عثمانى (١٥٢٠-١٥٦٦) ابن سليم الأول، قام بالعديد من الحملات سواء فى أوروبا (استولى على بلجراد، ١٥٢١، وغزا المجر، ١٥٢٦، وحاصر فيينا ١٥٢٩) كما قام بحملات مماثلة فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط (غزو رودس، ١٥٢٢)، وفى الشرق (استولى على بغداد وتبريز، ١٥٣٤). وفى عام ١٥٢٨ أبرم اتفاقًا تجاريًا مع فرانثيسكو الأول، ضد عدوهما المشترك، كارلوس الخامس. وكان أيضًا مشرعًا كبيرًا.

من جانب إلى آخر يسمـــونها بلغتهم"*كايكس*" أو"بيـــرميس" ويــصل عددها إلى أكثر من اثنى عشر ألفًا، لأنه شيء ملحوظ. المكـــان بـــارد جدًا، حتى أنه من ديسمبر وحتى نهاية مارس يكون مغطـــى بـــالثلج. المعابد المسيحية المشهورة، خاصة كنيسة الــسيدة العــذراء وكنيــسة القديس نيكولاس، وكنائس أخرى كثيرة، حاول الموريــسكيون الــذين طردوا من إسبانيا إزالتها، وســمح الــوزير الكبيــر بـــأن يهــدموها ويحطموها مقابل اثنى عشر إسكودو دفعوها له. وذهب لوداع السلطان التركى سفراء كل من فرنسا وألمانيا وفينيسا، قائلين له: "إن ذلك يعنى عدم الرغبة فى السلام مع أمرائهم"، وفى هذه المناســبة لــم يظهــروا قصدهم، أو على الأصح؛ لأن الرب لم يسمح للكثيرين من المــسيحيين بأن يحرموا من ثمرة كنوز كنيستهم؛ حيث تتعرض أرواحهم لكثير من الأخطار. هنا وصل فليساردو، وأعتقد أن ســيادتكم قــد تعبــتم مــن انتظاره، ولم يبلغوه شيئًا عن الوضع الحالى، أو الوضع الــذى كانــت عليه هذه المدينة الشهيرة؛ لأن المرأة التى لم تقدر رجال وطنها حــق قدرهم، ماذا سيعطيها التركى؟ إذن فلتعلموا سيادتكم أن الوصف مهــم جدًا لفهم التاريخ، وحتى الآن لم أتحول إلى عالم بجغرافية الكون لكـــى لا أجهد سيادتكم، وأنتم مَن يبدو لكم المسافة من بيتكم وحتى البــرادو طويلة، مع أنكم قد تذهبون برضاكم لحمل السلاح، لقتل من تصادفون، فلم أر فى أى شخص عداءكم لهدوء الإنسان. رأى فليساردو والديـــه، ولأنهم كانوا نبلاء بكوا معًا العار، والخطر الذى يهدد حياتهم فى تلـــك البلاد، مع أنهم عندما رأوا العديد من الكنائس والمستشفيات كان ذلـــك

يهدئ من روعهم. إن المصير المشترك يقوى الثقة فى العلاج ويضعف الإحساس بالمصائب، كما قال لا أعرف إذا كان الفيلسوف ميرتيليو كما كان يرى الراهب أنطونيو دى غيبارا[٤٩] صاحب الذكرى الطيبة، وهو كاتب مشهور، لم يترك فيلسوفاً من هنا أو من هناك مطلقا دون أن يتبنى له حكمة.

وصحيح أنه فى بعض الأحيان ما قالوه عنهم يكون أقل مما يمكن أن يقوله الآن أى واحد حديث، لكنه يعطى مرجعية لما يكتب قائلاً: "كما قال تيمور لنك الكبير، أو ما وجد مكتوب فى *حوليات موسكوفيا* الموجودة فى مكتبة جامعة القاهرة[*]" إن كان هذا صالحًا، فما أهمية قوله باليونانية أو بالقشتالية؟، وإذا كان رديئًا وباردًا، كيف يمكن أن تتفوق سلطة المرجعية على العقل؟ وجدت ذات مرة فى كتيب ظريف، يسمونه *الغابة الإسبانية*، حكمة قالها كونت معروف: "إن بسكايا كانت فقيرة فى الخبز وغنية بالتفاح"، وقد علّق أحد الظرفاء فى الهامش وكان الكتاب ملك له: "نعم ربما قال ذلك"، وتصورتها نكتة جيدة.

---

(٤٩) الراهب أنطونيو دى غيبارا (١٤٨١-١٥٤٥): هو راهب فرانسيسكانى وكاتب إسبانى ومؤرخ للملك كارلوس الخامس، وكان أسلوبه مبشرًا بالإسلوب الباروكي (*ساعة الأمراء*، ١٥٢٩؛ *واحتقار البلاط ومدح القرية*، ١٥٣٩؛ *ورسائل عائلية*، ١٥٣٩-١٥٤١).

(*) من الواضح أن لوبى دى بيغا يشير إلى الأزهر، هذا إن لم يكن يسخر ممن يدعون العلم وينسبونه إلى كتب طالعوها فى أماكن يستحيل الوصول إليها. (المراجع)

إذن، كما أقول، وبالعودة للقصة كان فليساردو وأبواه يبرعــون فى وضع علاج لأنفسهم على مدى عدة أيام، إذا كان هناك علاج مــا لهذا المصير. وهنا أعترف لسيادتكم، ياسيدتى، أننى لا أعلم - لأنهم لم يقولوا لى- كيف أو أين أصبح فليساردو باشا للسلطان التركى! الــذى يظهر فى الملابس التنكرية للمسرحيات؛ حيث يحدث فى لحظة واحــدة أن يتحول إلى أمير عظاء، وتتحول سيدة إلى رجل ورجل جدًا، وطبقًا للمعتقدات التى يرددها العامة بألا يتحدثوا إليه بلغة أخرى.

أصبح فليساردو، إذن تركيًا؛ وأنا لا أوافقه على ذلــك؛ أحــضر ملابسه وعمامته من الحريراللامع ، كان أسمر وطــويلاً وكــان لــه شارب مهندم، فكان الرداء مناسبًا له كما لو كان قد ولد هناك؛ فحــسن القوام، وجمال الشكل، والحماس، والهواء، والشجاعة، والغرور أعطوا للسلطان التركى سببًا ليقربه إلى شخصه فى كثير من المرات، وهكذا، كان يتناول الأشياء التى تتعلق بإسبانيا بشكل مستمر.

كان التركى يدعى السلطان أحمد، وقد بلغ فى هذا الحين الثالثــة والثلاثين من عمره. وكان أخوه- وأسمه مصطفى ويبلغ مــن العمــر ثلاثين عاما- أسيرًا لديه، وكان يتمنى قتله، وهى عادة وحشية لأولئــك الهمجيين، وذات صباح أرسل البستان خيباسى مــع وزراء آخــرين، وعندما وجدوا السجن مغلقًا، والمذكور مصطفى يتمشى خارجه أبلغوا بذلك السلطان التركى الذى اعتبرها معجزة، فاعتقله، واستشار بعد ذلك المفتى؛ الذى يعتبر الشخص الرئيسى من بين هؤلاء الــذين يعلِّمــون العقيدة الدينية عندهم، وأراد قتله. وفى تلك الليلة حلم أنــه رأى رجــلاً

مسلحًا، كان يهدده بحربة، وبهذا الخوف والرعب تركــه علــى قيــد الحياة، مع أنهم أثاروه بعد ذلك كثيرًا. لدرجة أنه من نافذة تطل علــى حديقة مصطفى أراد أن يرميه بسهم مسمم، وعندما همَّ بإطلاق الــسهم نحوه، كانت الرعشة التى أصابته كبيرة جدًا، حتى سقط القــوس مــن يديه فى النهاية.

كان تواضع هذا التركى كبيرًا جدًا؛ لدرجة أنه لم يرغب فى أخذ ملابس، أو ذهب، أو هدايا من أخيه، فهو يعيش ويدرك أنــه ســيرث العرش من بعده، مع أن السلطان أحمد له أبناء كثيرون، من بيــنهم اثنــان من الذكور واثنتان من الإناث الظاهرون الذين يتصلون بالمجتمع أمــا الباقين فهم جميعًا مختفون فى قصره.

كان السلطان يسعد كثيرًا لرؤية مناظر وصور للمسيحيين، التى كان يرسل فى طلبها إلى السفراء والتجار، وبعد رؤيتــه لهــا يردهــا إليهم. إذ إنه فى حفلة أقيمت على متن باخرة استقلوها، رأى الــصور التى فى دكان رجل عبرانى ثرى، فنادى على فليساردو، الــذى كــان يسمى حينذاك سيليبيو باشا؛ تخليدًا لاسم تلك السيدة التــى كانــت مــن صقلية، والتى من أجلها يعيش أكبر حزن، يكون لعاشق غائــب، فــلا الشك الذى كان لديه فى العودة لرؤيتها، ولا تغير المكــان والعــادات، كان سببًا كافيًا لكى ينساها، ولا اعتقد أن يكون كذلك نهر السيلينو[٥٠]؛

٥٠-

(٥٠) فى أساطير آسيا الصغرى؛ هى آلهة أزلية للغابات والنافورات والفسقيات، وفى الأساطير اليونانية هى آلهة تشكل جزءًا من الموكب العظيم الشاسع الذى لا يمكن حصره من الكائنات الخرافية التى

الذى كان يستحم فيه القدماء، وكانت من خصائصه نسيان كل آلام الحب، حتى لو كان له سنوات كثيرة.

وعند وصول فليساردو إليه سأله إذا كان يعرف تلك الصور الشخصية، فأجابه بنعم، وأخذ يبين ويعرض له أسماء أصحابها، قائلا: ما كان يعلمه تمام العلم عن عظمة تلك الشخصيات وألقابهم وبيوتهم. وكان أحمد يتسلى كثيرًا بما يعرفه عن الإمبراطور كارلوس الخامس، والملك فيليبى الثانى، وفيليبى الثالث، ودوق ألبا الشهير، وكونت فونتس وغيرهم من الرجال. منْ كان يظن بأن التركى يتسلى بهذا! كان من بين النساء التى كانت حينذاك لدى السلطان أحمد، امرأة من أندلوثيا، كانت أحب النساء إليه، تم أسرها فى أحد موانى إسبانيا. كانت هذه المرأة تتسلى بشكل واضح بسماع ومشاهدة تمثيل الأسرى المسيحيين لبعض المسرحيات، وهم راغبين وطامعين فى معروفها وحمايتها، وكانوا يقومون بدراسة هذه المسرحيات، التى يشترونها من فينيسيا من بعض التجار اليهود لأخذها، وعنها رأيت أنا خطابًا من سفيرهم حينذاك إلى كونت ليموس[٥١]، مبالغًا فى أن هذا اللون من

= نصفها الأعلى - حسب الأساطير اليونانية - إنسان ونصفها الأسفل ماعز. سيلينو هو علاوة على ذلك، رفيق ومعلم لباكو. وصفه الشعراء وصوره الفنانون التشكيليون على أنه رجل عجوز، أصلع، وله أنف أخنس، وبدين وله ضحكة ساخرة، وخطوة غير واثقة وغالبًا ما يكون ثملا. يلعب فى المسرح الهجائى القديم دورًا مهمًا، حيث يعتبر سيلينو تجسيدًا للعجوز الفاجر الفاسق والسكران.

(٥١) بيت ليموس هى عائلة من الأشراف الغليسية. منح الملك أنريكى الرابع لقب كونت ليموس لبدرو البارث أوسوريو عام ١٤٥٦.

الكتابة ينتشر في أرجاء كثيرة من العالم بعدما يقسَّم بعناية فائقة إلى جزأين. أراد صديقنا فليساردو- أسأت التعبير، إذ إنه الآن لم يعد كذلك- أن يسعد ويرضي السلطانة العظيمة السيدة ماريا، ودرس مع غيره من الفتيان، أسرى كذلك من طرد المسلمين، مسرحية *القوة الموجعة*. ارتدى ملابسه ليقوم بدور ذلك الكونت بأناقة وشجاعة؛ لأنه كان يوجد في القسطنطينية الكثيرون الذين كانوا يصنعون ملابس إسبانية جيدة من أفضل الأقمشة والقيطان من إيطاليا.

وكان متناسقًا ولائقًا جدًا في تلك الثياب التي أعد لها منذ مولده، لم تره الملكة من قبل، وعندما وقعت عيناها عليه، تحركتا بحرية تامة وأخذتا في طريقهما الروح. قام فليساردو بالتمثيل فقط، وعندما رأى نفسه في ثيابه الحقيقية بكى بدموع حقيقية صادقة، ورقت مشاعره لذكريات جميلة وندم على الإهانات الظالمة. وعند انتهاء الحفلة، بدأت السلطانة تهتم به، وكلما سنحت لها الفرص والمناسبات، كانت تلفت انتباه فليساردو وتجعله يفهم أنها ترغبه وتتمناه، بحيث أنها من خلال مواقف قليلة فُهم قصدها، لأنه لا توجد أوراق أكثر وضوحًا وفاعلية من العيون التي تنظر بحب.

وهكذا، ذات يوم، كانت تمدح رشاقته، وتأسف من أنها بإرادتها تركت عقيدتها الحقيقية، فقال لها بأن نيته لم تكن في العيش في عقيدة ذلك النبي ؛ ومع أنها حقيقة، فيالها من خيبة أمل جلبته إلى حيث كان أبواه، وقد جاء وهو ينوي القيام بعمل عظيم من أجل ملك إسبانيا، لأن

روحه كانت باسلة وشجاعة لدرجة كبيرة، فلن يرجع إلى إسبانيا دون أن يكون أهلاً للتقدير والتكريم من خلال عمل بطولي شهير.

وأجابته السلطانة: "إذا كنت أستطيع تكريمك، فهنا تجد المرأة الأكثر استسلامًا وقوة لمساعدتك؛ لأن السلطان أحمد لا يعاملني كالأخريات، بل يعاملني بما تسمح له شريعته وعظمته بذلك".

حينئذ قبّل فليساردو يدها ؛وهو راكع على ركبتيه، وبكى ؛وهو ينظر إليها ،وهي عالمة بشراسة المريخ وليونة أدونيس(٥٢) في ذلك الفتى. أنهضته من الأرض، وأقسمت له بديانتها المطبوعة في قلبها، بألا تتخلى عن حمايته في العديد من الأفعال التي يحاول القيام بها، ولو فقدت في ذلك حياتها. الفرصة التي كانا يغتنماها لكي يرى كل منهما الآخر، كانت بحجة قولها للتركي إنها تحب سماع غناء فليساردو، وهكذا، كان يدخل ويخرج بحرية ليسليها وربما يكون ذلك في حضور السلطان أحمد نفسه؛ حيث أنشد هكذا:

لذيذ صمت السحب

إذا كان مَنْ يخدم مُحبًا

يحصل على المجد الكبير بصمته

فلن أسعى لأكبر من ذلك.

---

(٥٢) أدونيس: إله فينيقي للنباتات والخضرة، وقد عُبد عند اليونانيين والرومان. مات وهو يصطاد. يمضي جزء من السنة في النار والآخر بين الأحياء، مع أفروديت.

وضع المعروف موضع الشك

يمنع اجترائى،

ويقول ظنى

السبب كبير لإدانتها،

إذ لا يوجد عذر

تستحقه.

الحب، بلا اجتراء على التعبير

عن الحب الكبير، هو جبن،

لكن ضياع الخير قد يعنى

العزم على الموت؛

لكنى أريد أن أعانى

من الألم الذى تعاقبنى به

والمملوء بقوة الاحترام،

ولا خوف من تغيُّرها،

فبينما لا أفقد الألم

فأنا لا أفقد الأمل.

من صمتى القديم

يعيش الآن حبى الذى يئن،

فلن يصل إلى السعادة

مَنْ لا يجرؤ.

أتمنى أن أكون مفهومًا

عندما لايساعدنى الفهم؛

لكن لا أحب قول مَنْ أكون أنا

لأصل إلى ما تصبو إليه نفسى،

دون أن أكون محبوبًا،

بينما أنا غارق فى الصمت.

فكرى سعيد

يعيش مع نفسه؛

لأنه بما أنه يفكر ويصمت

سموه فكرًا.

أحاول فى بعض الأحيان

أن أتكلم عن حزنى وعن عيوبه،

لأرى إذا كان الألم سيتناقص؛

لكنها رغبات مجنونة؛

لأن مَنْ يتحدث بلغة العيون

لا يحتاج إلى لغة أخرى.

أعطنى آلامًا خالدة،

ستكون آلامًا سماوية،

لأنكِ، على الأرض،

صورة حية للسماء.

إذا كان مَنْ يفضل المجد على راحته،

يسمى الألم مجدًا،

فمن الأفضل أن ينتظر

حتى يجبرك على إعطائه

خيرٌ مما لديك،

وهو من يبحث عن الألم.

اعرفى ألمى من شخص غيرى،

آه، يا له من سبب جميل، من أجل

سعادة مَنْ تتبناه الروح ،

فأنتِ خير سماوى،

وإن كان مميتًا،

ولا أستحق منكِ أن تفهميه،

فالحزن يظهر من خلال عينىّ،

فلا أبغى، ولو التهمنى،

أن يخبرك لسان آخر أو قلم آخر

بما أعانيه.

تصورت السلطانة أن فليساردو ألَّف هذه الأبيات من الشعر تعبيرًا عن إحساسه وقصده منها، وانخدعت السلطانة؛ لأنه كان قد كتبها من أجل سيلبيا فى بداية عشقهما فى باليرمو، ولكنه لم يكذب فى النية؛ لأن فليساردو بحث عن هذه الأجزاء، التى كان يظنها تعطى هذا الانطباع، من بين أبيات الشعر الكثيرة التى كان يعرفها، كما يحدث عادة عند الموسيقيين، الذين يحضرون فرقة موسيقية فى احتفالات القديسين، وبتغير الاسم فقط لأغنية شعبية تغنى فى عيد الميلاد فإنها تصلح لتغنى فى كل يوم من أيام السنة؛ وهكذا، فإنه شىء جميل أن نسمع فى عيد أحد القديسين القول بأن الرعاة يرقصون، وهم مشدودون من شعورهم من ليلة عيد الميلاد وحتى شهر يونيو.

وزاد حب السلطانة بشكل واضح، وهى تحـاول غـزو الإرادة الغائبة لهذا الفتى، الذى قرر بحرية والتزام رجل خيِّر أن يحمى نفسه. وطلب منها أن تتوسل إلى السلطان التركـى، لكـى يعطيـه بعـض المراكب والناس، ويعينه قائدًا، وهو ما حصل عليه بسهولة. وهكـذا، بدأ الخروج من القسطنطينية بستة مراكب مسلحة جيدًا، ودون أن يقبل فيها أى موريسكى؛ لأنه لا يعجبه تعاملهم ولا يجرؤ علـى أن يحـسن الظن بهم. وقام ببعض المناورات التى لهـا بعـض الأهميـة، ودون الخوض فى معركة كبيرة وعند عودته إلى القـسطنطينية أخـذ معـه بعض الأسرى، ولكن لم يكن منهم أحد مـن إسـبانيا، وقـدمهم إلـى السلطانة، التى استقبلت برضا المجوهرات الثمينة؛ لأنها كان يـسعدها أن يضعها من أجلها فى العمامة، التى بها مختلف أنواع الريش.

وذات مرة وصل بجرأة إلى سواحل صقلية- وكان ذلك يتكـرر كثيرًا- حتى أصبحت باليرمو على مرمى البصر. كان لـسيلبيا مـن فليساردو ابن بلغ من العمر ثلاث سنوات، كانت تربيه بحرية مع أنهـا ليست حرية كبيرة، وتقول إن أبويه رحلا عن هذه الدنيا، وذلك لكـى يقتنع ذوى النية الحسنة أنه ابنها؛ لأن الفتيـات المحافظـات جـدًا لا يتباهين بالأخطاء الكبيرة. ما جرى، إذن، هو أنها منذ زمن لم تتلق أى خبر جديد عن فليساردو، لكن الشك كان يعزيها شيئًا ما، وأعتقد أنهـا بسبب الظلم كان من الممكن أن تنساه، لولا أنها كانت تراه فى ابنها كل يوم حاضرًا بكل هذا الشبه الكبير الذى حكى عنه المثل القشتالى فيمـا يتعلق بهذا الشك، علىَّ أن أطلب من حضرتكم العفو لمـا يـدور فـى

تخيلكم؛ لأننى أستحقه تمامًا، حيث إننى لم أذكر المثل. وعلى هذا النحو كانت تمضى حياتها، وذات يوم طلبتها بعض الصديقات للنزهة؛ حيث لم يكن خروجها كثيرًا فى السنوات الثلاث فى أثناء هذا الغياب الظالم، فلم تكن تعرف إذا كان فليساردو ميتًا، فخرجت فى عربة مع تاجر من كلابريا للتنزه على البحر؛ حيث أقام لها وليمة مع صفاء الجو وقد تأثرت بإحسان الحظ المخالف، وظننت أن القدر ربما يكف عن إثارة المضايقات، أو ربما يؤدى خير قليل يحدث لها إلى أن تشعر بالألم بقوة أكبر.

فى هذا الجزء لا استطيع أن أتوقف عن الضحك من التعريف الذى وضعه أرسطو عن الحظ، فلم يعدم هذا الرجل الطيب مَنْ قد يسخر منه فى القصص يقول، إذن، إن الحظ السعيد هو عندما يحدث شيء ما سعيد، والحظ السيئ هو عندما يحدث شيء سيئ. انظروا حضرتكم إذا كان عندى حق، فى الحقيقة قال ذلك فى المجلد الثانى لكتاب *الفيزيائيين* فأنا لا أبتدع هذا الكلام. أحس بلوتارخ تشيرونى[٥٣] بهذا الكلام بصورة أفضل بكثير، فقال على سبيل الإهانة إنه من كلام النساء القول بأن لا أحد يستطيع تجنب أقداره، وهى حكمة كاثوليكية؛ لأن المشيئة حرة وبهذا تبرر السماء أحكامها.

---

(٥٣) بلوتارخ (٥٠ ق.م -١٢٥): كاتب يونانى، سافر إلى مصر وأقام فى مختلف المناسبات فى روما، وكان كاهنا لأبوللو فى دلفوس. كتب العديد من الأعمال.

الحدأة غير معتادة على الهبوط، بل تطيـر وأجنحتهـا الداكنـة منشورة، والمنقار جاهز واليدان مفتوحتان، وبسرعة كبيرة وغـضب على الكتاكيت المساكين، الذين ابتعدوا عن حرارة ريش أمهـم، هكـذا انقضَّت بارجة فليساردو على عربة سيلبيا. استولى عليهـا بـسرعة، وسط بكاء حار وشديد منها ومن صديقاتها، ثـم مـضوا بهـن نحـو السفينة، ونزعوا جزءًا من شريط الشبكة المملوءة بالثياب المعلقة على جانب السفينة، وحملوهن إلى مقدمة الباخرة؛ حيث كان فليساردو يرقد فوق سجادة تركية لها تجعيدات من الذهب بين تطريز مـن الحريـر، واضعًا ذراعه على مخدتين من الديباج الفارسـى؛ الـذى لـه لـون الصدف.

ركعت سليبيا على ركبتيها، وبدموع فى عينيها قالت له بلهجـة صقلية أن يرحم أتعس امرأة على وجه الأرض، ولكـى تـؤثر فيـه وضعت طفلها الصغير بين الذراعين وأمام العينين الحـائرتين، لمـن نبهه سمعه إلى أن ذلك الصوت يشبه صوت سليبيا. هنا يا سيدة مارثيا لن تكفى أيضًا ولا مبالغة أبيات الشعر، حيث زادت سهولة النثر، فلا هو تاريخى ولا هو شعرى، ولو كتبه مؤلف "*علاقات الثيران*"، الشاكى من حظه المعاكس؛ ومعه حق لأن أشعار ثامورا[٥٤] تدل على التـزام كبير، لمنْ لن يتذكر هذا المكان بعد التخلى عن عن الغناء الرومانـسى

---

(٥٤) أنطونيو دى ثامورا (١٦٦٠-١٧٢٨): كاتب إسبانى. وشاعر من شعراء البلاط الملكى، وكاتب مسرحى، فى *مسرحياته الجديدة* (٤ مجلدات، ١٧٢٢ و١٧٤٤) أعاد صياغة أعمال لوبى دى بيغا، وكالديرون وتيرسو. كتب أعمالاً ذات موضوعات دينية، وتاريخية خاصة بالعادات والتقاليد.

للملك سانتشو، وخيانة بييدو دى أولفوس، وأحزان السيدة أورّاكــا[٥٥]؛ التى وصلت إلى درجة المنافسة تقريبًا مع أشــعار الــسيد ألبــارو دى لونا[٥٦]، والتى ربما استمرت حتى اليوم لو لم يمت شاعر مُعين كــان يكتب شعرًا مُقفًى، بهذا الالتزام لمدة عشرين عامًا. وحيث إننا تــذكرنا بييدو دى أولفوس، أرجو سيادتكم أن تقولوا لى إذا كنتم تعرفون أحــدًا من أقاربه؛ فقد لفت انتباهى أنه لكونه رجلاً خائنًا، لم يعد له أى قريب فى هذا العالم. لو أنه أتى من أصل نبيل أو قام بعمل جــدير بالــذكر، لقال الجميع أنهم خلفائه، وأنا عرفت رجلاً كان يقول باســتمرار:"آدم، هو سيدى"، ويمكن أن يكون ذلك صحيحًا تمامًا، لأن هذا هو الأكيــد، ولو أن رجلاً قد ولد فى مكان خبيث، حيث كان يعيش بدرو أوردنيــث دى ثيبايوس، الذى ولد فى خايين، وكان سببًا فى تحول أميــرة عــن

---

(٥٦) أورّاكا (١٠٨٠- ١١٢٦): ملكة قشتالة وليون (١١٠٩-١١٢٦). ابنة ألفونسو السادس وكونستنثا دى بورغونيا، تزوجت من رايموندو دى بورغونيا (١٠٩٠)، كانت وصية على ابنها ألفونسو رايموندث (ألفونسو السابع) فى غاليسيا (١١٠٧)، ثم ورثت عرش قشتالة وليون. تسبب زواجها من ألفونسو الأول ملك أراغون (١١٠٩) فى نشوب الحرب الأهلية، وهو ما تسبب فى طلاقها (١١١٤). منذ ذلك الحين تعرضت لمواجهات مع زوجها وابنها وأختها، التى كانت كونتسة فى البرتغال، والمطران خيلميريث دى سانتياغو.

(٥٧) البارو دى لونا (١٣٨٨-١٤٥٣): سياسى قشتالى. كان مفضلاً ومقربًا من الملك خوان الثانى، الذى عينه قائدًا حربيًا على ممالكه (١٤٢٢)، وقاد الحزب الملكى ضد حكم القلة الخاصة بالإشراف، وهزم أمراء أراغون فى معركة أولميدو (١٤٤٥). فقد بعدها تأثيره، وحكم عليه بالإعدام وقطع رأسه.

عقيدتها، وعمّد أكثر من مائتى ألف شخص، وفعل خيرًا كثيرًا، سيكافؤ الرب على ذلك إذا كان ذلك حقيقة، وإذا لم يكن كذلك، فلا. كل هذه الجمل الاعتراضية، يا سيدة مارثيا أضعها؛ لأخفف عن سيادتكم الحزن الذى تسببت فيه دموع سيلبيا، وأعتذر عن الحديث عن سعادة وفرحة العاشقين، عندما تعرف كل منهما على الأخر. أؤكد لسيادتكم أن أحد الحاضرين ذكر لى، أنه لم ير فى حياته عشقًا أكثر من هذا، ولا دموعًا أرق من هذه.

أسعد فليساردو بهذه الأخبار الجديدة سيلبيا، وأكد لها بأنه لم يترك الدين الحقيقى، وعن قريب سيذهب إلى صقلية؛ حيث سيقدم لملك إسبانيا خدمة كبيرة، يترتب عليها أن تنقذ الكنيسة أرواح عدد كبير من الناس. فرح بابنه، وبعدما قضى تلك الليلة وهو يتحدث عن هذه الأشياء، أعاد سيلبيا إلى ميثينا قبل طلوع الفجر، محمّلة بأفخر أنواع الأقمشة وأثمن الحلى والمجوهرات والماس، وأكثر من عشرة آلاف من المسكوكات الذهبية، التى حملتها فى صندوقين.

ذهبت سيلبيا مزودة بالتعليمات ؛لكى تتحدث إلى نائب الملك وأن تلفت انتباهه إلى هذه الأحداث، بينما كان يأخذ حذره ويستعد للخروج للمعركة مع السفن التركية. فكر هذا الأمير الشجاع خلال مرات تفكيرًا بلا حدود أنه قد يكون من الأفضل أن يتقابل أولاً مع فليساردو، وفى النهاية قرر أن يخرج مع اثنين من الجنود بالقرب من الشاطئ، وأن يخرج نائب الملك فى مركب آخر مع العدد الذى يراه من الجنود. وهكذا اتفقا، وأنام كل منهما الآخر، فقفز فليساردو على مركب نائب

الملك، وألقى بنفسه عند قدميه، وحــاول جاهــدًا أن يقبلهمــا. دُهــش المسيحيون عندما رأوا رشاقة، وأدب، ولغة التركى؛ لأن نائب الملك لم يكن معه رجل يعرف فليساردو. تحدثا عن أشياء مختلفة، وعندما جاء وقت الوداع أعطاه فليساردو وردة من الماس كانت قــد أعطتهــا لــه السلطانة، ويقدر ثمنها بعشرين ألف أسكودو، هذا ما كــان يقــال فــى القسطنطينية، لأنها لم تصل إلى البيع أقلع سيلبيو باشا، إذا كان علينــا أن نسميه هكذا، تاركًا المدينة فى حالة ذهول ودهشة؛ حيــث شــهدت كلها تقريبًا عند الشاطئ نائب الملك وهو عازم علــى هــدف محــدد، وترك فليساردو سيلبيا ترى ما لم تكن تتوقع، وفى ثياب مختلفة تمامًــا وعادات مختلفة عن تلك التى عرفته بها. سبب عدم بقاء هــذا الــشاب التعيس حينئذٍ فى صقلية مع زوجته وابنه، حيث ظلت روحــه هنــاك، حيث قدَّم ذلك الأسطول من السفن الشراعية الضخمة، وعليها عدد من الأتراك إلى نائب الملك؛ كان هو الشكر الواجب عليه تجاه الــسلطانة لأعمالها الكثيرة الطيبة، التى كانت ترغب فى العودة إلى دينها أبويها، الذين سالت دموعهما الكثيرة من أجلها؛ وبعيدًا عن امتلاكه أكبر غنيمة أكيدة – إذ إنها كانت تتمناه وترغبه– طالما كانت لديــه الرغبــة فــى العودة إلى إسبانيا.

دخل فليساردو عبر قناة القسطنطينية عند حلول فــصل الــشتاء تقريبًا، يحمل معه بعض الأسرى من الجزر ومن بعــض الــشواطئ الأخرى، دون أن يلمس كل ما هو خاضــع لجلالــة الملــك ودون أن يرسى على أرض تابعة لسلطانه. قام بإنقاذ كبيــر للأبــراج والقــصر

الملكى للسلطان التركى؛ قفز على الأرض، وقبّل قدمه، وأسعد المدينة، وأحزن الحاقدين وقوّى أمل السلطانة، التى كانت تعلم عـن رغباتـه وأمنياته، ولم تكن تنتظر رؤيته، فقد ظنت بلا شك أنه سيخلف وعـده ولن يوفى بالتزاماته، وسيظل فى إسبانيا.

وقبل عدة أيام وصل إلى القسطنطينية ناصـف باشـا، رئـيس وزراء السلطان التركى، فيما يبدو منتصرًا فى حرب فارس، فكانـت عظمة الاستقبال والاحتفالات به والتحية كبيرة جدًا، إذ إنه بعد أن جلب جيشًا كبيرًا من الناس، جلب مائتين وأربع وستين من الدواب محمّلـة بالمسكوكات الذهبية. انتبهوا سيادتكم إلى أنه، بسبب عظم وكثرة ثروة الأمراء، أحب أن أقول لسيادتكم قصة هذا الرجل؛ لأنه أيضًا كان سببًا فى بعض شكوك فليساردو. كـان ناصـف باشـا صـهرًا للـسلطان التركى(متزوج من أخته الكبرى)، وكان هو الأكثر تقديرًا ومهابة فـى كل تلك الامبراطورية الكبيرة. محمود باشا، وهو ابن ثيجـالا، ذلـك القرصان الشهير – الذى بعد خير الدين باربارّوخا – لم يحـظ أحـد بالشهرة أكثر منه، كان ينافس ناصف فى العظمة. فى ذلك اليوم علـى وجه الخصوص شعر محمود بالحقد بسبب تفاخر وخيلاء عدوه. بقـى لى شك فى أن حضرتكم تتصورون العملات الذهبيـة تبـدو كثيـرة والجنود قليلين؛ ولهذا الهدف أحب أن تعرفوا سيادتكم أن رجـلاً مـن الأشراف من هذا المكان – أسعد حظًا فى المال عنه فى الذكاء – زار سيدة من اللاتى يقدرن الذكاء أكثر من المال– ولابد أنهـن قلـيلات– أحصى لها ذات يوم الثروة التى كانت لديه، وبـين تفاهـات أخـرى،

انتهى إلى القول بأنه يحجز ثلاثمائة حمل من القمح ومائة من الشعير، وثلاثين عربة محملة بالقش، وأضاف متسائلاً عن رأيها في ثروته، فأجابته قائلة: "يبدو لى يا سيدى بأن القمح كثير والشعير قليل، والقش يكفى حضرتك". لكن نترك جانبًا هذه الكمية من العملات الذهبية، التى لن تبدو كثيرة بالنسبة لمن يعرف تكبر أولئك الناس، أقول إن ناصف باشا عاد إلى القسطنطينية، وهو يقول بأنه وقَّع معاهدة سلام مع الملك الفارسى، وبهذه النية أحضر معه سفيره محملا بالهدايا الثمينة من الأقمشة، والعملات الذهبية، والأحجار الكريمة وأشياء أخرى ذات قيمة ومثيرة للفضول ومدهشة، لكن عندما رأى الثيجالا أن ملك فارس كان يزعج بعض أراضى السلطان التركى، جاء متشككًا من أن ناصف كان له اتفاقية مزدوجة معه، وهذه تعد إهانة عظمى لسيده التركى. ولهذا السبب، وأيضًا لأنهما كانا يتراسلان فيما بينهما من حدود فارس؛ حيث كان يعمل كحاكم، ولم يرد عليه أحد. رحل إلى القسطنطينية ووجد فى الطريق رجلاً يحمل بريدًا قد أرسله ناصف إلى الملك الفارسى، فدعاه لتناول العشاء فى تلك الليلة، وقدم له شرابًا جيدًا ، يجيدون صنعه؛ حيث لايراه محمد(*)، وبخفة روح نام ساعى البريد. سلب محمود ثيجالا منه الخطابات؛ حيث وجد من بينها ما كان يتمنى، واكتشفت الخيانة، فأمر بقتل ساعى البريد ودفنه فى دكانه نفسه، وعند وصوله إلى القسطنطينية، طلب الإذن من ناصف لكى يدخل؛ رفض ناصف إلا إذا أعطاه ثلاثمائة ألف من العملات الذهبية. الثيجالا، الذى

(*) كان بعض كتاب العصر الذهبى الإسبان يعتقدون أن محمدًا هو الإله الذى يعبده المسلمون. (المراجع)

كان متزوجًا من أخت السلطان التركى، والذى لم يصل إلى إتمام رغبته فى الزواج بسبب غيابه الطويل، أعطى أمرًا بأن تعلم هى بالمانع الذى بسببه لم يدخل؛ قررت فاطمة- إذا تصورتم أنها تسمى كذلك، لأننى لا أعرف اسمها- الذهاب لرؤية زوجها، الذى عرفت منه السبب الذى من أجله لم يدخل، وفى طريق عودتها إلى القسطنطينية أخبرت أخاها عن هذا السبب؛ فأرسل ليلاً وبسرية تامة فى طلب محمود ثيجالا، وعند وصوله فى قايق- إذا كنتم تتذكرون أننى قلت لكم أنه قارب صغير، لكن لا أسمح بأى كلمة تركية، كبعض الذين يعرفون قليلاً من اللغة اليونانية- دخل من خلال باب مزيف فى القصر، واستقبل استقبالاً حسنًا من جانب صهره، وحكى له كم كان يعرف وبيَّن له الخطابات. تمنى منذ ذلك الحين السلطان أحمد قتل صهره إحقاقًا للعدل لأنه اكتشف أنه كان يخفى بسوء نية شرًا كبيرًا، خمَّن ناصف السبب عن طريق ملامح الوجه، فغاب ثلاثة أيام عن المجلس معتذرًا عن هذا الغياب بسبب اعتلال صحته. بهذه المناسبة قال له السلطان التركى بأنه يحب أن يذهب لرؤية ابنته، وجهز الشارع بأقمشة من كل مكان فوق الرماح الطويلة، لكى لا يُرى، لأنه مجبر على أن يظهر أمام الناس فى يوم واحد من أيام الأسبوع، وذلك اليوم هو يوم الجمعة، وهو يوم عيد عندهم، وفيه يذهب إلى جامعه الكبير لكى يؤدى الصلاة. بهذه الخدعة من الأنسجة والأقمشة مرت سيارة، كان بداخلها البوستان خيباسى ومعه الكثير من الحرس، وهم رجال أشداء وأقوياء جدًا، وكان من المعتقد أن الذى بداخل السيارة هو

السلطان التركى، الذى كان ينتظره أكثر من أربعة آلاف شخص، دخل فى بيت ناصف المذكور، وطبقًا لدخوله كان الجنود يقومون بغلق الأبواب تباعًا بحرص وهدوء.

كان ناصف مع اثنين من الخصيان فى إحدى الغرف، وهو غافل عن قدره، فأخرجهما الرئيس، وقدم تحية بها كثير من التكريم والتعظيم لناصف، وأعطاه مرسومًا من السلطان التركى، يطلب منه فى هذا المرسوم خاتمه الملكى. فأعطاه له ناصف وهو مرتبك وقال: "هل جلالة الملك لديه رجل أكثر إخلاصًا ووفاء يمكن أن يخدمه فى هذا العمل؟" حينئذٍ أعطاه البوستان خيباسى ورقة أخرى، يطلب فيها رأسه. فصرخ ناصف قائلاً: "ما هذه الخيانة؟ ما هذا الحقد؟ مَنْ خدع سيدى العظيم، الذى خدمته بكل وفاء وإخلاص كواجب خدمته؟" لكن عندما رأى أنه لا جدوى من الهرب، ولا سلاح للدفاع عن حياته، عزم على الموت، طالبًا من البوستان أن يتركه يتحدث وأن يودع زوجته، التى كانت فى غرفة أخرى، ولعدم تمكنه من الحصول على ذلك، توسل إليه وهو راكع على ركبتيه أن يتركه لأداء الصلاة، لكى تذهب روحه؛ وهى مملوءة بالتفاهات كما كانت تعيش. وقد سمحوا له بذلك؛ حيث تصوروا أن الأمر يتعلق بالدين، مع أنه فقدان كبير للعقل؛ لكن، مع حزنه وارتباكه، لم يكن ممكنًا وحاول أن يشجع الطبيعة على أكبر

خصم لها، فلا أعرف كيف يفهم هنا ذلك العزاء لسينيكا[٥٧] في أول رسالة: "تخدع أنفسنا باعتبار أن الموت أكبر حدث، إذن فكل ما مضى من العمر قد أخذه الموت"؛ جلس في مقعده وأخضع إرادته للقوة، وروحه للقيمة والشجاعة والتغلب على الخوف، في محاولة للتفوق على الحزن. لكن إذا قال الفيلسوف نفسه إن الموت عن طيب خاطر كان أفضل طريقة للموت، كيف يستطيع مَنْ لا رغبة له في الموت أن تكون له رغبة طيبة، ولا يعزى نفسه بأنه قد مات ما عاشه! فكان البوستان والجنود ينظرون إليه، مملوءين بالدهشة والخوف، من ناصف الذى أدار وجهه بحزم وقال: "أيها السفلة، ماذا تنظرون! قوموا بعملكم". عندئذٍ تجاسر عليه أربعة منهم، ورموا حبلاً حول عنقه، وخنقوه. أغلق بعد ذلك البوستان الأبواب، ولفت انتباه السلطان التركى، فطلب منه الرأس، التى أحضرها معه، وأمره برميها على الأرض، فضربها بقدمه، وقال *بريكايين*، وتعنى خائن.

استولى السلطان التركى على ممتلكات ناصف، واحتفظ فقط بما كان موجودًا فى غرفة زوجته. وكانت أكبر ثروة ترى لرجل من

---

(٥٧) سينيكا الفيلسوف (٤ ق.م - ٥٦ م): وهو فيلسوف لاتينى. وهو ابن سينيكا العجوز وعضو فى مجلس الشيوخ أثناء حكم الملك كاليجولا، وكان معلم نيرون. وكان متورطًا فى مؤامرة بيسون وقطعت شرايين يده بأمر من الإمبراطور. وكان نموذجه المفضل الرواقى، الذى يعظم الكفاية الذاتية للإنسان ويضم كنموذج الرجل القوى القادر على التغلب على ذاته للوصول إلى هدوء النفس. وكان له تأثير كبير فى الفكر اللاحق له. من أعماله المحفوظة تبرز رسائله الفلسفية (حوارات؛ الرحمة)، وهى أعمال لها نبرة أخلاقية، بالإضافة إلى تسعة أعمال ماساوية.

الخاصة، إذ إنه بين الأسلحة وحدها وجدوا ألفًا ومـــائتى ســـيف لهـــا زخرفة من الفضة والذهب، وإذا تصورتم سيادتكم أنها مثل العمـــلات الذهبية فيمكنكم أن تحذفوا ما ترونه زائدًا؛ لإننى ليس لدى حساب فـــى هذا الصدد، ولا أتجرأ على القول بأنه كان فى خدمته فى القسطنطينية ثلاثين ألف رجل، وكان يطعم فى أماكن مختلفة سبعة آلاف وخمسمائة حصان، ولو ساعده هذا الكتمان أكثر مما تساعده الثروة، لكـــان ســـيد قارة آسيا. أصبحت فاطمة أرملة وثرية، ومع أن الكثيرين سعوا فـــى طلب الزواج منها، ومن بينهم أحد البشوات الكبار من الذين يحملـــون العمامة الخضراء، بدا للسلطان التركى أن يثير فكـــر فليـــساردو بـــأن يجعله صهرًا له، وأن يعطيه زوجة بهذا القدر من المهر. وأبلغ بهـــذا الفكر السلطانة، التى كانت متحيرة ومندهشة من رؤية الطريق الـــذى أخذته تعاستها، ولكى توقف رغبته، سعت فى منعه بأن تسيء الحديث عن فليساردو وتقول للسلطان التركى، أنها تراه رجـــلاً متكبـــرًا، ولا يتمنى السوء للوطن الذى ولد فيه، وأنها فى كثير من الأحيـــان لامتـــه وعنفته بسبب الميول التى أظهرها لملوك وسادة إسبانيا؛ حيـــث كـــان يتفاخر بأنه سيبقى هناك ذات مرة؛ وإن ناصف باشا كان قريبًا جدًا لـــه وولد فى وطنه نفسه، وتربى فى دينه وشريعته وتعلم عاداته وتقاليـــده، ومع هذا فقد كان خائنًا له، فليس من سبب أن يظن أن رجـــلاً أجنبيًـــا ودخيلاً قد يكون وفيًا ومخلصًا له، تربى فى دين آخر، وفى وطن آخر وفى عادات وتقاليد أخرى. أرضى هذا المنطق الأخير عقـــل أحمـــد،

وماطل فى الزواج، وأصاب عزمه ونيته البرود وأصبح يشك فى هــذا الحدث.

فى أثناء ذلك استعدت السلطانة للرحيل إلى إســبانيا، وأخــذت مجوهراتها بحرص شديد، وكانت فى غاية الحذر، حيث إنه فى الربيع التالى بلغ السلطان التركى بأن قلاقل تحدث فى الأرخبيل؛ لذلك خــرج فليساردو لتهدئة الوضع هناك؛ حيث انتشر الخبر بأن ستًا من الــسفن الشراعية الكبيرة تنتمى لمالطة كانت تسير هناك. كان لقصر الــسلطان التركى فرسخين من السياج، ومن جانب البحر الذى يطل على خلــق دنيا مدفعية كثيرة، ويطل الباب الرئيسى على الغرب، أمام كنيسة سانتا صوفيا، وعلى الجانب الأيمن من الباب مستشفى يــسمونه تيماريــا؛ لعلاج كل مرضى القصر، وعلى الجانب الأيــسر الكنيــسة القديمــة للمسيحيين، والتى تحمل اسم سان جورج؛ حيث توجد أســلحة الملــك. تابعوا حضرتكم الباب الثانى؛ حيث ينــزل هنــاك الــذين يحــضرون المجلس، ويطل هذا الباب على شارع مشهور يبلغ طوله ثلث فرسخ أو أقل قليلاً، ومن جانب الشمال يوجد باب؛ حيث تدخل وتخرج السلطانة العظيمة وكل نساء سراى السلطان. اثنوا هنا حضرتكم الصفحة.

بجوار الباب الثانى توجد حديقة وبستان له ألف شــجرة جميلــة وأيائل رائعة، وبجواره ميدان كبير مغطى؛ حيث يوجد عادة الحــرس الانكشارية، وحيث يأكلون فى هذا المكان أيام انعقــاد المجلــس؛ لأن الباقين يظلون فى الحراسة. يوجد أيضًا اثنا عــشر *كــابيغيس*، وهــم البوابون، على كل باب من الأبواب المذكورة، ومن جانــب منتــصف

اليوم توجد مطابخ الملك العظيم والأسرة المالكة فى القصر، ولكل البلاط فى يوم انعقاد المجلس. والعدد الذى يأكل كبير جدًا؛ لأن عدد الطباخين هو أربعمائة وخمسين رجل، شىء يعدونه ويكتبونه، وتستطيعون حضرتكم عدم الاعتقاد دون أن أقلل احترامى للقصة ولا لعظمة السلطان التركى. بعد كل هذا يمكن الوصول إلى الباب الكبير للبيت الملكى، الذى يحرسه عدد من الخصيان البيض؛ حيث لايستطيع أى شخص الدخول من خلاله دون إذن السلطان التركى، إذا لم يكن من العائلة، ولو كان رئيس الوزراء. من خلال الباب الذى نبهت سيادتكم عنه، خرجت- ياسيدة مرثيا- السلطانة العظيمة ومعها اثنان من المرتدِّين الذين تثق بهما، وخرجت فى ملابس جندى انكشارى، لأنها لو خرجت بشكل آخر لكان ذلك مستحيلاً. سارت نحو البحر وهى محفوفة بالمخاطر؛ حيث استقبلها بالهدوء نفسه والصمت فليساردو الشجاع، الذى ببسالة وجرأة أمر بنشر الأسطول، كما أمرهم بأن يستعدوا عند العودة من صقلية؛ لأنه حسب نيته كان يفكر فى القيام بعمل بطولى مشهور.

كان هذا الشاب شقيًا جدًا، مع أنه كان جديرًا بحظ أفضل؛ حيث إنه لم تكد تبدأ السفن فى البعد عن الشاطىء، وعند إبحار بارجة الأمير، عصفت السماء وضربت المياه والهواء بالمجاديف والأشرعة، وتغطت السماء على غفلة بسحابة شديدة السواد، وبدأت تدوى برعد مرعب ورهيب من جهات العالم الأربع، تزامن مع حدوث برق مخيف، فى كل واحد منه بدا كما لو كانت تأتى منه صواعق لا نهائية.

تضخم البحر، وانقلبت الأمواج، واشتبكت فيما بينها فى معركة مرعبة ومخيفة؛ حيث كانت الرغاوات تصل إلى عنان السماء؛ حيث خافت النجوم على نفسها من أن تنطفئ فى الماء فاختبأت.

ولم يكن فى استطاعته جمع الأشرعة، ولم تجد الشجاعة فى وسط هذا الجو المملوء بكثرة الارتباك والغموض فرصة للعلاج، ولم تصمد الخبرة أمام هذا الموقف. وأصر فليساردو على أن يواصلوا السفر، لدرجة إخراج السيف، ولكنه لم يحظ بالطاعة بسبب إرادة السماء، إذ إنه عند بزوغ الفجر ضربت الرياح بارجته والسفن الأخرى بالميناء. أراد أن يمضى اليوم محتميًا بمعطفه، على أن يخفى السيدة ماريا فى غرفة بالمؤخرة، لكن بما أن غيابها قد عُرف من جانب بعض اليونانيات والتركيات اللاتى كن فى خدمتها، فقدقمن بالصراخ المتواصل، مما أثار دهشة الجنود الانكشاريين، الذين أبلغوا قائدهم، وقد أبلغ هو محمود باشا، الذى علم منه السلطان التركى، الذى ظن فيما بعد بإحساس واضح بالألم أنها قد قتلت بسبب الحقد على يد نساء أخريات أو صديقات لها؛ لكن تفكيره أخذ يجرى بين أشياء وأشياء أخرى، كما قال سينيكا: "يحدث بسهولة التحول لهؤلاء الذين يملكون روح الشك"، أخذ يفكر أيضًا فى أن فليساردو رحل فى الليلة نفسها، عندما قالت عنه السلطانة أشياء كثيرة سيئة، معللاً بالشيء نفسه أنها كانت تحبه كثيرًا؛ إما لأنه امر عادى جدًا بالنسبة للنساء، أو لكى يخفيا ما كانا يريدان أو لكى يخدعا الآخرين؛ وبهذه التخيلات أمر بوستان باشا بأن يذهب مع مائة من الحرس ومع بعض الجنود الانكشاريين

نحو السفن، وهو يعلم بأن العاصفة قد أعادتهم إلى الميناء وهم في حالة ضياع تام؛ حيث كان من المستحيل أن تعود السفن إلى المياه والإبحار دون إعادة ترميمها وتجهيزها. ولم يرهم فليساردو، وعندما علم بالخطر، قرر الموت كفارس، وليس بمختلف ألوان العذاب على يد سياف حقير شائن. أراد الباشا أخذه حيًا، لكنه لم يترك نفسه للإمساك به، وقاوم مقاومة شديدة عند مسند البارجة، وفرش الممر بأجساد الموتى بسيف واحد عريض كان يحمله ودرع مدوَّر منتفخ. عندما رأى بوستان أنه قد يكون من المستحيل حمله كما كان يتمنى، أمر الجنود الانكشاريين بأن يقتلوه، وفي التّو سقط صريعًا على يد أربعة منهم، مع أنها لم تكن رغبة أي واحد منهم، لأنه كان محبوبًا جدًا من أولئك البربر. يقولون إنه تحدث قليلاً قبل مصرعه: "أيها الأتراك، كونوا شهودًا على أنني أموت مسيحيًا، ولم أسئ إلى السلطان العظيم إلا في أخذي السيدة ماريًّا إلى حيث كانت". بهذا قطع الباشا رأسه ليحملها إلى السلطان التركي، ووجد السلطانة، التي كانت مغطاة بالدموع، وشهدت شجاعة وتعاسة ذلك الفتى المأساوي.

كانت سعادة بوستان كبيرة جدًا، واخذ يعزيها، ثم استطاع بكل أدب أن يحملها إلى القصر. لم يرغب السلطان التركي في رؤيتها لمدة أربعة أيام، لكن هزمه الحب الكبير الذي كان يشعر به تجاهها، فقرر العفو عنها؛ لأن الغضب إذا تخلل حياة المحبين، كما كان يشعر به

مضيف بلاوتو[٥٨]، فإن المحبين يعودون أكثـر صـداقة واسـتلطاف. استطاعت السلطانة أن تعتذر عن خطئها جيدًا بحجة الرغبة فقط فـي رؤية وطنها وأبويها، وبما أن التصريح لها بذلك كان مـستحيلاً، فلـم تستطع محاولة رؤيتهم بطريقة أخرى، وصدقها أيضًا السلطان التركى الغيور؛ لأنه كان يرغب فى تقليل حدة غضبها؛ وهذا شيء لا يُـسمح به، فالرجال الغاضبون لا يريدون للنساء أن يغضبن.

وبهذه المناسبة أتذكر أننى قرأت فى مسرحية برتغالية أن رجلاً عجوزًا تناول مع صديق له موضوع تزويج ابن له، وقال له الآخـر: "لا تفعلوا هذا به، لأنه يعشق فتاة من البلاط الملكى"، فأجابه العجـوز: "أعرف هذا، فإذا كنت أحاول تزويجه، فإن هذا لأنهمـا قـد تـشاجرا ووقعت بينهما الغيرة، وهذه تعتبر فرصة طيبة لإبعاده عنها". فرد عليه الصديق: "يا لقلة ما تعرفون عن ما تستطيعه رغبة قديمة قائمة علـى المعاملة! فهذه هى الساعة التى يسعى فيها ابنك للبحث عن عذر يقبلـه من تلك المرأة حتى يعفو عن الإهانه نفسها التى فعلتها له". كانت هـذه هى نهاية فليساردو، وهذه هى التعاسة من أجل الكرامة، وهكذا ظـل فكره أضحوكة، وظلت سيلبيا تربى ذلك الطفل التعيس الذى كان هـو والده، فإذا كبر، كما يحدث فى المسرحيات، فإن سيادتكم ستحـصلون

---

(٥٨) بلاوتو: (٢٥٤ ق.م- ١٨٤ ق.م). شاعر كوميدى لاتينى. من المائة وثلاثين عمل التى نسبت إليه، نعرف لبارون واحدًا وعشرين عملاً حقيقيًا أشهرها هي: *المضيف*، و*الجندى المتبجح*، وغيرها. محتواها مأخوذ من المؤلفين اليونانيين للمسرح الجديد (ميناندرو).

على الجزء الثانى من هذا العمل. وفى أثناء ذلك، اقرأوا تلك الكتابة المنقوشة على قبره فى مدح تعاسته:

هنا يرقد رجل شقى،

ولد من ذاته،

عاش مجهولاً

ومات بسبب سوء الظن.

خدعه شرفه

مع أنه بلا ذنب،

ترك الشمس، وبحث عن القمر؛

حيث يتضح أن الشجاعة

من شدة الكرامة تريد

مقاومة القدر.

انتقام عاقل

أعد حضرتكم بالالتزام بالكتابة فى الموضوع، إذ إننى لا أعرف كيف يمكننى أن أوفق فى خدمتكم، فكما أن لكل كاتب عبقريته الخاصة، التى يجتهد فيها، فعبقريتى لا تكمن فى كتابة القصص، ولو أنها تبدو كذلك للكثيرين. فالعبقرية- إذا كنتم لا تعرفون، فلستم مجبرين على معرفة ذلك- هى تلك الميول القوية التى تقودنا إلى أشياء دون أخرى؛ وهكذا، فإحباط العبقرية هو إنكار الطبيعة لما تشتهيه كما شعر بذلك الشاعر الهجائى؛ حيث وضع فى اعتباره كل ما هو قديم، لأن منه يُعرف إذا كنا نصنع أى شىء بإرادة أم بدونها. وهذا دون أن نخضع أنفسنا لرأى أفلاطون مع سقراط، ورأى بلوتارخ مع بروتو(٥٩)، ورأى فرجيل، الذى اعتقد أن كل الأماكن لها عبقريتها، عندما قال:

هكذا تحدثت بعد ذلك

- وقد وضعوا غصنًا أخضر

على جباه العباقرة

---

(٥٩) بروتو: ماركو خونيو بروتو، (٨٥-٤٢ ق.م.): سياسى رومانى، اشترك مع كاسيو فى المؤامرة التى انتهت بموت يوليوس قيصر (فى مارس عام ٤٤). انتحر بعد هزيمته من مارك أنطونيو وأكتافيو فى فيليبوكا.

وعلى جبهة تيلوس-

وأخذ يتوسل بخضوع

إلى جنيات البحر وإلى الأنهار.

أنبه أولاً إلى أننى لا أخدم حضرتكم دون أن يروق لى هذا، غير أنها دراسة مختلفة لميولى الطبيعية، وخاصة فى هذه الرواية، التى يلزمنى أن أكون مأساويًا فيها بالقوة. شىء مخالف جدًا لمن كان قريبًا- مثلى- من الإله جوبيتر(٦٠)؛ لكن، ما يُصنع عن طيب خاطر بناء على رغبة خاصة فإن درجة استحقاقه أقل من الذى يُصنع بالإكراه، التزموا حضرتكم أكثر بالشكر، واصغوا لحكاية قلة سعادة سيدة متزوجة فى زمن هادئ؛ حيث وضعها الرب فى مكانة تجعلها لا تخاف، عندما تتعرض لظروف تجبرها على مواجهة الأخطار.

فى إشبيلية الغنية، مدينة لا تختلف عن مدينة طيبة(٦١) العظيمة، التى تستحق هذا الاسم لأن بها مائة باب، دخل ومازال يدخل من باب يقع فى أحد جدرانها أكبر كنز أثبت التاريخ الإنسانى أن العالم كان يمتلكه: إنه ليساردو، فارس شاب، حسن المولد، متناسب القوام، بارع ومحبوب بشكل جيد، ومع كل هذه الميزات وكل ما تركه له والده، الذى كان يعمل بلا راحة، كما لو كان سيحمل بعد الموت إلى الحياة

---

(٦٠) الإله جوبيتر : كبير آلهة الرومان، وكان إله السماء والنور، والصواعق والرعد، وهو مانح الخيرات الأرضية، وحامى مدن وقرى روما.

(٦١) يقصد لوبى دى بيغا بمدينة طيبة مدينة الأقصر الحالية بصعيد مصر.

الأخرى كل ما اكتسبه فى هذه الحياة. كان يعمل، وكان يحب من كل قلبه لاورا، امرأة مشهورة بسبب شرف وثراء عائلتها، وبسبب أملاكها وبسبب أشياء أخرى كثيرة منحتها لها الطبيعة، التى يبدو أنها جعلتها على هذه الهيئة بعد دراسة. كانت لاورا تخرج فى الأعياد إلى القداس برفقة أمها، وتنزل من السيارة برشاقة كبيرة وجمال فائق، فلم يكن ليساردو فقط، الذى كان ينتظرها عند باب الكنيسة، كمسكين يطلب بعينيه إحساناً من الثراء الكبير الذى تملكه، ولكن كم ممن ينظرون إليها بالصدفة أو بالقصد، كانت تسلبهم الروح. مضى ليساردو فى هذا الجبن العاطفى عامين، دون أن يجرؤ على المزيد من التجاسر سوى أن يجعل من عينيه لساناً، ومن النظرة الحانية الرقيقة مترجمًا لقلبه وإعلاناً لرغباته. فى نهاية هذين العامين، وذات يوم سعيد شاهد خروج أطعمة معَّدة من بيتها وسط كثير من الضوضاء والغبطة التى أحدثها بعض العبيد، وعندما سأل أحدهم، وكان يعرفه جيدًا، عن السبب، أبلغه بأن لاورا ووالديها سيذهبون إلى البستان؛ حيث سيقضون اليوم هناك حتى المساء. هذه البساتين الجميلة تقع فى إشبيلية على ضفاف نهر غوادا الكبير، فهو نهر من ذهب، لا يوجد فى رمال الصحراء، التى كان القدماء يقدمونها إلى هرمو، وبكتولوو وتاخو، التى كان يرسمها كلاوديانو[٦٢] فى أشعاره :

(٦٢) كلاوديانو: ولد فى الإسكندرية، بمصر عام ٣٧٠، وتوفى بروما عام ٤٠٤، وهو شاعر لاتينى. كان من أواخر الممثلين للشعر اللاتينى.

لن يملأها بالرمال الإسبانية،

تيار نهر التاخو الصافى،

ولا المياه الذهبية للبكتولو

حتى لو انتهى هيرمو

الذى يحترق من شدة العطش؛

بل فيه وعن طريقه تدخل الكثير من الزهور الغنية، المملوءة بالفضة والذهب من العالم الجديد. عندما علم ليساردو بالمكان، أجَّر مركبًا، وسبقهم فى سفرهم بصحبة اثنين من الخدم واحتل مكانًا مستترًا جدًا فى البستان. وصلت لاورا مع والديها، وكانت تعتقد أن الأشجار وحدها هى التى تراها، فى التنورة القصيرة المغطاة بالذهب، والحزام المطرز، فبدأت تجرى بين الأشجار، على الطريقة التى تعودت عليها الفتيات فى اليوم الذى يُسمح فيه بترك المنزل والذهاب إلى الحقل. ستتعرضون حضرتكم فى هذا الثوب للوقوع بسهولة، فإذا لم أكن متوهمًا، فقد رأيت سيادتكم فى هذا الثوب ذات يوم فى غفلة تامة منكم مثل لاورا، ولكنكم لستم بأقل جمالاً منها. وبهذا فإننى واثق من أن القصة لن تضايقكم، لأنه كما يسمون مدعين العلم عباقرة، والشجعان قياصرة، والأحرار إسكندريين والسادة أبطالاً، فلا توجد مجاملة للنساء مثل وصفهن بالحسناوات؛ حسن فحقيقى أن اللاتى هن جميلات بالفعل، تكون المجاملة معهن أقل؛ ولكن إذا لم تقل لهن ذلك، ففى كثير من الأحيان سيعتقدن أنهن لسن جميلات، وقد يكنَّ مدينات للمرآة أكثر من

عبارات المجاملة. إذن، كان ليساردو يتأمل لاورا، وقد أطالت هي كثيرًا في الجرى في كل المدقات، وبالقرب من المكان الذى كان هو فيه أوقفها نهر صغير، كما تقول الأشعار، كان يهمس أو كان يضحك، خاصة لتلك البداية:

يذهب الجدول الصغير ضاحكًا؛

وتبدو حصواته كالأسنان،

لأنه رأى الأقدام الحافية

للربيع السعيد.

ولم أقل هذا لحضرتكم دون سبب، لأنه من الضرورى أنه كان يضحك لرؤية قدمى لاورا، وهى فى ربيع رائع، فهى مدعُوة من المياه الشفافة وأكوام الرمال، التى تكونت عندها بعض الجزر الصغيرة، وكانت تتصارع فيما بينها؛ فخلعت حذاءها وغسلت قدميها. استغرق ذلك بعض الوقت، وبدت فى النهير كغصن من السوسن الموضوع فى زجاج. ذهبت لاورا، التى كانت تبدو حقًا كلمة لها معنى، مثلما نقول: "هنا كانت طروادة". استقبلها والديها بحرص، إذ إنهما شعرا بطول غيابها. هكذا كان حبهما لها كبيرًا، وأحس بهذا الحب الكاتب المأساوى:

بأى رباط وثيق

من الدم، أيتها الطبيعة القوية،

تمسكين بالأب!

قدموا لها آلاف الهدايا، مع أن كريميس كانـــت تتـشاجر مــــع مينيديمو، فلم يحب تيرينثيو[٦٣] أن يظهر الآباء حبهم للأولاد. فى هــذا الوسط نبَّه خادم ليساردو فينيسا، التى كانت خادمة لاورا، بـــأن ســيده هناك. كان هذان الخادمان ينظر كل منهما للآخر بحرية؛ لأن شـــرفهم أقل، وقد لفت نظرها إلى أنه وسيده قد أتيا بلا أى الطعام، لأن ليساردو كان يستمد غذاءه فقط من عينى لاورا، فالخـــدم يخفـــون احتياجـــاتهم الطبيعة أقل من الرجال النبلاء، الذين يعانون منها بتعقل كبير. قالـــت فينيسا هذا الكلام للاورا، التى توهجت من الخجـــل كـــالزهرة النقيـــة، وتغيَّر دمها؛ لأن من استمرار نظر ليساردو إليها كان يجب عليهـــا أن تهدئ من روحها محتمية بالشرف، وأن تحتمى من الرغبـــة بإعمـــال العقل، وبعيدًا عن أمها قالت لها: "لا تقولى لى هذا الكلام مرة أخرى". صدَّقت فينيسا صرامة وجه سيدتها؛ واعتقدت فى اقتـــضاب الكلمـــات؛ منتبهون حضرتكم إلى أنها تريد ما هو مختصر؛ لأن أهل إســـبرطة لا يحبون الكلام المسهب؛ اعتقد أنه إذا وصلوا إلى هذا العـــصر فسيـــسقطون موتى. زارنى ذات يوم رجل شريف النسب، وأجبرنى على سماع مآثر أبيه فى إسبانيا الجديدة أكثر من ثلاث ساعات، وعندما فكرت أنه كان ينوى أن أكتب له كتابًا عن أبيه، طلب منى صدقة. فى النهاية، صدَّقت

---

(٦٣) تيرينثيو (١٨٥-١٥٩ق.م): كاتب مسرحى لاتينى. وعضو فى مجمع إميليانو؛ ألف ست مسرحيات، كان يحاكى فيها ميناندرو، وكانت كتاباته المسرحية تعتمد على التحليل النفسى.

فينيسا لاورا، وهذا يبدو كأنه بداية علاقة فى مسرحية، ولأن الخادمة كانت تعلم بتحفظ سيدتها، لم تعد تقول لها شيئًا آخر؛ لكن لاورا عندما رأت أنها منقادة لما كانت تريد، قالت لها على انفراد: "كيف تجرأ ذلك الرجل، على أن يأتى إلى هذا البستان، وهو يعلم بأن والدىّ لا يستطيعان الغياب عن هنا؟" فأجابتها فينيسا: "لأنه يحبك منذ عامين"، فقالت لاورا: "منذ عامين؟ لابد أن يكون مجنونًا"، فردت عليها الخادمة: "لا يبدو ليساردو مجنونًا، لأن هذا الاتزان، وهذا التعقل، وهذا التواضع فى هذا السن الصغير، لم أجدهم فى رجل مثله". فقالت لاورا: "من ماذا تعرفيه؟"، فأجابت فينيسا" من الشىء نفسه الذى تعرفينه أنت". فواصلت الفتاة العاشقة "إذن، انظرى إلى نفسك"، فردت الخادمة الماكرة "لا ياسيدتى؛ فأنت وحدك فى إشبيلية تستحقين الحب المجنون الذى يعبدك به". فقالت لاورا ضاحكة: "أهو يعبدنى؟، مَنْ علمك هذه اللغة؟ فهل لا يكفى أنه يحبنى؟"، فردت فينيسا " سيكفى على الأقل، وأنت لا تتجاوبين مع هذا الحب الكبير، مع أن حبك له كبير أيضًا ، وستكون سعادة كبيرة جدًا أن تتزوجا" فقالت لاورا: "يجب ألا أتزوج، لأننى أحب أن أكون راهبة". فأجابت فينيسا: "هذا لا يجب أن يكون، لأنك وحيدة أبويك، وسترثين خمسة آلاف من المسكوكات الذهبية، ومهرك يعادل ستين ألفا، بل أكثر من عشرين ألفًا تركتها لك جدتك" حينئذ قالت لاورا: "انظرى فإننى أنبهك، ألا يخطر ببالك أن تحدثينى عن ليساردو مرة أخرى، فليساردو سيجد من يستحق ذلك الحب الذى تتحدثين عنه، فأنا لا أشعر بالميل نحوه ، على الرغم من أنه يتطلع لى

منذ عامين". فردت فينيسا "سأفعل هذا، يا سيدتى، لكن تكرار اسم ليساردو على لسانك يجعلنى أتصور أنه فى قلبك".

جاء وقت الغذاء، ووضعوا الموائد، لكى تعرفوا حضرتكم أن هذه القصة ليست كتابًا عن الرعاة، بل يجب أن يتناولوا الغداء والعشاء فى كل المرات التى تتاح فيها الفرصة، فى هذا الوقت قالت لاورا لفينيسا: "يافينيسا، خسارة أن ذلك الشاب لن يأكل بسببى". فأجابت الخادمة: "ألم تقولى لى ألا أتحدث عنه". فردت لاورا: "حقا هكذا، وأنا لا أتحدث عنه، بل عن أن يأكل. أبذلى ما فى وسعك بحيث يعطيك طباخنا شيئًا تقدميه له، ثم أعطه لخادمه كما لو كان هذا منك". قالت فينيسا: "إن ذلك يسعدنى، كى أستحق شيئًا، كمنْ يحمل للمسكين الحسنة التى يعطيها آخر، لكى تكون الرحمة لكِ والاجتهاد لى".

هكذا فعلت فينيسا، وأخذت ديكًا سمينًا وحجلين(*)، مع بعض الفواكه وخبزًا أبيض، مما هو متوافر فى إشبيلية، حملته إلى المذكور، وقالت له: "حسنًا يستطيع ليساردو أن يأكل هذا الطعام بشهية، لأن لاورا هى التى أرسلته له". بهذه الطريقة أخذه هذا الشاب، وهو شاكر جدًا للمعروف الكبير، لدرجة أن الخدم قد يئسوا، وتجاسروا عليه بالقول: "إذا كنت حضرتك تأكل هكذا، ما الذى سيبقى لنا؟" فرد ليساردو: "لستم جديرين بمعروف لاورا، فإذا بقى شىء، سأحتفظ به للعشاء". هذه قسوة تبدو لسيادتكم من ليساردو، مع اننى لا أعرف إذا كنتم

(*) الحجل طائر يؤكل لحمه. (المراجع)

ستردون: "لا يبدو لى سوى الجوع"؛ وصحيح أن حضرتكم على حق إذا كنتم لا تعرفون ما يأكله رجل عاشق سعيد الحظ فى تلك الساعات؛ لكن، لكى لا تعتبروه سيادتكم رجلاً فظ، فلتعلموا أنه قد أعطاهم عملتين ذهبيتين من فئة الأربعة، فقد كانوا فى الزمن الذى تُتداول فيه هذه العملات، لكي يذهب كل واحد منهم إلى إشبيلية من أجل شراء ما يشتهيه؛ وهو ما لم يفعلوه، وقسموا النقود فيما بينهم، وظلوا يسيرون فى هذا البستان حتى وصلوا إلى بيت لاورا؛ حيث زودتهم الخادمات بكل ما هو ضرورى. شىء من هذا القبيل رأته لاورا وقد قُبل بسرور كبير منها، وغير مخفى على والديها، اللذين أرادا أن يعرفا منْ يكون هؤلاء الرجال، فسألوهم فأجابوا بأنهم موسيقيون. أحب الوالدان إدخال السرور على لاورا، فأذن لهم الأب بالدخول؛ لكى يستمتع الجميع إلى أقصى درجة، وأحضروا آلة موسيقية، من الواضح أنها كانت فى البستان أو أحضرتها خادمات لاورا، اللاتى كن يرغبن فى الرقص، وبأصوات مرتفعة وعالية جدًا تغنى كل من فابيو وأنتندرو ما يلى:

بين نهرين هادئين،

من ثلج أبيض

حوّلتهما الشمس إلى مياه

بتوسل من وادى أخضر،

تائه وتعيس الحظ،

كمن يحب،

ويجبر بالإساءة،

وليس بالمعروف؛

كان سيلبيو ينظر خجلانًا

إلى تيار الماء السريع،

الذى يضحك ساخرًا من ألمه.

وكما يحدث النغم عند اصطدام الماء بالصخر،

قال للزجاج الخشن

بصوت باكٍ:

"كما لا تعرفون الغيرة

ولا ولع الغرام،

فلتضحكى أيتها الأنهار

عندما ترين كيف أبكى أنا.

فإذا كان عشق الأحجار سببًا

فى الجفاف والحر،

فخيرًا يفعل الماء بالضحك،

لأنه بارد لا يعرف الحب.

الشيء نفسه يحدث لفيليس،

التي بالقوة نفسها

لأنها من ثلج أكثر جمودًا

من الأنهار.

هم يولدون بين سلاسل الجبال،

وولدت هي بين الصخور،

فلا تلين

إلا للضحك.

كعقاب لسخريتها

سأنتقم بشكل أحمق،

فهذان النهران سيشاهدان

في عيوني نهرين آخرين.

دموع تنتقم

وضعف واضح؛

لكنها يجب أن تكون من الغضب

لأنه من المستحيل أن تكون من الحب.

لا يحزننى أن أحب

إنسانًا بهذه القيمة،

لا يكاد يصل

إلى سموِّه الخيال.

ما يحزننى هو أن تعرف هى

أننى أحبها حبًا كبيرًا؛

لأن من يشعر بالرضا

دائمًا يعيش حرًا.

ولهذا أقول للمياه

التى تجرى اليوم باسمة،

وتنقل بضحكتها

اللآلئ والأمل:

بما أنك لا تعرفين الغيرة

ولا الغرام،

فلتضحكى أيتها الأنهار.

عندما ترين كيف أبكى أنا.

كانت لاورا متحيرة بينما كان كل من فابيو وأنتندرو يغنيان هذه الأبيات، التى ربما قد وضعت من أجلها، ولو أنها كانت تتناسب فى كل شىء مع فكر ليساردو، من حيث الشكوى من الغيرة، فبينت لهما أنها كانت تختلف كثيرًا عن مستوى شرفه، ومع هذا فلم يبدأ الشك عندها؛ لأن العاشقين دون أن يكون هناك سبب للغيرة، يشعرون بها، ولا يحتاجون لمناسبة لكى يشكون، على طريقة الأطفال، الذين يعتادون الغضب مما يفعلونه هم أنفسهم. طلب والدا لاورا من فابيو بألا يتعب بسرعة، فأنشد هو وأنتندرو فى نغم الموسيقى الوحيد لخوان بلاس دى كاسترو، هكذا:

يا قلبى، أين كنت،

فقد أفسدت ليلتى؟

أين كنت، ياقلبى؟

فلم تكن معى؟

لكونى صديقًا حميمًا لك ،

أتذهب إلى حيث هم غائبون؟

فإذا كانت تلك المناسبة اللطيفة

التى أمسكت بك هكذا،

فماذا قلت لها عنى،

وعنك ماذا قلت لها،

فقد أفسدت ليلتى؟

أيها القلب، من الممكن خداع العين،

إذ إن ما تراه العين فى النهار،

ستراه أنت فى الليل

عيناى تعودت أن تضعنى

فى سعادة،

لكن أنت تدعونى إلى التذكر

لا أعرف أين كنت؟

فقد أفسدت ليلتى.

أيها القلب، تسير حرًا طليقًا،

بينما أنا أسيرك،

إذ إنك تذهب عندما تشاء،

لأننى أحب أن تذهب؛

فهناك ستعيش وهناك ستبقى،

فلا يبدو أنك قلبى،

إذا فكرت أننى أرسلتك،

ما هى الآمال التى أعطيتنى إياها؟

فقد أفسدت ليلتى.

هكذا ظلت الآلات الموسيقية تعزف مع صدى توافق الأنغام، مع إننى أتذكر، أنها لم تكن أكثر من آلة واحدة، عندما سألت لاورا فابيو مَنْ هو كاتب تلك الأبيات الشعرية؟، فأجابها فابيو بأنه فارس، يدعى ليساردو، شاب عنده أربعة وعشرين عامًا، وهو الذى يقومون على خدمته. قالت لاورا: "على فكرة، له عقل رصين". فقال أنتندرو "نعم له عقل رصين، ويصاحب ذلك رشاقة القوام، وجمال الشكل، لكن على وجه الخصوص فهو صاحب فضائل كبيرة وعفة". فقال والد لاورا: "هل له أب؟" فأجاب فابيو "لا ياسيدى، فقد مات ألبيرتو دى سيلبا الذى تعرفتم عليه حضرتكم فى هذه المدينة". فقال العجوز "نعم عرفته، وكان صديقًا حميمًا لى ومن الرجال الأغنياء فى هذه المدينة، وأتذكر هذا الشاب ابنه، عندما كان طفلاً وبدأ فى دراسة قواعد اللغة، ويسعدنى أنه يشبه أباه جدًا. ألا يحاول الزواج الآن؟" فقال أنتندرو "نعم يحاول، ويتمنى ذلك إلى درجة قصوى، من فتاة جميلة تعادل ما يملك من فضائل واستحقاقات، ومؤهلات طبيعية، وأملاكه من الميراث". وبهذا أمر مينندرو – هكذا كان اسم والد لاورا – بتقديم الهدايا لهم وقد

ودعوه، ثم حكوا وهم بين الأشجار لليساردو كل ما حدث لهم؛ حيث كان ينتظرهم وهو يائس.

ظلت لاورا حريصة، مملوءة بالخوف والترقب، فهكذا يُعرّف أوفيد الحب، لأنها تخيلت أن تلك الفتاة التى يريد الزواج منها ليساردو كانت فتاة أخرى، وأن الرقة كانت مصطنعة، فلم تعرف أن أنتندرو قال ذلك لكى تفهم لاورا رغبته: هكذا يكون الحب جبانًا قد يؤذى نفسه. لم تستطع أن تفرح كثيرًا، وتعجلت والديها بحجة أنها لم تشعر بأنها فى حالة جيدة، فعادوا إلى إشبيلية. نامت بشكل سيئ فى تلك الليلة، وأحزنها فى اليوم التالى ذلك التفكير، الذى انتهى بها إلى أن تكتب إليه. أحكموا حضرتكم على هذه السيدة هل هى حكيمة، إذ إننى لم أضع نفسى قط فى موقف تصحيح أخطاء من يحب. محت عشرين ورقة، وأعطت أسوأ وآخر ورقة لفينيسا، التى فى دهشة، ويمكن أن نسميها رعبًا، حملتها إلى ليساردو، الذى كان فى هذه اللحظة على وشك صعود الحصان كى يتنزه فى شارعه. سمع الرسالة بالكلمة؛ وهو تقريبًا فى غاية الذهول، وأخذها من يدها إلى حديقة صغيرة أمام الباب الرئيسى لمنزله وكانت تسمح برؤية بعض أشجار البرتقال، وعانقها عناقًا كبيرًا، وأخذ الورقة بحرص شديد كما لو كان بها سُم، وفتح ختام المكتوب، وحفظ الغلاف، وقرأ هكذا:

"السنوات التى أجبرتمونى حضرتكم على التعرف عليكم يبدو أنها تجبرنى بأدب على أن أقدم لحضرتكم التهنئة بزواجكم، الذى تحدث عنه الخدم لوالدى، وخاصةً أنه موفق جدًا، مع سيدة جميلة

وثرية جدًا؛ لكن أرجو سيادتكم بألا تعلم هى باجترائى هـذا، حتـى لا ترانى كحاقدة، ولا حاجة لحضرتكم بأن تفخروا بمجاملتى لكـم كـى تثبتوا كفاءتكم، فلن تكون هذه السيدة متواضعة جدًا، لكى تعتقد بأن مـا تستحقه هى يساوى هذا التقدير العام من الآخريات".

وبضحكة رقيقة، ارتسمت فى العينين أكثـر مـن الفـم، ثنـى ليساردو الورقة، وعن طريق ما حكاه أنتندرو، علم بخدعـة لاورا، أو ما تذرعت به من تلك الحيلة لتثير تحديه على استخدام الحبر والقلـم، لأن تحديات الحب هى الشيء نفسه بالنسبة للتحدى بالسيف والعبـاءة. حمل فينيسا إلى غرفة غريبة، مزينة بشكل جيد بالمكاتـب، والكتـب والألوان؛ حيث أمرها أن تتسلى بينما يكتب هو. وركزت فينيسا بعينيها فى لوحة للاورا، رسمها فنان ممتاز بسرعة عندما رآهـا فقـط فـى قداس؛ وكتب ليساردو متظاهرًا بأنه على عجلة من أمـره ومـستخدمًا روح الدعابة، ثم أغلق الورقة، وفتح المكتب، وأعطى مائـة إسـكودو لفينيسا، وهو ما جعلها تفتح له قلبها. ذهبت الخادمة، وعاد ليساردو إلى قراءة خطاب لاورا مرتين آخريين، ثم وضع عليه الغلاف، ثم وضعه فى درج فى المكتب، الذى كان به مجوهراته. وصلت فينيسا إلى حيث كانت لاورا تنتظر الإجابة بقلق واضح. أعطتها الورقة، وحكـت لهـا عن السرور الذى استقبلها به، ونظافة الغرفة وزينتها، واتساع بيتـه. هنا سقطت منها المائة إسكودو، وقد فعلت سوءًا، لأن ذلك أيضًا يتعلق بمَنْ تحب وتتمنى أن تكون محبوبة؛ لكن أسوأ ما كان يمكن أن يحدث هو أن تحكى نصف الأحداث كما يفعل الكثيرون من الخدم، فى إساءة

خطيرة لكرم العاشقين. فتحت لاورا الورقة بسرعة، لكن بإحساس كبير بسبب المغامرة، وقرأت ما يلى:

"السيدة التى أخدمها، بمطلق حريتى، والتى أتمنى الزواج بهـا، هى حضرتكم، وهو نفسه ما قاله أنتدرو لكى يُفهم هذا المعنى. بهـذا الرضا تستطيعون حضرتكم أن تحسدوا أنفسكم، إذا كنت أنا أستحق ما يقال لتكريمى، فليس لى ولن يكون لى مالك آخر غيركم ما دمتُ حيًا".

عندما أصل أنا للتفكير فى مسألة من أين يبدأ اثنان من العـشاق مقدمة قصتهم، يبدو لى الحب هو أعظم عمل للطبيعة، وفـى هـذا لا أخدع نفسى، إذ حقًا تعرف كل الفلسفات أن من الحب تتكون الأجيـال ومنه يتم الحفاظ على كل الأشياء، وفى وحدته تعيش، طبقًـا للحكمـة التى تقول إن كل الأشياء تصنع على طريقة الشد والجذب، وإن الشىء الذى يفرق بين اثنين، يربط بينهما، وهكذا نرى أن العناصر التى هـى أكثر اختلافًا، هى التى تربط بين بعض الأشياء. تتناسب النار والهواء فى الحر؛ لأن النار تكثف الحرارة والهواء يجعلها معتدلة، وتتناسـب النار والأرض فيما هو جاف، والهواء والماء فيما هو رطب، والمـاء والأرض فيما هو بارد، ومن توافقهما تتولد قوة الحـب، وإلـى هـذا المثال، أشياء أخرى خاصة بالنسل وفساد الطبيعـة. لكـن سـتقولون حضرتكم: ما علاقة عناصر ومبـادئ تولـد الحـب مـع الخـواص الأساسية؟ حقا تعرفون حضرتكم أن مصنعنا الإنسانى أصله من الحب، وانسجامه وتوافقه يتغذى ويتولد من هذا الشعور، فالحب كمـا يـشعر الفيلسوف، هو الأصل الأول لكل العواطف الطبيعية.

بناء جيد، إذن، يقيمه الحب عن طريق هذا الحجر الأول لورقة كتبتها بلا تعقل هذه الفتاة إلى شاب يافع جدًا، لم تكن لديه أية خبرة فى شىء آخر منذ مولده. مَنْ رأى بناء صلبًا فوق الورق؟ ولا ما هى الاستمرارية التى يمكن انتظارها من الرغبة المندفعة لهذين العاشقين، الذين منذ ذلك اليوم تبادلا الرسائل والحوارات، مع أنها بشكل عفيف، منصبة على الزواج العادل؟ وأظن بلا شك أن ليساردو إذا طلب الزواج فيما بعد من لاورا لسعد بذلك منيندرو، لكن أولاً رغبة كل واحد هى غزو إرادة الآخر، أو على الأقل التأكد منها، ثم إن المماطلة جلبت العديد من الحوادث، كما يحدث عادة فى كل الأشياء؛ حيث يتم التنفيذ بعد الاتفاق الناضج، كما جرب ذلك سالوستيو[٦٤]. كان لليساردو صديق، منذ حداثة سنه كان يشبهه خلقًا ومالاً، وكان يدعى أوكتابيو، ينحدر من أصول بعض الفرسان فى جنوة؛ حيث كانوا يعيشون فى تلك المدينة، والذين خان البحر ثقتهم فدمَّر ما خاطروا به. أحب أوكتابيو بإفراط إحدى نساء البلاط الملكى التى كانت تعيش فى المدينة. كانت متحررةً جدًا وقليلة الحياء، وبسبب جرأتها وذكائها كانت معروفة لدى الجميع. ساير أوكتابيو المسكين جنونه بعمل كبير نابع من روحه وبضرر ليس بالقليل لأمواله؛ وكان – بسبب ذهاب عقله –

(٦٤) سالوستيو (٨٦ ق.م - ٣٥ ق.م): مؤرخ رومانى، كان يحميه يوليوس قيصر، وكان حاكمًا على نوميديا (٤٦ ق . م) ؛ حيث جمع ثروة طائلة. وشيّد فى روما، فى الكيرينال، بيتًا رائعًا محاطًا بالحدائق. عند وفاة الديكتاتور (٤٤ ق . م)، انسحب من الحياة السياسية وكرَّس نفسه للدراسات التاريخية.

يهمل شراء الهدايا ظنًا منه أنه اشتراها بالفعل والحب لا يمكن الاحتفاظ به دون بذل. أعترف أنا بذلك لكــن هذا الصنف من النساء فيهن طمع لا يمكن إشباعه. لاحظت أن بعض الأعشاب الموجــودة عنــدى فــى بستان صغير تذبل مع حرارة الشمس الحارقة فى أيام القيظ، وتتمــدد على الأرض، وكنت أحكم بأنه من المستحيل أن تنهض، وعند رشــها بالماء فى تلك الليلة، وجدتها فى الصباح يانعةً كما لو كانت فى شــهر إبريل بعد مطر لطيف. اعتبر أن هذا الأثر فى الفتور والذبول، ينطبق على حب نساء البلاط، عندما توقظهن وتسعدهن بسرعة جدًا الفــضة والذهب، لأن الرجل الوجيه الذى أبغضنه بالليل لأنه لم يعط، يكون فى الصباح محبوبًا لأنه أعطى. وفى النهاية، نسيت دوروتيا، هكذا كانــت تسمى هذه السيدة، الالتزامات التى كانت عليها تجاه أوكتــابيو؛ حيــث وقع بصرها على رجُل غنى عائد من بيرو، رجل فى منتصف العمر، وهو ليس بشخص سيئ، فهو يتمتع بالأناقة والذكاء. بعد وقت قــصير علم أوكتابيو بالتحول الذى حدث، فتابعها ذات يــوم، ورآهــا تــدخل متنكرة فى بيت الرجل المذكور، وظل أوكتابيو ينتظرها وهــو فاقــد الرشد حتى وصلت إلى الشارع تلك المرأة شديدة الجرأة، وأمسكها من ذراعها، وضربها بعض اللكمات دون خوف من البيروانى ودون خجل من الجيران. على صراخها وصراخ الخادمة، التى وصــلت للــدفاع عنها، خرج فينيو، كان هذا هو اسمه، مع اثنين مــن خدمــه والتفــوا حوله، وأجبره البيروانى على الخروج من الشارع بشرف أقل عما إذا ظل به، لكن بفائدة أكبر لنفسه. كان أوكتابيو خجولاً، كما كان متوقعًا،

قال كارّنثا، ويوافق على هذا السيد الكبير لــويس باتــشيكو، أن فــى البيروب لا يوجد رضا، وأصاب بجزء من حزنه صــديقه ليــساردو، ومع اثنين من الخدم الموسيقيين الذين أشرنا إليهم مــن قبــل ذهبــوا لانتظار البيرواني على مدى ليلتين أو ثلاث؛ لأنه لم يكن يخــرج مــن بيته دون حراسة، وفى الليلة الأخيرة التى كان عائدًا فيها مــن زيــارة صديق له (آه، أيها الليل، كم من مصائب تأتى منــك، ليــست هبــاءً التسمية التى وضعها لكِ إستاثيو[٦٥] بأنك مهيئ للخداع، وسينيكا سماك "بالفظيعة"، وأطلق الشعراء عليك ابن الأرض وابــن المــوت، وهــو الشيء نفسه كابنة الموت، فالموت يقتل والأرض تأكل ما يدفن بهــا)، تصدى له أوكتابيو وليساردو مع الخدم، وطعنوه عدة طعنات، ودافــع عن نفسه بكل شجاعة مع الحرس الذى كان حوله حتى سقط صــريعًا، تاركًا أوكتابيو جريحًا إثر طعنة أودت بحياته أيضًا بعد ثلاثــة أيــام. وخلال هذه الأيام كان ليساردو يعيش فى عزلة تامة، وعنــدما أرادت العدالة أن تجبره على الخروج من الكنيسة، أضطر للغياب، وبــدموع غزيرة من لاورا ومنه خرج من إشبيلية، وبمناسبة خــروج أســطول إسبانيا الجديدة، نصحه الأصدقاء والأقارب، بالــذهاب إلــى إســبانيا الجديدة. كان من الصعب علاج هذه القضية، مع أنه توجد حالتين وفاة بين كلا الجانبين، لذا لم يستطع ليساردو العودة إلى إشبيلية عندما فكــر فى ذلك. ظلت لاورا فى هذا الغياب الحزين تشعر بألم كبير لرحيلــه،

---

(٦٥) إستاثيو: ولد وتوفى فى نابولى (٤٠-٩٦)، وهو شاعر لاتينى. مؤلف لعدة ملحمات وأشعار خاصة بالظروف مثل (*غابات*).

وهذا الإحساس كان يعلمه والداها، اللذان كانا بشيء من الحذر يراقبان ليساردو، لأنه لم يكن من الثقيل عليهما أن يصبح صهرًا لهما؛ ولكن بعد مرور عامين في هذا الحزن الشديد، اقترحا عليها بعض الزيجات ليخرجاها من هذا الإحساس، بالزواج من شخصيات مشهورة وأصيلة وجديرة بجمالها وحسبها ونسبها ومالها. وكان هذا ما يحزن لاورا أن والديها يحاولان في هذا الموضوع، ولذا فكل مرة كانا يحاولان فيها، كانت تشعرهما بموتها؛ لكن والدها كان يعلم من فينيسا، ويدرك بأنها بينما هي على أمل الزواج بليساردو فلن تقبل بأي زواج من آخر، فقرر تزوير خطاب يقدم أخبارًا جديدة، ومن بين أمور أخرى، يخبر بأن ليساردو قد تزوج في المكسيك، وخطاب آخر يرسله لصديق له، كان قد قام بزيارته، وكانت خطته أن يهمل الخطاب، فيقع في يد لاورا، وكان نصه هكذا:

"في هذا السفر ليس لدي ما أخبركم به فإن كل شيء يتم على ما يرام، وأفضل مما كنا نظن. وصل نائب الملك بصحة جيدة، وأعتقد أننا وجدنا أنفسنا سعداء جدًا معه، لأنه أمير عظيم، غيور على خدمة الرب وجلالة الملك. أسعدني بمعرفة إلى أي حال وصلت الأعمال التجارية لليساردو دي سيلبا في هذه المدينة، لأنها خاصة جدًا، إذ إنني زوّجته بابنتي تيودورا، وهي في منتهى السعادة؛ لأن كل منهما يحب الآخر جدًا وهذا يهمني بشكل واضح؛ لأن ليساردو يرغب في الذهاب إلى إسبانيا ويسعى للحصول على عمل في البلاط الملكي، وأنا أتمنى

أن أرى بيتى فى وضع مُشرّف، وأن يرتفع نسبى مع هذا الشاب، الذى أعطيته من الصداق ستين ألفا من العملات المعدنية".

أما حال لاورا بهذا الخطاب، الملقى بإهمال مصطنع جدًا للفت انتباهها بشكل حقيقى، فليس من الممكن أن نبالغ فيه. عاشق مسكين، فعندما كان يطلب حريته لرؤيتها، كانوا يحرمونه منها بحيل جيدة جدًا؛ ولم يخب ظنهم، ولو أن سيادتكم تحزنون لذلك، إذ إنه، بعد مرور عدة أيام من الدموع، أقنعت نفسها، كما يفعلن ذلك كلهن، وقالت لأبويها إنها ترغب فى طاعتهما. هكذا، كما كانا يعرفان تأثير هذه الحيلة، حاولا تزويجها من رجل يخلصها بحضوره من رغبتها فى ليساردو، وهو شىء لم يستطع تحقيقه الغياب الطويل جدًا.

كان هناك رجل فى المدينة، لا يتحلى بالشجاعة الكافية، ولكنه كان يتحلى بالعقل، والخبرة والرأى السديد، وهو إنسان ثرى وينتمى لعائلة كبيرة، ويتطلع لمصاهرته الكثيرون، لأنه مرسوم على أسارير وجهه الهدوء وفى كلماته التواضع. حاول الأقارب من جانبه ومن الجانب الآخر الاتفاق، وعندما توافق الجميع على قدم المساواة، لم يكن من الصعب الوصول إلى إتمام الزواج بالسرعة التى كان يتمناها والدا لاورا. تزوجت لاورا، وفى هذه المناسبة قد يقول الشاعر إذا كان *هيمينيو* قد حضر العرس حزينًا أو سعيدًا، أو إذا كان فأسه حيًا أم ميتًا، وهذا يعد طقسًا من طقوس اليونانيين، كما يسمى العرس *بتالاسيو* عند اللاتينيين. وحتى لا تجهلوا حضرتكم السبب الذى من أجله استدعت الوثنية فى الزيجات هذا الاسم، فلتعلموا أن هيمينيو كان فتى، وُلِدَ فى

أثينا، له وجه جميل ورقيق جدًا، ومع اهتمامه بتجعيد شعره، كما يحدث الآن، كان يعتقد الكثيرون أنه سيدة. عشق هذا الفتى بحرارة شديدة فتاة جميلة ونبيلة، بلا أمل منه فى تحقيق رغبته؛ لأنه من حيث شرف الدماء كان أقل منها، ومن حيث المال والعائلة غير مساوٍ لها بفارق كبير. بهذا الشك، فإن هيمينيو، لكى يغذى أشواقه على الأقل ولو برؤية الفتاة المعشوقة فقط، ارتدى الثياب نفسها التى كانت ترتديها واختلط مع الأخريات اللاتى كن يرافقنها، وكان يساعده فى ذلك ألوان وجهه، عاش معها فى صداقة شريفة وتابعها فى الاحتفالات والحقول، دون أن يتجاسر على أن يفصح عما بداخله لكى لا يفقدها. فى هذا الوقت حدث له ما يحدث للكثيرين، عندما يفكرون فى الخداع، فيظلون هم بخداعهم؛ لأنه عندما خرجت سيدته خارج المدينة مع أخريات كثيرات للاحتفالات الدينية لثيريس إليوسينا، قفز القراصنة فجأة على الأرض، وسرقوها مع غيرها من الفتيات الأخريات. رسوا هم، والغنيمة والسفينة فى ميناء قريب؛ ولأنهم وزعوا نصيب كل واحد منهم حسب أهوائهم، أقاموا احتفالاً فوق العشب، لما أراد كل من ثيريس وباكو إعطاء حرارة لفينوس(*)، ومع عمل المجداف وراحة النبيذ استسلموا للنوم. وكان هيمينيو، يتحرك بكل شجاعة وبعزم فى مناسبة قوية جدًا (لأن الجمال فى الرجال لا يعوق شجاعة القلب، ولقد رأيت أنا الكثير من الرجال الدميمون جبناء)، أخرج السيف من حزام

(*) لاحظ استخدام لوبى لاستعارات مستمدة من التراث اليونانى القديم: باكو إله الخمر، وفينوس إلهة الجمال... الخ. (المراجع)

قائد القراصنة، وقطع رؤسهم واحدًا بعد الآخر، وأنزل الفتيات إلى الباخرة، وبعمل شاق جدًا وكبير عاد إلى أثينا، وقد طلب أباء هؤلاء الفتيات كمكافأة لهذا المعروف الكبير، هذا الفتى من سيدته، وقدمته على أنه امرأة عاشت هى معها فى سلام بدون غيرة وبدون غضب، وبأولاد كثيرين؛ من هنا جاء ذكر أهل أثينا له فى أعراسهم، كرجل يجلب الحظ للنساء، ورويدًا رويدًا أخذوا يتغنون بأناشيد له، كما يتغنون لحاميهم؛ حيث يوجد اسمه فى الكثير من القصائد لشعراء يونانيين ولاتينيين، ويستقبل اسمه كذلك فى الأعراس نفسها.

لا أعتقد أن هذا الحدث كان ممتعًا بالنسبة لحضرتكم، بسبب قلة ميلكم للسيد هيمينيو لانتمائه لمدينة أثينا، لكنه على الأقل أبعد خيالكم عن الإهانة الظالمة التى تسببت فيها هذه الزيجة لليساردو الغائب، والسهولة التى اقتنعت بها المنتقمة لاورا؛ ولكن بالطريق الذى سلكته هذه الحيلة، أى أمل يبقى لامرأة، عندما ترغب فى الانتقام؟ شىء كثير ما تشتهيه العاشقات بغضب مجنون، عند رؤية أية صورة لامرأة، وأعتقد أن هذا هو الانتقام.

أعد مارثيلو، هكذا كان يدعى زوجها، بيتًا عظيمًا متألقًا، وجهز عربة فخمة، وهى أشياء تعتبر أكبر متعة بالنسبة للنساء، وفى هذا الجزء أؤيد النساء فى هذا الموقف، نظرًا لصعوبة السير فى الثوب وأهمية الشخصيات التى تحيط بهما. تزوج صديق لى كريم الأصل، وله ذوق رفيع، وفى الليلة الأولى التى كان يجب أن يحتفل فيها بليلة الزفاف على الطريقة اليونانية، والفرح على الطريقة القشتالية، رأى

زوجته تنزل من حذاء عال جدًا فظهرت قصيرة جدًا، فتصور أنهم خدعوه بنصف الثمن الصحيح. فقالت هى حينئذٍ: كيف أبدو لك؟ فأجابها بلا سعادة: يبدو لى بأنهم أعطونى حضرتك على سبيل الغش التجارى؛ حيث إننى خسرت النصف من يد إلى أخرى. فواسيته أنا بإجابة ذلك الفيلسوف، الذى سأله صديق له لماذا تزوجت من امرأة قصيرة جدًا، فأجابه: "خذْ من الشر أقله". لكن من الصحيح أن الجميع كانوا يخدعون أنفسهم بأن امرأة فاضلة سواء كانت طويلة أم قصيرة، فهى شرف و مجد وتاج على رأس زوجها، وعنها يوجد الكثير من المدح فى الآداب المقدسة، وآه من المريض الذى لا تهتم النساء بعلاجه، والوحيد الذى لا يقدمن له الهدايا والحزين الذى لا يفرحنّه!

كان من بين الأشياء التى جلبها مارثيلو لبيته، عبد، كان يثق به كثيرًا، من أصل عربى، كان أسيرًا من غنائم جنرال وهران. كان هذا العبد يعتنى بخيول العربة وبحصانين آخرين كان يتنزه بهما مارثيلو؛ هذه الخيول كانت من بالنثويلاس فى قرطبة؛ حيث توجد علاقة أيضًا بين نسب الخيول ونبلها. فلا تنسوا حضرتكم، إذن، سليم، هكذا كان يسمى هذا العبد، حيث يهمنى من الآن فصاعدًا أن تحفظوه فى الذاكرة. كان الزوجان، مرثيلو ولاورا، يعيشان فى سلام، مع أنه لم توجد بوادر أو علامات عن إنجاب أولاد، كما يكون عادة فى الزواج، ظهرت قضية ليساردو من جديد فى سان لوكار مع وصول سفن إسبانيا الجديدة، بعد أن كانت قد انتهت بفضل التوسلات والأموال والسنين، التى تقهر كل شىء، ولأنه لم يخبر أحدًا بما فكر فيه ولكى يأخذ لاورا

على غفلة بفرحة حضوره، وهو يجهل زواجها أتى إلى إشبيلية. لم يبلغوه بشيء في بيته، أو كانوا قد شغلوا برؤيته، أو لأنهم فكروا في أن شيئًا جدير بالذكر تماما بالنسبة له كزواج لاورا فسيعلم به، أو لكي لا يستقبلوه بأخبار جديدة سيئة، وهي أخبار يتجاهلها عادةً بشكل كبير الأقارب والأصدقاء. هكذا كان الوضع، عند وصول ليساردو، الذي نزع المهاميز، وذهب وحده إلى بيتها في الثامنة مساء، ورأى ليساردو في الفناء ضوضاء مختلفة جدًا، حيرت قلبه وأقلقته وأثلجت دمائه، وبعد برهة سأل الخادم الذي كان يساعد في إعادة تلك العربة الفارهة إلى مكانها، التي أتت فيها لاورا، والتي كانت تعيش في ذلك البيت. فأجابه "هنا يعيش ميناندرو، وماريثلو هو صهره". كانت هذه الكلمة شديدة الوقع على قلبه، فقال له وهو يرتعد بأكمله: "إذن، زوّج السيدة لاورا؟" "نعم"، رد الخادم بجفاف وكان رد الفعل شديدًا بالنسبة لليساردو الذي قابل هذا الموقف بكثير من الدموع، التي انهمرت فجأة من العيون لتساعد القلب في إحساسه العادل جدًا. جلس على مصطبة كانت إلى جوار الباب، ولم يستطع الكلام؛ لأن الألم كان يخنقه، فسكب جزءًا من السم، فشعر بعده بشيء من التحسن. في النهاية نهض؛ لأنهم لاحظوا عليه الملابس الفاخرة، والزينات وريش الطريق، وهو ما كان يتطلبه الاستعداد الجيد، وكانت ملابسه أول ما تعرَّض للانتقام، فقد حولها إلى قطع، نثر منها في الشارع قائلاً: "هذه وآمالي شيء واحد". ومنها مرَّ إلى القفازات، ثم شد سلسلة من القطع، ففقدها بأكملها. ظل الفتى الحزين يمشي في الشارع على مدى ساعة ونصف، عندما سمع نوعًا

من الضوضاء في إحدى صالات منزلها، فأمسك السياج الحديدى بكلتا يديه، ودون أن ينظر إلى ما كان يفعله، أطل من إحدى ضلف الشباك؛ حيث رأى لاورا جالسة إلى منضدة الطعام، ومعها زوجها ووالديها. هنا فقد الوعى وسقط على الأرض، وظل مغشيًا عليه برهة ثم عاد وأفاق، وتسلق للمرة الثانية عبر السياج الحديدى، فرأى أوانى الفضة الفاخرة والعائلة وهى تستخدمها، والسعادة التى كانت تبدو عليهم، والأطباق والهدايا التى قدمها مارثيلو إلى لاورا بكل الحب. أمعن النظر فى وجهه، وفى ثوبه وفى الجو الجميل الذى يتناول فيه عشاءه؛ حيث إن تناول الطعام بأناقة ونظافة وصفاء يعد من بين الأشياء التى يلتزم بها رجل طيب المولد، وتصور أنه فى حياته لم ير رجلاً أجمل من هذا. آه، أيتها الغيرة، كم من أشياء قبيحة تجعلينها تبدو عكس ذلك! وهنا امتد الخيال إلى أشياء مخيفة من المعاناة، ومن بينها، الاعتقاد بأن لاورا قد تكون عاشقة لمارثيلو، كما كان منطقيًا وكما تصور هو أن مارثيلو يستحق ذلك بالضرورة. تنهد ليساردو، وهو يتمنى أن تسمعه لاورا. يا له من جنون! لكن، مَنْ يملك العقل فى هذه الكارثة؟ انتهى عشاء مارثيلو وصبر ليساردو فى الوقت نفسه. انسحبوا بعد وقت من المحادثة، وظل هو بكل آماله فى الشارع. كان حزن أسرته عليه شديدًا؛ وهكذا، خرجوا للبحث عنه فى كل مكان، دون أن يتركوا صديقًا بغير سؤال عنه. تذكر أنتندرو انشغاله بلاورا، فذهب إلى بيتها، ووجد سيده فى شارعها أقل من أن يكون مجنون وأكثر من تعيس وشقى. بعد جدل طويل وإقناع، استمر حتى قرب الفجر، أخذه من

المكان الذى اتخذه، كجندى حب، ثم أحضره إلى بيته وهو يقدم له نصائح طيبة، ثم جعله يرقد، ولكن لم ينم أحد منهما؛ لأنه أخذ يحكى له ما رآه وأخذ يأسف على لاورا حتى طلع الصباح. توسّل إلى أنتندورو بأن يذهب إلى بيت مينندرو، وأن يعمل على أن تراه فينيسا. وهذا ما حدث، فلم تكد تلمحه الخادمة، عندما كانت تضع معطفها وتلك القبعة التى يضعنها نساء إشبيلية بكل إتقان، حتى خرجت لتبحث عنه. لم يعبر الاثنان الشارع، وعندما عانقته فينيسا كثيرًا، وسألته عن ليساردو، وصل ثوليمو العبد الذى أشرنا إليه من قبل، فقطعت هى الحوار وعادت إلى منزلها. انتبه العبد للأجنبى، وبشىء من الريبة فى فينيسا، أراد أن يتبعه، لكن انتندرو أفلت منه فى أحد الشوارع الضيقة الكثيرة فى تلك المدينة، ولفت نظر ليساردو إلى أن لاورا قد علمت بأنه موجود فى إشبيلية. وفى تلك المناسبة أخذ العاشق الرقيق القلم، وكتب خطابًا، وطلب من أنتندرو أن يحمله، وإذا استطاع أن يعطيه لفينيسا، فأنه يعده بخير وفير وهدايا بسبب إخلاصه وحفظه لهذا السر. وهذا ما حدث، فلاورا، التى علمت بمجيئه، بقليل من التغيير، وبكثير من الفضول فتحت الخطاب وهى صارمة، وقرأت ما يلى:

"وصلت ليلة أمس إلى إشبيلية لأعيش برؤياك فى موت كبير كما تألمت فى غيابك، ولأتم وعدى الذى وعدتك بأن أكون زوجًا لك. فأول شىء عرفته هو أن لك زوجًا، والثانى هو أننى قد رأيته، وأنا فى غاية الألم، والذى استطاع منع قتلى فقط هو إننى عرفت أن روحى لاتزال موجودة. تصرفتِ بقسوة مع برائتى. لم تكن تلك الكلمات هى

الكلمات التى سمعتها عند رحيلى إلى المكسيك، والتى كانت موثقة بالدموع ولكن أنت امرأة، وهو آخر عزاء للرجال ، لكن، لكى ترى الفرق الذى فعله حبى بحبك، بينما أنا أتصرف فى أموالى، سأعيش فى إشبيلية، وبعدها سيغطينى ثوب فقير؛ حيث أثق فى علاج السماء؛ لأن علاجى فى الأرض لا أنتظره من أحد".

قلت إن لاورا فتحت الخطاب بلا تغير، لكنها أغلقته بتغيُّر كبير، وكانت ترتاب فى أن ليساردو من الممكن أن يكذب، كما هو حال الكثيرين عندما تكون تجربة كذبهم لها معنى بعيد. فتحت المكتب، الذى وجدت فيه الخطاب المزيف الذى كتبه والدها، بالمصادفة أكثر من الحرص، حيث كانت ترغب فى تمزيقه كلما رأته، ووضعته فى ظرف، وأرسلته إلى ليساردو. عندئذ سببت له رؤية خطاب منها نوع ما من السعادة، لكنه عندما تجاهل الخط ورأى التوقيع المزيف لتاجر كان يعرفه فى المكسيك، قرأ الخطاب، وبتنهد وفى صوت حزين قال: "قتلنى هذا". مر ذلك اليوم، وأمر بأن يصنعوا له ملابس حداد، وفى اليوم التالى خرج إلى المدينة وهو غير معروف تمامًا، مما أعطى فرصة للجميع بأن يسألوه عن سبب الحداد، الذى من أجله لم تنقصه الحيل، وبهذا عاد ليكتب لها، قائلا هكذا:

"كان هذا الخطاب من اختراع قدرى لينزع عنى كل الخير، ومع أنه يبدو عذرًا كافيًا، فلا يوجد عذر؛ لأنه لم يصاحبه حرف واحد منك؛ لأن احتقار منْ أحب لا يعطى الشرف لمَنْ يكره. لقد رحلت أنا من إشبيلية بالقوة، أبحرت بلا حياة، ووصلت إلى المكسيك بلا روح،

فعشت ميتا، وحفظت الوفاء الذى لا يقهر، وعدت بالأمل، فوجدت موتى، ولكل هذا وجدت العزاء فى خدعة هذا الخطاب؛ ولكن أكثر من هذا الاحتقار سيكون مستحيلاً، واحتقارى، هو فى الأدب قلة تعقل".

على هذا الخطاب ردت لاورا بما يلى:

"ما قد يبدو تفاهة فى شرفى لم يكن قلة احترام لشرفكم؛ لكن عندما استخدمت هذه التفاهة، فحسنا يستحقها رجل ينكر بأنه قد تزوج فى إسبانيا الجديدة، إذ إن الحداد الذى تلبسه يدل جيدًا على أنك أصبحت أرملاً، وتحب أن أعتقد بأنك لم تتزوج، وبأن ذلك الخطاب غير حقيقى".

هنا فكر ليساردو أن ينهى الموقف، عندما رأى أن الحداد الذى وضعه لكى يجبرها برقة الإحساس، تسبب له فى أذى كبير. فخلعه فى اليوم نفسه، ولأنه كان يوم عيد، ارتدى أفضل وأفخر وأغلى ما كان لديه، وتحلى بكثير من المجوهرات، وذهب إلى كنيسة سان بابلو؛ حيث أتت لاورا للقداس، ورأته فى ملابس مختلفة تمامًا، أكدت أن الحداد كان رقة إحساس وأن الخطاب كان أكذوبة. بهذا وبتوسل ليساردو بدأ الحب يقلِّب رماد النار القديمة؛ حيث يعتاد بعض الشرر، على اكتشاف بعض الذكريات. واشتركت فينيسا فى الأمر، وهى مضطرة لذلك إزاء النقود والملابس، وكانت لاورا تنظر بعشق، وكان ليساردو يجترئ، وعلى أمل الوصول إلى معروف عاد سريعًا إلى رشده، وكان رقيقًا ولطيفًا إلى أقصى درجة. انتبه مارثيلو قليلاً إلى أناقة لاورا، فعلى

الرغم من قلة سنوات الزوجية تعرضت لاورا لإهمال زوجها، ومـــع استمرار إهماله زاد حرص كل من ليساردو ولاورا، وفى العودة للقاء زادت الجسارة. هكذا أصبحت الخطابات بريدًا عاديًا، وهكـــذا أصـــبح يجهّز رغباته هناك فى أمور قليلة الشرف؛ فلم يكن مارثيلو ودود ولـــم يدرس فن الإعجاب، مثل البعض، الذين يظنون أن ذلك لا يهم وأن كل شيء يخضع لأسم العائلة، دون اعتبار أن المتزوج يجـــب أن يـــشغل مكانين: مكان الزوج ومكان الرجل العاشق؛ ليؤدى واجباته وليـــضمن نجاح المعركة. يبدو لى أن حضرتكم ستقولون: "آه، كـــم تـــدين لكـــم النساء!" إذن أؤكد لحضرتكم أن العقل يقودنى هنا أكثر مـــن الميـــول، وإننى إذا كانت عندى القدرة سأقيم أكاديمية للزواج؛ حيث يتعلم فيهـــا المقدمون على الزواج منذ الصبا، وأنه كما اعتاد الآباء علـــى القـــول لبعضهم بعضا: "هذا الطفل يدرس ليكون راهبًا، وهذا ليكون رجلاً من رجال الدين"، إلخ، سيقولون أيضًا : "هذا الصبى يدرس للـــزواج"؛ وألا يأتى جاهل ليظن أن تلك المرأة من عجين آخر لأنهـــا متزوجـــة، ولا حاجة للاهتمام بواجباتها، ولا بتقديم الهدايا لأنها ملكه عن طريق العقد، كما لو كانت كذلك عن طريق البيع، أو كأنه يستطيع أن ينتقم منها بأن يتعرف على نساء كثيرات أمام عينيها، دون النظر، كما هو من العدل، أنها وضعت بين يديه أفضل ما تملكه الـــزوج، كالـــشرف، والحيـــاة، والهدوء. قولوا الآن حضرتكم، أتوسل إليكم، أن تقولوا هل ترون هـــذه القصة مجرد مواعظ؟ لا ياسيدتى، سأجيب أنـــا بالتأكيـــد، إذ إننـــى لا

أدرس المواعظ فى القصص، كما يفعل الناس، بل وجـدتها بـالفطرة، وظهرت لى دائمًا أنها صحيحة.

رضى ليساردو بأنه فقد لاورا، لكـنه تصـور أنه لـم يفقـدها بقربه من الفوز بها الذى كلفه سنوات كثيرة من الحـزن. إن رغبـات الحب التى يبحثون عنها ويطلبونها بطريقة ما تنتهى بنفس الطريقة، حتـى لـو كانت السعادة قصيرة والمخاطرة – بشرف النفس وشرف الآخـرين – كبيرة قدر ما يصنع، فقد كان يحبها؛ وكانت لاورا، حرة ومتناسبة ما كـان يجب عليها تجاه ذاتها، لم تحذر النهاية التى تصل إليها عادة مثل تلـك الاجتراءات. كان أنتندرو هو السكرتير. وكانت فينيسا هـى العرّابـة. كانا يتبادلان النظرات فى الكنيسة، ويتبادلان التحيات بكثير من الأدب والحب فى الشارع، ويتحدثان فى الحقل، وفى بعـض المـرات عبـر السياج، بينما كان مارثيلو نائمًا، وفى المرات التى كان فيها أكثر يقظة، كان فابيو وصديقه، فى أكبر صمت الليل، ينشدان هكذا:

بيليسا يا روحى،

من عينيك الجميلتين

تتعلم الشمس نفسها

أن تلقى بضوئها على الأرض،

بيليسا أكثر جمالاً

من السماء الهادئة

هى الشهاب الناصع

فى الفجر، وفى المساء؛

فعبر هذا الوادى،

من اليوم فصاعدًا سنسميه

نجمة بيليسا،

كما أنه حتى الآن نجمة فينوس؛

تاركًا حسنك،

إذا كنت أستطيع تركه،

ومؤيدًا وحدى

فهمك المحدود،

مَنْ ذا الذى لا يقول، يا سيدتى،

إن عناية السماء

وضعت روح ملاك

فى جسدك الإلهى؟

مجيدة هى روحى

لأنكِ تملكينها،

مع أن الآمال

تسيطر علىّ حيًا وميتًا.

أعيش لأنها تشجعنى

على الغاية التى لا أصل إليها،

وميتا فيها نفسها

لأن الانتظار يقتلنى.

الجميع، يا بيليستى،

يتركون أنفسهم لأن من أجلهم

يمضى الزمن سريعًا،

دون أن يستطيعوا إيقافه.

وأنا، من سيره

الهادىء جدّا أشتكى،

إذ إننى أظن أن الزمن

يتوقف فى عمرى.

ضرب تنتالو[٦٦] المثل

للكثيرين ممن عشقوا؛

لكن لا أحد مثلى،

له رغبة شديدة.

فالذى يُعطى لى ينقصنى،

ليس لدى الخير الذى أملكه،

عندما تتحول أعمالى

العقلية إلى أفكار.

استعملى حبى الآن عن قرب

للطموحات الجديدة،

وللعيون

وللأحضان البعيدة.

يا بيليسا، ولدتِ إذن

ياكنز من السماء،

---

(٦٦) تنتالو: فى الأساطير اليونانية، هو ملك ليديا ، سبَّ الآلهة فقذف به فى النار وحُكم عليه بأن يعانى من الجوع والعطش القاتلين.

مَنْ صنعك من أجلى

من حُلم لذيذ؟

إذن عندما أكون فى غاية التأكد

أعتقد أننى أملكِ،

فأستيقظ ولا أجدك،

فأنت حقيقة وحلم(*).

معكِ، يا مالكتى،

وُلِدَ حُبى أولاً،

ومعكِ تربى،

ومعكِ كان ينمو.

أصابوا مَنْ حكموا

بأن قلبى صغير

بالنسبة لحب كبير جدًا

لكنهم لم يصيبوا فى الحكم على قلبك.

الشر الذى أعانيه

(*) المقابلة بين الشيء ونقيضه من لوازم أشعار لوبى. (المراجع)

ويسمونه آمالاً؛

ويطلبون الحيازة،

يطلبون الثروات

ثم يدعوننى إلى الانتظار.

والأمل فى الاستقرار

يكون الموت المؤجل،

فلا يوجد بحر فى الوسط.

لو أنهم عانوا،

لكانت مواعظهم لى قليلة!

لكن إذا كانت السنوات تصنع الألم،

فهل هناك عاشق أكثر شيخوخة منى؟

اعذرينى إذا كنت قد اتعبتك،

فبينما لا أملكك،

لا أستطيع أن أحبك أكثر

ولا أتمناكِ أقل.

هكذا مرت آمال ليساردو، أحيانًا سعيدة وأحيانًا أخرى حزينـــة؛ وكانت لاورا مستمرة فى الخطابات والتنازلات، وكان ذلــك يــسلِّيها أحيانا ويؤكد لها أحيانًا أخرى، أما شكوكها وأمنياتها فقد خــصَّتها ذات يوم بهذه الأبيات:

أيتها الأفكار، لا تعتقدى

أننى منكِ مُهان،

فإننى ممتنُ لكِ

رغم الأذى الذى فعلتيه بى،

بل إننى أظن أن لديكِ

شكوى منى وأنت على حق؛

لأننى وثقت

فيمنْ تعرفين تقلبه،

فلا يستحق الأمل

مَنْ لا يفكر فى التَملّك.

فلا نفكر أنت وأنا قط،

- مع أنك أفكار-

أن نكون فى هذه المكانة السامية

التى نصبو إليها؛

فإن كنا سعداء:

أنت من المكان الذى أنت فيه

وأنا لأنك فيه،

فلا تعانى من لومهم لكِ

وهو أنكِ لا تقدرين الخير،

فلن تصلى قط إلى الخير.

هذا القهر المستحيل

لنوع نبيل من التعاسة

يؤجل سعادة

مَنْ يمكن أن يكون سعيدًا؛

مرتبك وخائف

من ألا ترضَىْ عنه،

تقولين له

إن فى إحساسى الخطير،

ما نعرفه نحن الاثنين،

أنه لا يثق بك،

إلا أن تكون أفكارى.

أحب، ولا أستطيع

تنفيذ ما أريد؛

أتوقع ما لا آمله

لأرى إذا كنت أستطيع خداع نفسى،

دون معرفة مصيرى؛

حيث إننى عزمت

على أن أقدم نفسى لمنْ أرفضه،

وفى هذا الضيق المُميت

فأنا "تنتالو"،

وأنا المستحيل ذاته.

أقصى أنواع الشر

أن يهرب الوجه من الخير،

مَنْ يصل كى يعطوه

بقدر مختلف

في همٍّ مُميت جدًا

أعتقد في الشيء نفسه الذي أشك فيه؛

وأراني في هذا الحال،

دون أن أستطيع علاجي،

وأيضًا لا استطيع التمني

ذلك الشيء نفسه الذي أتمناه.

أنتِ، مالكتي الحسناء،

استقبلي، إذن فأنا ملكك،

من المستحيل الذي أحياه،

الرضا الذي أرسله؛

إصراري ضد سعادتي

بين الجرأة والخوف،

لكن أظل في متاهه،

حيث أموت،

إذن متى أخرج؟

أحاول الخروج ولا أستطيع.

سار ليساردو فى هذه الأبيات الأخيرة من الشعر وهو أقل حرصًا عن الأحيان الأخرى التى تحدث فيها عن خواطره، إذ إنه اعترف بأنه قام بالمساعى للخروج، إذا لم يُفهم مع ما قاله سينيكا، بأن الحب سهل الدخول وصعب الخروج. لا أعرف ما هو العذر الذى أجده لهذا الفارس! إذا كان رأى أكبر فيلسوف هو أن الحب ليس لتلك الغاية ولا يصلح بدونها. شىء يريحنى أن أسأله عنه، إذا كان يعيش الآن، حتى ولو ذهبت من هنا إلى اليونان، لأنه يبدو أن هاتين الحكمتين بينهما تناقض. غير أنه يريد أن يقول إنه من الممكن أن يوجد حب حقيقى مع رغبة فى الاتحاد وبدونه. فلتحكموا حضرتكم أى واحدة من هاتين الحكمتين فى فكركم، وأعتذر لسيادتكم عن قلة السنوات التى لم يتمكن ليساردو من أن يحب بطريقة أفلاطونية السيدة لاورا. وفى النهاية، ومن سطر إلى سطر وصل ليساردو إلى السطر الأخير الذى وضعه تيرينثيو فى مؤلفه أندريا، فى اقتراحها الأخير كتبت له لاورا ما يلى:

"إذا كان حبك حقيقيًا، فلتسعد، ياليساردو يا حبيبى، بحالتى عند عودتك من إسبانيا الجديدة ، فحقًا تعرف أننى قد تزوجت وأنا مخدوعة، إذ إننى انتظرتك فى صلابة وبكيت زواجك. فلا أعرف كيف تريد أن أدوس واجبى نحو والداى، وشرف زوجى والمخاطرة بسمعتى؛ كلها أشياء خطيرة جدًا، من أى واحد من هذه الأسباب أعرف أنك تحب فقط ما يرضيك أكثر منها جميعًا. فوالدى عريق النسب كريم الأصل، وزوجى يلزمنى بحبه وبهداياه، وسمعتى هى أكبر جوهرة

لشخصيتى. ماذا سأفعل إذا فقدتها جميعًا من أجــل فجــورك؟ كيــف سيسترد والداى مكانتيهما وزوجى سلطته، وكيف أسترد أنــا اســمى؟ أفرح، يا سيدى، فإننى قد أحببتك أكثر من والدىّ، ومن زوجى ومــن نفسى، فإن لم توافقنى فى هذا، فسأغامر بكل شىء من أجلك. أعتــرف بأنه بالنظرة السريعة يبدو حقيقة، لكن مع التأمل، يبدو كذبــة؛ لأننــى أستطيع أن أرد عليك بأن، إذا لم تغامر أنت من أجلى حيث تستطيع أن تنتصر بإرادتك فقط لأنك تريد، فكيف تريد أن أغامر أنا من أجلك بما لا أستطيع استرداده إذا فقدته ذات مرة من أجلــك؟ أنظــر مــا الــذى سيكون له تأثير أكبر فى هذا الارتباك المشوش لحبنا: أنا، التى تعــانى من نفس ما تعانيه أنت وأنا امرأة، أم أنت الذى تريدنى أن أخسر مــن أجل ألا تعانى أنت. أود أن أذكر لك أمثلة لــبعض الكــوارث، لكننــى أعرف ظروفك، وأعرف أنك قد تمر على هذه السطور الخاصة بهــذا الموضوع كمنْ يقابل عدوًا فى الشارع، ويتظاهر بأنه لم يــره حتــى يبتعد عنه. لكن انظر للحب الذى ليس له مانع إلا فقدان الحياة؛ حيــث ترى أنت أن حبى ليس ضعيفًا لدرجة أننى لا أغامر بالحياة من أجلك، ويكون الموت من أجلك حلوًا ولطيفًا. أستقبل أنا هذا المعروف منــك: بالعقل ادرس هذا الخطاب، وليس بالإرادة؛ فــالإرادة ســوف تهــذب الرغبة، وهكذا سيستمر حبنا؛ أما بما تريد أنــت، فــسيكون عُرضــة للانتهاء".

عندما كان ليساردو راغبًا علــى فتــرات فــى تنفيــذ رغبتــه والوصول بأماله إلى ميناء، يستبشر فيه بالأشياء التى عادة ما تحــدث

له، فكر في التخلص من حياته – بكى – لأن الحب طفل، وكما أن المحبين يعتبرون أطفالاً يقذفون مايعطى لهم، إلا ما يطلبون، فتعامل مع الخطاب بدون احترام، ووجه بعض الإهانات الساذجة للحروف التي اعتاد تكريمها. وأخيرًا وضع القلم على الورقة، وكتب هكذا:

"حبي حقيقي، لكن دون مقارنة مع حب حضرتكم، ولكن إذا كانت رغبتي تنزع عنه هذه الثقة، فليس عندي ذنب، بل عند مَنْ أخذه من يديه ليكون مجنونًا جدًا. الكارثة التي يمكن أن أعتذر عنها فيما بيننا هي، أن حضرتكم تكرِّمونى وأنا أخدع نفسي. والدا حضرتكم وزوجكم وسمعتكم أضعها نصب عيناي بكل التكريم والاحترام الواجب علي، وإذا كنت قد أبديت قدرًا قليلاً من الاحترام لهم إلى هنا فإني أطلب العفو، بهذا الاعتراف بالخطأ أتمنى أن ينتصر التعقُّل من جانبي على أفكاري السابقة. أتوسل إلى حضرتكم أيضًا بأن تسامحوني عن الجزء الذي يخصكم من هذه الإهانة؛ حيث بدأت أحب بنية الزوج، فليس بالكثير أن تستمر تلك الرغبة من أجل هدف نبيل جدًا؛ فإن كان من غير المستطاع، كما لم أستطع أنا، أن أنسى حضرتكم، فسيكون من اللازم أن أغيب. فغدًا سأرحل إلى العاصمة من أجل ما أسعى إليه؛ حيث إنها إما ستنسيني – بتنوع الحياة فيها – هذا الفكر المجنون، أو أنها ستريحني بسرعة من عناء هذه الحياة الخانقة".

هذا الخطاب كلَّف لاورا الكثير من الدموع، وظنت أن ليساردو لن يفعل ما كانت تتصور أنه لن يستطع فعله، فأهملت الرد عليه. انتظر الفتى اليائس يومين، وفي نهايتهما خرج من إشبيلية مع أنتندرو

وفابيو، ومرّوا بجيادهم من شارع لاورا، وعلى صوت النفير وقلق النفس، تركت العمل الذى كان بين يديها، ووقفت عند النافذة؛ حيث ظلت شاحبة بلا لون حتى بعدوا تمامًا عن رؤيتها.

وصل ليساردو إلى العاصمة وهو خامد الهمة؛ حيث إنه فى أى مكان كانوا يصلون إليه كان يقول إنه يريد العودة. تسلّى فى الأيام الأولى برؤية القصر، ومجالسه، ومرافعيه، وزوّاره، والبرادو، وبه عدد لا ينتهى من العربات، ونهر الألعاب السحرية، التى تراها ولا تراها، ها هو موجود فى مكان ما، وها هو فى مكان آخر، والفرسان، والسادة، والسيدات، والملابس وتنوع التماثيل والصور من كل أنحاء إسبانيا؛ حيث لا يتسع لها المكان، وقد وجدوا فى العاصمة مأوى لهم. بعدها بكثير من المعرفة واصل الزيارات، التى كان من الممكن أن تمتعه إذا استمرت، مهما كان جمال لاورا وذكاؤها، وتلك الماشية التى كانت تربى فى مراعى العاصمة؛ لكن عندما فقد الثقة، واعتقد بأن كل حب لاورا كان خداعًا، أعطوه خطابًا منها، كان يقول:

"ياسيدى، بما أن حبكم مبنى على هذا الاهتمام، وأنتم كنتم تريدون منى ما هو سيئ جدًا، وأنتم تعلمون بأن غيابكم سيقتلنى فقد ذهبتم، وأقل ما كنت أنتظره هو أن تذهبوا إلى العاصمة، علاج ناجح، كالذى يعرف أن بها نهر النسيان؛ حيث يقولون إنهم يظلون بها لسنوات طويلة ولا يعودون إلى بلادهم. لا أريد أن أخبركم عن الدموع التى تسببتم لى فيها والحال التى ستجدوننى عليها، إذ إن الذين يروننى لا يعرفوننى، مع أنهم من بيتى، حيث لم أخرج. فأنا أنتهى إذا كان هذا

الكم من الجمال، والفخامة والذكاء لايرتبط بالروح، فأنا أعرف بـــأنكم في غاية الحنان، فتعالوا قبل أن تكلفونى حياتى، فقد قـــررت الإذعـــان لإرادتكم، دون النظر للأبوين، والزوج، والشرف، فكل ذلك قليـــل إذا كنت أفقده من أجلكم".

فى الواقع، يا سيدة مارثيا، عندما أصل إلى هذا الخطاب وقرار لاورا، فإننى ينقصنى النفس كى أواصل ما بقى. آه، امرأة متهورة! آه، امرأة! لكن يبدو لى أنهم قد يستطيعون أن يقولوا لى ما قاله المحكـــوم عليه بالشنق وهو على السلم لمَنْ كان يساعده علـــى المـــوت، وكـــان يتصبب منه العرق الكثير: "إذن، أيها الأب، لا أعـــرق أنـــا، ويعـــرق إحساسك بالأبوة" فإذا كان عدم الشرف والخطر لن يتسببا للاورا فـــى شيء، فمن أجل ماذا يتعب مَنْ هو مجبر فقـــط علـــى أن يحكـــى مـــا حدث؟، ومع أنها تبدو قصة، فإنها واقع.

وهو يكاد يجن رحل ليساردو من مدريـــد فـــى اليـــوم نفـــسه، واشترى لخدمه ملابس فاخرة من ذلك الشارع المعجزة ؛حيث يلـــبس الجميع دون أخذ المقاسات، واشترى للاورا قطعتين من المجـــوهرات يقدر ثمنهما بألف إسكودو؛ لأنه حتى ولو كانت أغنى امرأة فى العالم، فإنها تشكر ما يقدم لها، وخاصة بعد الغياب. أما عن مستوى الجنـــون فى الطريق فمن المستحيل الإشارة إليه؛ لأن مـــستوى الجنـــون فـــى السعادة يكون على قدر الرغبات. وصل إلى إشبيلية شـــىء غريـــب!، وفى اليوم التالى وبزيارة طويلة نفذت لاورا كلمتها. ولم ينته الحـــب، كما يحدث عادة عند الكثيرين، بل على عكس ذلك كان فى ازدياد مـــع

المعاملة، وقد وصلت المعاملة إلى مستوى حرية أكثر مما كان يجب؛ وهو ذلك الذى يبدو للعاشقين نفسه أنه سعادة، ففى معظم الأحيان ينتج عنه فقدها، أوعلى أقل تقدير يسبب انفصالهما. فى هذه الأثناء توفيت روسيلا، خالة ليساردو وكانت أرملة، وكان مجبرًا على أن يُحضر إلى بيته ليوناردا، ابنة أختها، وهى فتاة تبلغ من العمر حوالى الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمرها، لها وجه جميل وقوام رشيق. وبعد أيام قليلة من إقامتها فى منزله عشق أنتندرو هذه الفتاة بجنون بالغ؛ حيث إن اجتراءاته على باقى خادمات ليساردو أصبحت علانية، ومن بين الخدم كان هناك مَنْ يحذره مما كان يحدث، بخوف من كارثة من تلك التى قد تحدث عادة فى أيام الجهل الأولى للنساء. لماذا يسير القدر الغريب فى اتجاه مضاد لتعاسته! حزن كثيرًا ليساردو من اجتراء أنتندرو، فتشاجر معه، ورد أنتندرو على هذا الغضب العادل بجسارة غير عادلة، فأمسك ليساردو برمح له رأس بلطة كان عند رأس السرير، فقلب عمود الرمح، وضربه بالعصا، مما أحدث له جرحًا فى الرأس، أجبره على أن يلزم الفراش لمدة شهر وشهر آخر من النقاهة. ثم تصالحا، صلحًا لم يكن كذلك قط، وعاد ليساردو ليأتمن على سره بثقة ساذجة أنتندرو، الذى تركه ذات يوم مختبئًا فى بيت لاورا، كما اعتاد على ذلك فى مرات أخرى، ثم استدعى مارثيلو، وفى رواق إحدى الكنائس أبلغه بأن ليساردو ينتهك شرفه، وحكى له بهدوء شديد ما كان يعرفه جيدًا منذ البداية التعسة لهذا العشق. ولكى يؤكد أنه لا يخدعه لهدف ما أو لانتقام من عدو له، طلب منه أن يذهب لبيته؛ ليجده

مختبئا فيه، فى غرفة بجوار الحديقة؛ حيث يحتفظون بحصائر الشتاء وبعض الأدوات الزراعية. ظل مارثيلو لفترة طويلة دون أن يستطيع الرد عليه، ولأنه يحتاط بالتعقل الذى كان موهوبًا به لمناسبة قوية جدًا كهذه، فقال له: "تعال معى، لأننى أريد أن تكون أول مَنْ يرى انتقامى".

ذهب أنتندرو مع مارثيلو، وتركه عند بوابة منزله ودخل كصاحب المنزل إلى الغرفة المشار إليها، حيث وجد ليساردو خلف إحدى الحصائر، فقال له هذه الكلمات: "فتى فاقد الرشد، مع أنك تستحق الموت، فلن أمنحه لك، لأننى لا أريد الاعتقاد بأن لاورا خانتنى، بل إن اجتراءك المجنون هو الذى وضعك هنا". ساعدت ليساردو، الذى كان مرتبكًا تمامًا، هذه الكلمات على أن يعطيه تأكيدات كبيرة وقسم غليظ. تظاهر مارثيلو بأنه اقتنع بها كلها وأخذه إلى الحديقة، وفتح بابًا مزيفًا كان بين بعض النباتات المتسلقة، وأخرجه إلى الشارع، الذى بصعوبة رآه الشاب المرتبك، ومنه ذهب إلى بيته، تصارعه أفكار كثيرة وقرر أشياء كثيرة دون أن يحل منها أى واحدة، ومن شدة تعبه ترك نفسه يسقط على السرير، وهو يتمنى الموت.

خرج مارثيلو بعد أن صرف ليساردو، وقال لأنتندرو: "لابد أن هذا الرجل أهانك، لأنه لم يكن موجودًا حيث أبلغتنى ولا فى أى مكان فى بيتى، وأحذرك وإلا أعاقبك بما تستحق لأننى اعتبرك كذا، وأن القضاء سيعاقبك بسببى. مَنْ قال لك بأن ذلك الرجل قد دخل لإهانتى؟". أجاب أنتندرو وهو مرتبك: "يا سيدى، إنها خادمة لديكم اسمها فينيسا".

"إذن اذهب مع السلامة لأعمالك، فأنت لا تعرف البيت الذى تسىء إلى سمعته ولا السيدة التى هى عندى، فأنها حانقة جدًا من هـذه الأفكـار الحقيرة". خرج أنتندرو مرتبكًا وحائرًا بهذه الكلمات، ولم يتجرأ علـى العودة لمنزل ليساردو، بل على عكس ذلك سـعى للاختبـاء لـبعض الأيام. مارثيلو الذى كانت لديه معلومات مختلفة عن فضيلة لاورا، كان حائرًا بين الثقة والألم، وحزينًا بين السمعة الضائعة والحقيقـة، صـبر بشجاعة إزاء خيبة الأمل حتى تحين الفرصة لكى يرضى نفـسه؛ لأن صاحب الشرف لا يتعرض لمثل هذه المعركة القاسية. قال: "آه، لاورا خائنة! هل ممكن أن يكون بين كل هذا الحسن والكمال مكان يحتـوى رذيلة غير شريفة ؟ فكلماتك الهادئة ووجهك الشريف كانت تخفى روح تتعامل بهذا الشر. أأنت، يا لاورا، خائنة للـسماء، ولوالـديك، ولـى ولواجباتك! لكن، فى ماذا أشك، إذا كنت قد رأيت بعينى ولمست بيدى الشريك الوحشى لجريمتك. كيف أستطيع أن أشك أيضًا أنه حتى هـذا الرباط المقدس لم يردع مسلكك السيىء تجاه ثقتى فيـك، ولا الوضـع الشرس لتعاستى أمام واجبات الشرف التى ولدت بهـا؟ أنـا رأيتـه، يالاورا، لا أستطيع أن أشك فيما رأيت، ولا يوجد مهرب لإهانتى، ولو أنه مع إهانات الغير يصير وجه الآخر قبيحًا فى نظـر الإنـسان. يـا حزنى، ماذا سأفعل فى طلب موتك، أكثر من أنـك سـتفقدين الحيـاة، لأننى سأقتل منْ أحب إلى أقصى درجة، فإننى أعانى فى الوحدة هـذا التخيل أكثر من معاناتك فى الألم".

هكذا كان يتحدث مارثيلو مع نفسه، وكان يجبر وجهــه علــى السعادة الزائفة المصطنعة مع إحساسه بأكبر أسباب الحزن. وأخذ يقدم الهدايا للاورا، كمَنْ يودِّع الضحية كى يضحى بها من أجل الكرامــة، ولكى يبرر لها ذلك، وعندما كانت فى الخارج، وبمفاتيح مقلدة بحــث فى كل مكاتبها. فوجد صورة لليساردو، وبعض الخطابات، وشــرائط، وأشياء تافهه، يسميها الحب هدايا، والجــوهرتين. هــذا مــا يحفظــه العشاق؛ حيث يوجد الخطر، ماذا كانا ينتظران يا سيدة مارثيا! إذن عند الوصول للخطابات، كم من سوء اقترفتما مَنْ لا يرتعــد مــن كتابــة خطاب؟ مَنْ لا يقرأه عدة مرات قبل أن يضع توقيعــه عليــه! يفعــل الرجال شيئين لهما خطر كبير دون أخذهما فى الاعتبار: كتابة خطاب، وأخذ صديق إلى البيت، فمن هذين الشيئين تعرضت الحياة والــشرف للكوارث والنكبات. وقد علمت لاورا بكل مــا حــدث، ولأنهــا رأت مارثيلو سعيد جدًا، تصورت فى بعض الأحيان أنه من أولئك الرجــال الذين يسامحون بصبر محمود عيوب نسائهم، وأحيانًا أخــرى، يكــون فيها أكثر سعادة، كانت تتصور أنه ينتظر الفرصة التى يأخذهما معًــا على غرة، وكانت ترى فى تصورها أنها وليساردو كانا يحترسان حتى لا تكون هناك فرصة لذلك، ومع أن مارثيلو لم يرغب فى الحكم علــى الإهانات القادمة، فقد كان لديه الحكم على ما سبق. بهذه الأفكار سعى فى كثير من الأحيان لإحداث وقيعة بين ذلك العبد ولاورا، قائلاً لها إنه يتمنى أن يتخلص منه، لأنهم قالوا له إن ذلك العبد يكرهها، وإنه قــرر ألف مرة قتله؛ لأنه يجب ألا يكون لديه فى بيته مَنْ لا يعبدها ويخدمها.

لاورا، وهى غافلة عن هذا، أخذت تسىء فى معاملتها مع سليم بالفعل وبالكلمة، وتسببت فى معاقبته علنًا، وهو ما كان يرضى مارثيلو بشكل واضح، ووصل هذا الأمر إلى أقصى درجة، حتى أصبح البيت كله، وكذلك الجيران، يعرفون بأن لا شىء يكرهه العبد أكثر من سيدته. ظنت لاورا بأن هذا العبد كان هو الرأس المدبر وراء خيانة أنتندرو، وبهذا كانت تتمنى موته وكانت تطلب ذلك بالتدريج، دون أن تجرؤ على طلب بيعه من مارثيلو، لأنه خارج المنزل لن يهين كرامتها. عندما رأى مارثيلو بأن ذلك الكره أصبح علنًا بصورة كافية، استدعى سليم، وأغلق عليها الباب فى حجرة سرية، وبعد مقدمات طويلة، حثه على قتل لاورا، وأعطاه كيسًا به ثلاثمائة أسكودو. فى نهاية الأمر، فإنَّ سليم البربرى، الذى كان غاضبًا من سيدته ومؤيدًا من مارثيلو، الذى أعطاه كذلك حصانًا لكى يهرب حتى الساحل؛ حيث ينتظر سفن الجزائر، التى كانت تجول هناك عادة بين الفاكس وقرطاجنة، عندما حانت الفرصة، دخل بوجه فظيع وبعزم أكيد، وعندما وصل إلى قاعة استقبال لاورا، سدد لها ثلاث طعنات، سقطت على أثرها فوق الوسائد وهى تصرخ صراخًا حزينًا. ودخل مارثيلو على الصراخ الذى أطلقته الخادمات، وكان ينتظر الحدث بحرص شديد، وبالخنجر نفسه الذى نزعه من يديه سدد لسليم عدة طعنات، وكان يساعده على ذلك أيضًا فابيو وباقى الخدم، ودون أن يستطيع أن

يقول مَنْ الذى أمره بقتل لاورا، استسلمت الروح الشريرة(*). جاء على أثر هذا الحادث التعيس الجيران، والأقارب، والعدالة ووالديها، وبين دموع الجميع كانت دموع مارثيلو هى الأكثر حزنًا، والأكثر صدقًا -وهم الذراع القوى فى ذلك الحين - استلم الفتيان جثمان العبد، وحملوه إلى الحقل، بعد أن سحبوه عبر شوارع كثيرة، وغطوه بالأحجار. قال الشيخ المنكوب والد لاورا، وهو يحملها بين ذراعيه: "آه، يا ابنتى، والعزاء الوحيد فقط لشيخوختى! مَنْ كان يظن أنك كنت تنتظرين نهاية حزينة جدًا، وأن جمالك يُرى ملطخًا بدمك نفسه على يد كلب بربرى من أتعس أرض فى العالم! آه يا موت! لماذا حفظت حياتى لعمر طويل؟ أو لماذا تريد أن تقتل شخصًا شديد الضعف بسم شديد الفتك؟ آه، ليتها عاشت ولم تمت بخنجر من بنى أهلها!". ليساردو، الذى وصلته بسرعة الأخبار الجديدة عن هذه الكارثة، أتى، وهو فاقد الرشد، إلى بيت لاورا، وهو مختلط بين ارتباك الناس، فرأى جمال الزهرة اليانعة ممددًا فى تلك القاعة، كما كانت معتادة فى العصر، وقد أذبلها لهيب الشمس.

كانت الدموع مسموحًا بها للجميع هناك، وكانت دموع ليساردو على سوء حظه، وكان مارثيلو يعلم جيدًا فى أى مكان من جسده كان

(*) لم يذكر المؤلف شيئًا لكى يبرر وصفه لروح "سليم" بأنها شريرة، ونظن أن كون العبد مسلمًا كان يكفى للتبرير على الأقل من وجهة نظره. (المراجع)

يؤلمه ذلك الحادث الدموى. فرغ المنزل من الناس، وانسحب ليساردو إلى بيته، ولم يخرج منه طيلة أربعة أشهر، ولم يروه يتحدث مع أحد خارج أسرته. كان مليئًا بالتنهدات وبالدموع فظهر كأنه كان يتغذى على الدموع والتنهدات أكثر من الطعام العادى. وفى أثناء ذلك تخلص مارثيلو من فينيسا بالسم، دون أن يعلم أى شخص السبب العنيف لوفاتها، وسعى كثيرًا فى البحث عن أنتندرو، ولأنه كان يعلم أين يبيت، انتظره ذات ليلة، ونادى على بابه، وضربه فى ظهره برصاصتين من مسدس. كان ينقص فقط من عقابه لإتمام الانتقام ليساردو البائس، الذى حجبه شدة حزنه عن الناس، فقد كان من المستحيل مسح هذا الحزن. كان من الممكن أن يكتفى هذا الفارس بقتل ثلاثة أشخاص انتقامًا لشرفه، وإذا كانت وصمة بواسطة قوانين العالم، فماذا سيغسلها جيدًا أكثر من كثرة الدماء؟ إذن، يا سيدة مارثيا، مع أن القوانين تسمح بهذه الرخصة للأزواج بسبب الألم القاسى، فليس هذا بالنموذج الذى يجب أن يقلده أحد، لكننا نكتب هذا هنا لكى يكون عبرة للنساء اللائى لهن شهوة جامحة تدفعهن إلى المغامرة بحياتهن وشرفهن لمتعة زائلة، فيها إغضاب كبير للرب، وإهانة كبيرة لآبائهن، ولأزواجهن ولسمعتهن. وكنت أظن دائمًا أن وصمة العار لا تغسل جيدًا من الإهانة بدماء مَنْ تسبب فى الإهانة؛ لأن ما حدث قد حدث، وليس من العقل الاعتقاد بأنها تمحى إهانة المُهان، لأن منْ تسبب فى الإهانة قد قتل؛ ففى هذا أن المُهان يظل بإهانته والآخر ميت، يشبع فقط رغبات الانتقام، لكن ليس فى هذا رفع لقيمة الشرف؛ لأنه لكى يكون الشرف كاملاً فيجب

ألا يكون مهانًا. مَنْ الذى يشك أن هذه معارضة لهذا المنطق؟ وعلـــى الرغم من أنها معارضة غير صريحة فإننى أقول إنه لايجب أن يعانى ذلك أحد ولا أن يُعاقب أحد بسببه؛ إذن، ما الوسيلة التى يجب اتباعها؟ الوسيلة التى يجب أن يأخذ بها رجل وقع له أى نوع مـــن الكـــوارث: فقدان الوطن، أن يعيش خارج وطنه فى مكان حيث لا يعرفه أحد، وأن يحتسب للرب هذا الحزن، وأن يتذكر بأنه يمكن أن يحدث له الـــشىء نفسه إذ عاقبه الآخرون بسبب إحدى الإهانات التى تسبب لهـــم فيهـــا. ليس من العقل أن يتمنى الإنسان أن يعانى الآخرون بسببه وألا يعـــانى هو بسبب الآخرين؛ أقول معاناة، أى إننى أقصد التخلـــى عـــن القتـــل بعنف، إذ إنه من أجل أن ينزع منه الشرف فقط – وهو شىء تافه فى هذا العالم – يريد هو أن يحرمهم من نعمة الحياة التى وهبهـــا الـــرب فينزع أرواحهم.

وأخيرًا، مضى عامان على هذا الحادث، وفى نهايتهمـــا كـــان ليساردو قد تماسك، إذ إن الزمن يستطيع معالجة الجروح، وفـــى يـــوم من أيام صيف حار خرج للاستحمام فى النهر. وعلم بـــذلك مـــارثيلو، الذى كان يتبعه دائمًا، وعندما تجرد من ملابسه فى تلك الليلـــة، أخـــذ يسبح حيث كان هو، وربطه بقوة، ومع الاضطراب والماء فَقَدَ الـــوعى وغرق؛ حيث كشفه الصباح على ضفاف النهر وسط ألم كبيـــر لكـــل المدينة.

وكان هذا أعقل انتقام، إذا كان هناك انتقام يمكن أن يسمى بهـــذا الاسم، ليس مكتوبًا، كما قلت؛ ليكون مثلاً للمهانين، بـــل عبـــرة لمَـــنْ

يهينون، ولكى يُرى كم أن المثل كان حقيقيًا من أن المهـــانين يكتبـــون على الرخام إهانتهم، وعلى الماء يكتب الذين يهينـــون؛ إذ إن مـــارثيلو كان يحمل فى قلبه الإهانة، كما لو كانت منقوشة على رخـــامٍ صـــلب، على مدى عامين، وليساردو كانت بالنسبة له كما لو أنها كُتبت علـــى المياه التى غرق فيها.

قُزمان الشجاع

إذا كنتم حضرتكم ترغبون فى أن أكون أنا كـاتبكم الروائـى، حيث إننى لا أستطيع أن أكون مغازلكم، فسيكون من الضرورى، بل من الواجب، أن تعاونونى وأن أحظى بالشكر الذى يشجعنى. يميز شيشيرون بين نوعين من التحرر: تحرر نابع من الذات، وتحرر ناتج عن المكافآت. يسمى النوع الأول "محمودًا" ويسمى النوع الثانى "منقادًا". لا أريد الوقوع فى هذا العيب؛ ولكن بما أننى لا يجب أن أطلب رشوة، ولا أريد أن يضيع حقى، فليس من العقل أن تدفعوا لى حضرتكم كما دفع إنياس لديدو، عندما أحاله إلى الآلهة، وقال:

إذا كانت السماء تكافئ الرحماء،

إذا كان فى السماء عدل،

وتعرف النفوس البشرية،

فستمنحك جائزة كريمة.

كان ذلك رأى الفيلسوف الذى كان يتمنى الجائزة بالطبع، وقـال الشاعر الرومانى الساخر:

لا أحد، إذا نزعت منه المكافأة،

يحتضن الفضيلة.

ومع أن النعمة تتبع مَنْ يقدمها، ولا تتبع من يستقبلها، أعتقد أننا يجب أن نكون- حضرتكم وأنا- كالفارس والفلاح الذين يشير إليهما فايرنو، وهو مؤلف لم تسمعوا سيادتكم عنه، ومصوِّر مناظر كبير لأساطير إيسوب(٦٧). يقول: كان هناك فلاح يحمل أرنبًا بريًا مربَوطًا من رجليه - هكذا يسمى القشتالى تلك الرابطة التى تجعل القدمين موثوقين، بعد موته - أوقفه فارس، ربما كان قد خرج إلى الحقل للاستمتاع وهو يمتطى جوادًا رشيقًا، وعندما سأل الفلاح إذا كان سيبيعه، فقال له نعم، وطلب منه أن يبينه له، وفى الوقت نفسه سأله عن الثمن الذى يريده فيه. وضع الفلاح الأرنب البرى بين يدى الفارس، معتقدًا أنه يريد أخذه بالوزن، وقال له الثمن، لكن لم يكد الفارس يأخذه بين يديه، حتى وخز الحصان بالمهماز، وانطلق به بعيدًا. جعل الفلاح المهان من الحاجة فضيلة ومن الإهانة صداقة، وظل يقول: "أقول لحضرتكم، ياسيدى، إننى أقدمه لكم هبة، فكلوه مجانًا، كلوه بسعادة، وتذكروا أننى أعطيته لكم بإرادتى، لأننى صديق طيب". ورد ذكر هذا بالصدفة هنا، بحيث لا تكون هناك حاجة للبحث عن تطبيقات السيد دييغو روسل دى فونيانا، وهو سيد كان يدعى فارس ممالك إسبانيا؛ طبع كتابًا فى نابولى عن *"التطبيقات"*، يجب ألا يظل دون اقتنائه أى شخص مصاب بوسواس المرض؛ من الواضح

---

(٦٧) إيسوب: يرجع للقرنين السابع والسادس قبل الميلاد؛ كاتب أساطير يونانى، هو شخصية نصف أسطورية، وتنتسب إليه مجموعة من الأساطير المعروفة منذ نهاية القرن الخامس ق.م، وكان لها تأثير كبير.

إذن أنكم ستدفعون لى ثمن هذه القصص لأننى أثق فى حضرتكم. وهكذا، يبدو لى أنه من الصالح أن أبدأ هذه القصة، قائلاً من خلال النكتة السابقة: "خذوها حضرتكم، فأنا أعطيتها لكم بإرادتى"، مع أن هناك فرقًا بين الفلاح وبينى؛ حيث خدعوه دون أن يفهم ذلك، وأنا أترك نفسى للخداع مع أننى أفهم ذلك.

فى إحدى مدن إسبانيا – اسمها لا يهم ذكره فى الحكاية – درس منذ حداثة سنه السيد فليكس، الذى ينتمى لعائلة قُزمان[٦٨] العريقة المشهورة، ولم يسئ فى أى من تصرفاته أو أفعاله مطلقًا لدمائه النقية. هناك جدل بين كتاب إسبانيا حول هذا اللقب، فالبعض يريد أن يجعله ينحدر من ألمانيا، والبعض الآخر ينسبه للقوطيين، مشتقًا من اسم غوندمارو. أنصار الجهة الأولى يرون فى هذه الدماء البداية الناصعة، وأنصار الجهة الثانية يرون أنها هى البوتقة التى صهرتهم؛ وعلى أى حال، فهم عظماء الزمن العريق، وفى عائلتهم كان هناك رجال مشاهير وعظماء، كما كان كذلك السيد بدرو رويث دى قُزمان، عام ١١٠٠، والسيد ألونسو بيريث دى قُزمان[٦٩]، مؤسس عائلة مدينا

(٦٨) قُزمان: عائلة إسبانية ارستقراطية يرجع أصلها إلى مدينة ليون، بين أعضاء هذه الأسرة يبرز خوان ألفونسو قُزمان، دوق مدينة سيدونيا (متوفى عام ١٤٦٨)، وإنريكى قُزمان، وهو ثانى كونت لأوليبارس (١٥٤٠-١٦٠٧)، وابنه غسبار دى قُزمان وبيمينتل كونت ودوق أوليبارس.

(٦٩) قُزمان الطيب (يسمى ألونسو بيريث دى قُزمان)، هو السيد الأول فى سان لوكار دى بارّاميدا، (ليون- ١٢٥٦)، وتوفى فى سييرا دى (مالقة، ١٣٠٩) وهو رجل أرستقراطى ومحارب قشتالى. وعضو فى عائلة قُزمان؛ دافع عن فريقه ضد بنى مرين وأدار غزو جبل طارق (١٣٠٩).

سيدونيا، الذى يسمى قبره "السعيد"، وغيره الكثيرين، من الرجال الجديرين بالذكرى الخالدة مثل: السيد بدرو دى قُزمان، ابن الدوق السيد خوان الأول، كونت أوليبارس، الذى قام بمآثر عظيمة وقيِّمة فى خدمة الإمبراطور كارلوس، هذه البطولات يمكن أن ننحيها جانبًا – دون أن يكون فى ذلك إهانة له– نظرًا لشجاعته ولمكانته العظيمة. كان السيد فليكس يدرس، كما أقول، واغفروا لى حضرتكم الاستطراد – حيث أدين بالكثير لهذا البيت العريق الشهير جدًا– فى المدينة التى بدأت فيها أحداث القصة. كانت صفات هذا الفارس عظيمة ورفيعة المستوى، مما جعل الطلاب المحليين والأجانب يحبونه بإخلاص كبير، وكانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم من أجله، ولم يشعروا بأنهم خارج أوطانهم. قام ببعض التصرفات التى تدل على ذكاء كبير جدًا، فلا يبدو فى النهار من حيث الذكاء أنه هو من كان يخيف الناس فى المساء بجسارته الهائلة، وكان يبدو كشخصين مختلفين، ولم يعرف كيف كانت الليونة الزئبقية لذكائه تجد مكانًا للتعايش مع الشراسة الحربية للجسارة. الطالب الذى كان يدافع عنه، كان يضمن النجاح بشكل أكيد، ومع أن مغامراته الليلة كانت تؤدى إلى بعض المشاجرات، فقد كان يخرج منها جميعًا منتصرًا، فعندما يساعد حسن الحظ الفضائل الطبيعية، فلا يوجد عدو يهين ولا مقاومة تكفى. وفى هذا الجزء أعترف بأن رسوم العلامات أعتبرها رموز الشرف؛ لكن عند الوصول إلى المؤلفات الفاضحة، فإننى أعتبر صاحبها جبانًا وأن يده امرأة. وضع السيد فليكس نهاية لدراساته، أو على الأقل انتهت ميوله

للدراسة، التى لم ترشده إلى ما كان يرغب عبر ذلك الطريق: هذا دون أن يحرِّض قوى النجوم، التى لم يخلق الرب الإنسان من أجلها، بل خلقها من أجل الإنسان، إذ إن السيد فليكس لم يخرج من وطنه دون سبب.

أخذه ليونيلو فى بعض الليالى لحمايته، وليونيلو هو فارس شاب، صديق له دعته فى بيتها سيدة جميلة؛ لكنها قليلة القدر، وقد بلغ علمها أن السيد فليكس سيظل فى الشارع لعدة ساعات، ولما كانت تميل إليه نظرًا لسمعته، وتشعر بالحزن لسهره، فضلاً عن أن الجزء الأعظم من النساء اللائى لهن ذلك السلوك يطمحن إلى مَنْ هو فى الشارع أكثر من الذى يظل فى البيت، فتوسلت إلى ليونيلو بألا يسمح أن يمضى فارس مثل فيلكس وقته وهو يشعر بعدم الراحة، بينما يتسلى هو فى هذا الوقت نفسه، فضلاً عن كونه وضع غير مهذب، فقد يتسبب فى أذى لسمعتها رجل يمضى طوال الليلة فى الشارع، أكثر من الأذى الذى يسببه وجود اثنين فى البيت. هذا الدرس قد تعلم، فعن طريق المعجزة لا يرى رجل على باب، ولا على نافذة، كما كانوا يشاهدون فى أزمان أخرى، واعتقد أن ذلك يجب أن يكون أأمَن شىء، إذا لم يكن أشرف شىء، لأن النساء تعودّن على أن يخسرن من أجل حصان على الباب أكثر من أن يخسرن من أجل زوج فى الصالة، وخادم نائم يعرف أكثر من جار مستيقظ؛ حيث يوجد مَنْ يسهرون لكى يروا ما يعرفونه، ويوجد آخرون يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئًا. كان فارس يتحدث ذات ليلة مع سيدة من اللائى لا يمكنهن أن يفتحن الباب، مع

أنهن يرغبن فى ذلك، وأخذت جارة فى البيت المقابل على عاتقها مهمة مطاردتهما ربما بعينيها، فلا هما يتحدثان ولا هى تنام. كان الفـارس يستعين بقوس قذائفه من الصلصال، ومن إحدى النواصى كان يقـذفها بالتقريب، وهو أفضل ما كان يستطيعه؛ لأنه مع عتمة الليل لـم يكـن هناك أكثر من الرغبة فى إصابتها. وعندما رأت الجـارة الفـضولية الخطر الذى كانت فيه والذى يمكن أن يحطـم عينيهـا، لـم تـستطع السيطرة على نفسها فى عدم رؤية إذا كانا يتحدثان وتسمع مـا كانـا يقولان، فأخذت قدرًا، وأدخلت فيه رأسها، وأخرجته من النافذة، فـإذا اصطدمت بالمصادفة قذائف الصلصال بالقدر فإنها تحدث ضوضـاء، توقظ بها الجيران، وكان من المحتم أن ينـصرفا. اسـتطاعت فليثيـا بسهولة أن تجعل السيد فليكس يزورها؛ لأن ليونيلو تأسف لمـا كـان يحدث بسببه وشعر بالالتزامات التى كان يفرضها عليه. صعد لرؤيتها بثياب الحراسة، وله حبل من جلد الأيل فوق صـديرية مـن النـسيج، وسروال ومعطف من القماش، وجوارب وأربطة من العاج، وقبعة ذات حافة كبيرة، دون قيطان ولا شريط، وفى الحزام الدرع، وفـى يديـه السيف.

كان السيد فليكس أسمر، وكان ظرفه يفوق حسنه كثيرًا، وكـان شعره أسود والزغب فى منبت شاربه كذلك، وكان جميل الشكل ويزينه قوام رشيق بشكل واضح، كما كان يتحلى بالتواضـع والأدب، وكـان يرتدى ياقة من النسيج من أجل التنكر يسمونها تلبيب، وهو ثوب قبـيح للرجال الإسبان، لم يكن مصممًا طبقًا لمعايير الأناقة الحالية. لـم يكـد

السيد فليكس يتحدث لبرهة مع فليثيا، حتى وعدت نفسها فى الخيال أنها ستكون امرأة سعيدة إذا استأثرت بقلبه، وفى الليل أخـذت تبـوح لـه بمكنون قلبها بالعينين، خلسة وبعيدًا عن ملاحظة ليونيلو، الذى أحـس الألفة التى كانا *يتعاملان*(٧٠) بها. هذه الكلمة، يا سيدة مارثيـا، كلمـة إيطالية، فأرجو ألا تنزعجوا حضرتكم، حيث إنه يوجد مَنْ يقول بـأن هناك فى العالم العديد من النوادر الجميلة جدًا فى لغتنا، بحيث أنـه إذا كانت جملة فظة هاربة من اللغة اليونانية، أو اللاتينية، أو الفرنسية ،أو من داخل ليبيا، فمن الممكن ضمها إلى لغتنا، التـى أصـبحت كبيـت السفير؛ بحجة أنه لا يجب أن تتحدث بكلام عادى؛ لأنه يعتبر سـوقى منحط. وبعد أن استغرقت الكثير من الوقت فى قرارات وظنون، كتبت فليثيا ما يلى:

" يبدو أن حضرتكم لا تفهمون الطريقة التـى اعتقـدت بـأننى أستحق أن تتعاملوا بها معى، إذ إنكم فى كل يوم تُبدون لى رغبة أقل، فربما قد عرفتم عيوب شخصيتى وذكائى مع كثرة المعاملة. مـع كـل هذا، أتوسل لحضرتكم، كفارس، أن تساعدوا امرأة أعطـت الفرصـة لهذا الجنون، إذا كان من الصواب أن نطلق هذا الاسم على الآثار التى تترتب على هذه العلاقة".

---

(٧٠) يذكر المؤلف فى النص الأصلى كلمة باللغة الإيطالية، ولأهمية ذلك فى النص ذكرنا ما يقابل هذه الكلمة بالعربية وبالخط المائل، حتى يفهم القارئ سياق الكلام، ويلاحظ التوجه المستمر للوبى دى بيغا فى حديثه للسيدة مارثيا ليوناردا.

دهش السيد فليكس من خطاب فليثيا؛ لأنه فى بعض الأحيان كان يدرك أن معاملتها كانت تزيد عن الحد المعقول للرغبة الأليفة، ولم يكن يظن أنها ستصل مطلقًا إلى قرار مجنون جدًا، فأجاب هكذا:

"علمنى التزامى نفسه كفارس ما هو الاحترام الواجب نحو الأصدقاء، وفى هذا الجانب لا أستطيع أن يكون أدبى أكبر من إرادتى التى يفرضها العقل. لهذا سيكون من الواجب أن أنسحب رويدًا رويدًا حتى لا أمنح لحضرتكم فرصة أكثر؛ فلا الصديق سيفهم ذلك، ولا أنا سأترك التعامل معكم طالما أرافقه".

أحست فليثيا بهذا الرفض ، ولم يحدث لها ما كانت تخشاه العجوز ديبساس، عندما كانت- فى مقطوعة الرثاء ذات الثمانية أبيات التى عنوانها *العشق*، لأوفيد- كانت تعلِّم سيدة من نساء البلاط فن التعامل مع الوجهاء:

لا ترضى له أن يعانى كثيرًا،

لأن الحب المرفوض فى كثير من الأحيان

يفتر.

اشتعلت فليثيا أكثر بهذا الاحتقار المفاجئ، وبدا لها كأنها أول معركة، ولتأكدها مما يمكن أن يفعله الإصرار، كتبت هكذا:

"يا سيد فليكس، فى زمن الفرسان السائرين، كان يجب استخدام هذا النبل فى التعامل، وليس فى هذا الزمن الذى فيه الأكثر زيفًا هو

الأكثر تعقلاً، والأكثر خيانة هو الأكثر متعة. اتركوا حضرتكم ذلك الإخلاص لأماديس دى غاولا؛ لأن صديقكم لن يعرف ذلك كى يشكركم عليه، ولا باحتقاركم لى. فحضرتكم مجبرون على أن تكونوا لى لسبب طبيعى، وهو أنكم نزعتم منى الرغبة نحو ليونيلو، الذى لن يكون له مكان فى حياتى، وليس من المنطق أن أفقد كلاً منكما".

أحزن هذا الجنون الواضح السيد فليكس، ومع أنه كان قد قرر ألا يرد كى لا تعود وتكتب إليه، كتب لها:

"يا سيدة فليثيا، استُخدم دائمًا فى العالم، اللفظ الذى يُلزم الفرسان فى كل المناسبات بواجب عليهم، فإذا كان الزيف تعقلاً والخيانة متعة، فسيكونان أبناء غير شرعيين لشخص - مثلى أنا - ورث النبل عن أبويه، فلا يعرف فى العالم قوانين غير قوانين الشرف، ومن يبيع صديقه، فليس لديه شرف أو كرامة".

من هذه الرسائل وغيرها بدأ يخيب الأمل وتضيع الرغبة عند هذه السيدة الحمقاء جدًا؛ لأن الإصرار مسموح به للرجال فقط وهم عاشقون، فلا يجب على النساء أن يقلدن الرجال فى مثل هذه الأفعال، ولا يجبرنهم بعذوبة الكلمات على ارتكاب الأفعال الدنيئة. لكن حالة الحب واضحة جدًا، وهى على عكس كل الأشياء، تفسد كى تعود للتكاثر من جديد، وفى قليل من الأحيان ينتهى الحب أولاً وتكون الخطوة التى تليه هى الكره. بدأت فليثيا تكره السيد فليكس، وبما أنها لم تعد تراه ولا تتحدث إليه كما كانت معتادة، أصبح ليونيلو يشك فى أنه

حدث شيء جديد جعل هؤلاء النساء يحذرن السيد فليكس. أقنع فليثيــا مع شدة الغيرة بأن تخبره عن السبب – وهى مستغلة الفرصة – جعلته يفهم أن السيد فليكس كان يراودها عن نفسها، وبينت له الخطابات التى كتبها لها، فمزقها فيما بعد.

اكتفى الرجل المخدوع بأن عرف الخط، واشتكى مــن خيانــة صديقه، كما لو أن الخيانة لا تحدث قط، مع أنها تحدث كثيــرًا، إذ إن الرجال، إذا كانوا متعقلين، يجب أن يحذروا فقط من أصدقائهم. حاولت فليثيا إرضاء نفسها، متمنية أن تفقد الرجلين معًا.

أتى إلى هذه المدينة فارس من مملكة أخرى، يسمى فــابريثيو، بدأ معه ليونيلو صداقة جديدة، وأخذ يبتعد رويدًا رويدًا عــن الــصداقة التى كانت تربطه بالسيد فليكس، وعلم فليكس بذلك؛ لأن الوجه يقول ما يحدث فى القلب، فلكونهما أصدقاء جدًا، لم يخف عنه سرًا قط: وهــذا مثل يجب أن يأخذ به الرجال، إذ إن الوجه لا يظل على الحالة الأولى نفسها، بل إنه يتغير على فترات. بهذا أخذ السيد ليونيلو يتحدث بــسوء عن السيد فليكس. فليسترنا الرب من عداوة الأصدقاء! هناك الكثيرون الذين بزعم الصداقة يتسببون فى الحزن، والدسائس والمكر بالكلمــات، التى ينقلوها من مكان لآخر، وصل ذلك إلى علم السيد فلــيكس الــذى كتب له هذا الخطاب. وإذا كان يبدو لحضرتكم يا سيدة مارثيــا أنهــا خطابات كثيرة بالنسبة للقصة، فإنكم تستطيعون بسهولة استبعاد التــى ترونها زائدة:

"بعدما أخذت مودة حضرتكم تضعف معى. دخلت فى شـك أن ذلك قد يكون له سبب، وبما أن حضرتكم لم تعطونى سببًا لهذه النهايـة السيئة. رأيت أنكم نسيتمونى وإننى كنت مخدوعًا، إذ إنهم يقولون لـى: بأنكم تذكرونى، فى كل مكان، بعداوة لا أستحقها، فما أتوسل به إلـى حضرتكم سيكفى للاعتذار؛ لأننى لو تصرفت بشكل آخر سـيدل ذلـك على جحود كبير جدًا".

أجابه ليونيلو، الذى كان مستعدًا، كالحطـب الجـاف لاسـتقبال اللهب:

"كل ما فعلته له سبب عادل، إذ ليس هناك أكبر بين الأصـدقاء من الخيانة، سأفعل ما تأمر به، من أجل ألا أتذكر مَنْ قابل حبى له بأن أحب شخصًا تعلمه أنت".

دُهش السيد فليكس، وسامح تمامًا ليونيلو، بعدما علم بأن فليثيـا قد خدعته، بحيلة دنيئة من حيل النساء، ولم يجد علاجًا مُرضيًا يصحح به هذا الوضع، فقرر أن يتوسط صديق لهمـا فـى محاولـة للقيـام بالمصالحة من جانبه، والذى ردَّ عليه ليونيلو قائلاً: "أبلغ السيد فلـيكس بأننى قد رأيت خطابات له، وأنه يعلم جيدًا بأننى أعرف خطه". رحـل السيد فليكس إلى منزل فليثيا، وهو يفسح مجالاً أكثر للغـضب، وهـذا ضد طبيعته الهادئة، فذهب كالأعمى؛ لدرجة أنه اصطدم فى الـشارع نفسه بليونيلو، ولم يره، ودخل حانقًا من الباب حتى وصل إلى غرفـة استقبال فليثيا التى نهضت وهى تبدو عليها علامات الفرحة ؛ لاستقباله

بين ذراعيها. تابعه ليونيلو ووقف خلف ستارة من القماش. حينئذٍ قال السيد فليكس بوجه غاضب "لم آت من أجل ذلك". فأجابته فليثيا: "إذن لماذا أتيت، يا سيدى؟"، ودون أن تتركه يتحدث، أخذته من يديه وأخذت تهدئه وتداعبه فى حب. ففقد ليونيلو رشده مما كان يراه، ولم يدرك نية السيد فليكس، فدخل إلى القاعة ووضع يده على السيف، وقال: "هكذا يجب معاقبة الخائنين". تراجع السيد فليكس- حيث توجد أحيان تكون فيها محاولة إظهار الحقيقة جبنًا- وأخرج سيفه، وعندما أحكم الإمساك بقبضته، سدد إليه طعنة فى الصدر، سقط ليونيلو فى إثرها قتيلاً.

خرجت الأصوات المعتادة، والعدالة هى العدالة كما هى دائمًا، والإجراءات هى الإجراءات المعتادة؛ فوجدت فليثيا نفسها أمام مكروه. اسمحوا لى حضرتكم أن أترك هذا المقتول، و أذهب مع قُزمان الشهير، الذى أصبح شجاعًا، من الآن فصاعدًا فى تلك البلاد.

عزم سليم، السلطان التركى الكبير فى هذا الوقت، مع باشوات من بلاطه على أخذ جزيرة قبرص؛ حيث كانت المنافسة فى ذلك العصر كبيرة فى كل أوروبا بين رجال شجعان، من المسيحيين ومن شمال أفريقيا. كان مصطفى القائد الأعلى للأسطول، الذى استولى بقوة السلاح – على الرغم من الجهد الكبير الذى بذله منْ كانوا يدافعون عنها – على المدينة بعد مقتل نيكولا داندولو، وخوليو رومانو، وبرناردينو. ومن هناك ذهب مصطفى إلى فاما جوستا [٧١]، وعاد

---

(٧١) فاماجوستا: مدينة فى الساحل الشرقى لقبرص، بها ميناء، وعدد من الآثار القوطية.

بيالى باشا بالأسطول إلى القسطنطينية. بعد ذلك خرج العشالى من نجروبونتى[٧٢]، وأخذ ألف أسير من كورفو[٧٣]، ومن كانديّا[٧٤] وبيليمو، ولم تكن هذه المدن بأقل دمارًا من الزانتى[٧٥] والثيفالونيا[٧٦]. من هناك استقر كاتارو بجيش من الأتراك، أتى لمساعدته عبر الطريق البرى. ودافع ماتيو بيمبو عنها بكل استبسال وشجاعة، ويرجع أصله لمدينة فينيسيا. كانت البلاد المسيحية كلها ثائرة من سطوة سليم الذى لا أشير إلى انتصاراته، فليس هذا مقصدى، فقررت أن تتصدى للعدو المشترك، معززة نفسها بجمع قواها ضد هذا البربرى، وقام بهذه الحملة كل من الراعى المقدس لروما، والأب العالمى للكنيسة، بيو الخامس[٧٧]، صاحب الذكرى العطرة، وملك إسبانيا فيليبى الثانى،

---

(٧٢) اسمها الحالى أوبيا، وهى جزيرة يونانية فى بحر إيجا، فى الزمن القديم كانت مدن أوبيا هى (كاليث وإرتريا) ؛ حيث أسست عدة مستعمرات.

(٧٣) كورفو: كانت تسمى من قبل كورثيرا، احد الجزر اليونانية؛ ؛ بها ميناء سياحى، ويزين وجهة متحفها اللوحة الأمامية لمعبد أرتيميا، ويعود للقرن السابع ق.م. استعمرت هذه الجزيرة بواسطة الكورنثيين منذ أواخر القرن الثامن ق.م.

(٧٤) كانديّا: هى حاليًا إيراكليون، وهى مدينة يونانية، وتعتبر مدينة رئيسية فى جزيرة كريت وبها ميناء ومتحف.

(٧٥) زانتى: هى حاليًا مدينة زاكينتوس، وهى إحدى الجزر اليونانية وبها قلعة ومتحف.

(٧٦) ثيفالونيا: هى جزيرة يونانية، وهى أكبر الجزر اليونانية، وتبلغ مساحتها ٧٣كم٢،

(٧٧) بيو الخامس: واسمه الأصلى هو (غيانا تغيلو براستشى) (١٧١٧-١٧٩٩)، فرنسى الجنسية، تولى منصب البابوية (١٧٧٥-١٧٩٩). أمام الثورة الفرنسية، أدان الدستور المدنى لرجال الدين (١٧٩١). وعندما غزت فرنسا الممالك البابوية، كان عليه أن يؤيد مع مجلس الإدارة، معاهدة=

ومجلس الشيوخ الحكيم لفينيسيا. كان قائدًا لهذه الرابطة المقدسة ذلك الفتى اللامع جدًا، الذى يعد شرف ومجد وطننا، السيد خوان دى أوستريا، الذى تحلى بالشجاعة ووافقه الحظ. أخذ هذا الأمير معه لهذا الغرض البطل صديقنا السيد فليكس، بأمر من السيد بدرو دى قُزمان، رئيس خدم الملك فيليبى الثانى ووالد السيد إنريكى الكبير، الذى كان سفيرًا فى روما ونائب الملك فى صقلية ونابولى، وكان كل منهما "كونت" لأوليبارس، فما أدين به لهما كثير جدًا، فأيضًا يسعدنى ذكرهما فى هذه القصة، إذ إنهما كانا: جَدًا ووالدًا للذى هو اليوم بكل سعادة يشرِّف الجيوش والآداب.

نحن لا نملك الطموح ولا الحب.

قد تغفرون حضرتكم ذكر هذا البيت من الشعر بسبب المضمون الذى ذكر أعلاه، وستعلمون أن صديقنا السيد فليكس كان جنديًا فى المعركة البحرية التى كَتبَ عنها العديد من المؤرخين الكثير، والتى تغنى بها الشعراء، فلا يجدر بى الحديث عنها، ولا حضرتكم تسعدون بسماعها، ولو أن بهذه المناسبة يمكننى إرسالها إلى إرّيرا[٧٨] الرائع،

= تولينتينو(١٧٩٧). فى عام ١٧٩٨ أعتقل، بأمر من مجلس الإدارة، فى الوقت نفسه الذى كانوا يعلنون فيه الجمهورية الرومانية. مات وهو فى السجن.

(٧٨) فرناندو دى إرّيرا(١٥٣٤-١٥٩٧): شاعر إسبانى. مؤلف *الحواشى* (١٥٨٠) لغارثيلاسو دى لابيغا، وكشاعر يمثل تصنع الأسلوب البلاغى لمدرسة إشبيلية. تلعب أعماله دورًا رئيسيًا فى تطور الشعر الغنائى القشتالى. كتب الشعر البطولى والدينى، لكنه مارس كتابة الشعر العاطفى، المستوحى من ليونور دى ميلان، زوجة كونت غلبس. كتب أيضًا أعمالاً تاريخية.

الذى كان له شأن كبير فى النثر كما كان له فى الشعر، فأعتقد أنه من الأصح أن يبحث عنها فى أحد مجلداتى المسرحية؛ حيث سيبذل اهتمامًا قليلاً لفهمها. فى هذه المناسبة، كما يقول يجب أن تتحدث لغتنا، فقد صنع السيد فليكس بالسيف والدرع أشياء جديرة بالذكر؛ حيث ترسخ له هناك لقب الشجاع، وفى محاولة منه للاستيلاء على إحدى السفن، خرج باثنين وعشرين جرحًا من السهام والطعنات، فمَنْ كان يراه كان يصاب بالذعر؛ لأنه كان يبدو من كثرة السهام كأنه قنفذ ومن كثرة الطعنات كان يبدو كالثور. لم يكن من الممكن أن يخرج من ميدان القتال بطريقة أخرى، إلا إذا كان ميتًا. حملوه للعلاج، وبمعجزة كتبت له النجاة. وأتذكر فى هذه المناسبة تلك اللوحة المشهورة التى رسمها لوكانو دى كاسيو سثيبا، الذى كتب عنه الإمبراطور يوليوس قيصر، فى كتابه الثالث عن *الحروب الأهلية*، أنه أخرج فى تلك المعركة الخالدة الدرع محطمًا إلى مائتين وثلاثين جزءًا، ويؤكد أنه رآه، وهى شخصية كانت لها سمعة، إذ إنه كان سيد روما، كما كان حينذاك سيد العالم لكن لن نقول عن السيد فليكس ما يقال عن سثيبا لوكانو:

سعيد أنت من أجل اسم بطولى كبير،

إذا يهرب من أمام قوته الألمانى،

والإيبيرى أو الكنتبرى،

إذ إنه لم يستعمل قوته فى الحروب الأهلية، بـل ضـد أعـداء الكنيسة والوطن المتكبرين بالانتصارات المتعـددة، والـدماء الكثيـرة والسرقات المتعددة الظالمة فوق المياه الهادئة للأرخبيل. وضعوا للسيد خوان دى أوستريا تماثيل عظيمة تخليدًا لهذا الانتصار، فمنذ ذلك الحين هدأ غضب آسيا، وعلى هذا تحيا صقلية، مع أن خلود التاريخ أكبـر، حيث لا تموت ذكرى اسمه مطلقًا؛ إذ إن التماثيل البرونزية والمرمرية متعلقة بالزمن، لكن نطاقها لا يصل إلى الـشهرة التـى تحظـى بهـا الشهامة. امتثل السيد فليكس للشفاء ومر بفترة نقاهة، وباسم "الـشجاع" عاش فى نابولى بعض الأيام بتقدير يستحقه من أولئك الأمراء، إلى أن رحل إلى فلاندس[٧٩]؛ حيث استمر يواصل مـآثره وشـهرته لـبعض الوقت وهو يحظى بشهرة واسعة. وقد تعرض هو لـبعض التحـديات بأسلحة مختلفة، وخرج منها مكللاً بالغار، وبإعجاب وتصفيق حار من الجماهير المختلفة؛ التى حضرت مثل هذه الاستعراضات، من الجـيش ومن أماكن أخرى هناك. على طريقة ذلك الشاب المشهور، تشابس دى بباليا؛ الذى انتصر فى روما فى تحد عام على ذلك الألمـانى القـوى

---

(٧٩) فلاندس: هى منطقة تاريخية فى أوروبا الغربية وتشمل (فرنسا، وبلجيكا، وهولندا)، وتقع بجوار بحر الشمال.

جدًا، فى دفاع عن فضل الملك فرناندو الكاثوليكى[٨٠] على ملوك آخرين، حقق هذا النصر السيد فليكس دى قُزمان على قائد فلمنكى، طلب منه أن يُظهر قدرته على حمل السلاح، فأمر هو بتصنيع بعض الهراوات التى تزن حوالى مائة وأربعة وثمانين كيلوجرام، رفعها الخصم بصعوبة من الأرض، أما هو فقد رفع الحمولتين برشاقة وسط دهشة الجيش. تعلمون حضرتكم جيدًا أننى دائمًا أتوسل إليكم؛ حيث يبدو لكم أننى أزيد عن ما هو معقول، فاحذفوا واتركوا ما قد يخدم الغرض. هذه الأسلحة ثقيلة جدًا، لكن لهذا السبب لا يجب على القارئ أن يحملها على عاتقه، وهذه ليست قصة، بل هى نوع من اختلاط الأشياء التى من الممكن أن تكون حقيقية، حتى لو أكدوا لى أنها أشياء حقيقية تمامًا، كما قال الشاعر القشتالى القديم:

لا تحك عن الأشياء التى تثير الدهشة؛

لأن الناس لا تعرف كيف تكون هذه الأشياء.

---

(٨٠) فرناندو الكاثوليكى (١٤٥٢ ـ ١٥١٦): كان ملك قشتالة إلى جانب زوجته ايسابيل الأولى (١٤٧٤ـ ١٥٠٤)، وتولى عرش أراغون (١٤٧٩ ـ ١٥١٦)، وصقلية (١٤٦٨ـ ١٥١٦)، وكذلك عرش نابارًا (١٥١٢ـ ١٥١٦). جمع زواجه (١٤٦٩) ممالك إسبانيا، اكتشفت أمريكا اللاتينية فى عصره (١٤٩٢)، طرد اليهود (١٤٩٢)، قلل طبقة النبلاء العليا، بمساعدة الطبقات المتوسطة، وارتفع بإسبانيا؛ لتصبح قوة عالمية، وفى زواجه الثانى اقترن بخرمانا دى فويكس.

حقيقى أننى أرتعد من ذكر الأشياء العجيبة، لكن قوة هذا الفارس كانت كبيرة جدًا، وتجعل من السهل تصديقها. فجميعنا يعرف السيد خيرونيمو دى أيانثا، الذى يعتبر هرقل الإسبانى، له رمح فى غرفة ماركيز بربيغو فى مونتيا، رأسه على شكل طوق، تقول ذلك أبيات من الشعر نظمت عند موته:

منازلته تعتبر تهورًا،

إذ إنه سيجعل سلاحك عديم الجدوى.

ولدينا اليوم سوتو الذى يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، جر مائة وأربعة وثمانين كيلوجرام، وأوقف عربة، وقالت عنه سيدة:

ماذا سيفعل عندما يكبر؟

عند مرورى بفالنسيا فى أثناء الاحتفالات بزواج فيليبى الثالث(٨١)، رأيت مزارعًا، أخذه كونت ليموس معه إلى نابولى؛ حيث رفع مع عدد كبير من الرجال عمودًا من بين أطلال بعض الأعمدة والعقود التى كانت على الأرض، ربط هو العمود بحبل على ظهره ورفعه مسافة

---

(٨١) فيليبى الثالث: (١٥٧٨-١٦٢١)، ولد وتوفى بمدريد، وهو ملك إسبانيا، والبرتغال، ونابولى، وصقلية، وسردينيا (١٥٩٨-١٦٢١)، وينتمى إلى البيت الملكى فى النمسا. وهو ابن الملك فيليبى الثانى، حقق سياسة السلام لحماية الممالك المغلوبة على أمرها والمثخنة بالجراح من خلال هدنة الاثنى عشر عامًا (١٦١٨)، التى قطعت عند اندلاع حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨). كما أنه طرد الموريسكيين (١٦٠٩) فكان حدثًا مشئومًا بالنسبة للوضع الاقتصادى، وكان هذا ينبئ بأزمة طاحنة. تزوج من مارغريت النمساوية (١٥٩٩).

ثلاثة أصابع، مثقلاً على جسده. الخوف الذى يسببه لى اتهامى بالكذب، جعلنى أذكر هذه الأمثلة، رغم عدم أهميتها. خذوا حضرتكم فى الاعتبار أن الطبيعة، تعرف ماذا تصنع بهذه الأشياء كى تستعرض وتتفاخر بقوتها، ولو لمرات قليلة. مَنْ الذى يرى أن امرأة حسناء أكثر إعجازًا من رجل قوى؟ إذن مَنْ له هذه المعجزة الكبرى يستطيع أن يهزم رجلاً، أما الجمال فهو يهزم كل مَنْ يراه. إن العقل الراجح يفهم أسرار الطبيعة إنه يساعد الحياة التى تتعرض للخطر عن طريق مرض يصاب به الإنسان ما يفهم الأسرار العليا، ويصف العالم، ويعطى معانى وأسماء وحدودًا للعلوم وقوانين للجمهوريات، وهى أمور لا تسطيع فعلها كل قوى الرجال. وهكذا رسم لوثيانو البليغ تلك اللوحة فى وصف هرقل بقوس فى يده اليسرى، والهراوة فى اليد اليمنى، وفى فمهِ تلك الحبال التى كان يحمل بها عددًا لا يحصى من الرجال المقيدين، لكى يجعلنا نفهم أنه لم ينتصر عليهم بالقوة ولا بالسلاح، بل بالبلاغة، قائلاً:

أيتها الأسلحة ، إن الميزة للعلم

لأن الفصاحة تجذب إليها القلوب القاسية.

ظل قُزمان الشجاع مُهْمَلاً تمامًا لعدة سنوات فى فلاندس. عندما أوشك على الرحيل، أوصاه جندى صديق بوصيف من هؤلاء الذين يسمونهم غلمان، يرتدى معطفًا مزودًا بأشرطة، وقبعة كبيرة، ويحمل ميدالية وريشًا، وهو مهذب الحديث، وخفيف الحركة واللسان عند أداء

أى شئ. ذهب هذا الجندى إلى ألمانيا ببعض الخطابات لدوق كليبس، التى كانت بجوار دورا، وهو مكان مشهور جدًا ويرجع السبب فى شهرته إلى أن كارلوس الخامس[٨٢] قد اقتحمه، بأربعين قطعة من المدفعية، إذ إن للكوارث أيضًا شهرتها. لم يستطع هذا الجندى أخذ الوصيف الذى أتحدث عنه، والذى كان يسمى مندوثا، وذلك نظرًا لأن الطريق كان طويلاً ووعرًا، وكان يجب اجتياز تلك الغابة الواقعة بين نهر الراين ولاروتا، وهى منطقة جبلية وبها طرق وعرة، وقد تسلى الدوق بالصيد فيها بسبب تعدد الحيوانات، حيث إن وفرة ثمارها وهدوء أنهارها ساعد على تربية حتى الخيول الوحشية. لم يبين الوصيف حزنه لفقد سيده القديم، إما لأنه كان ينتظر أن يعود ليراه بعد فترة وجيزة، أو لأنه تلهى بخدمة رجل له شهرة كبيرة، يتحلى بروح حربية. لكن عندما أتيحت للسيد فليكس فرصة الذهاب إلى مالطة متمنيًا تعلم عاداتها، التى مال إليها، وأراد أيضًا أن يترك مندوثا، لكن لم يكن ذلك ممكنًا، وأخذ مندوثا يبكى طالبًا منه ألا يتخلى عن حمايته لأنه على الرغم من بعده عن وطنه، فلم يشعر بفقده، لأنه فى خدمة رجل إسبانى. لذلك قرر السيد فليكس الذى أولع به لأنه بيَّن ملامح الظرف من بين مواهب أخرى أن يأخذه معه؛ حيث كان يغنى ويعزف بالمهارة نفسها. ولأنهما ركبا سفينة مع مسافرين آخرين، فقد تعرضا لهزيمة

---

(٨٢) كارلوس الخامس: (١٥٠٠ـ ١٥٥٨)، أمير هولندا (١٥٠٦ـ ١٥٥٥)، وملك إسبانيا (١٥١٦ـ١٥٥٦)، ولصقلية (١٥١٦ـ ١٥٥٦). وللإمبراطورية الرومانية والجرمانية (١٥١٩ـ ١٥٥٦). ابن لكل من فيليبى الجميل، ارشيدوق النمسا، وخوانا المجنونة ملكة قشتالة.

مالطة فى البحر الليبى؛ ولكن فاجأتهم عاصفة شديدة، فساروا على غير هدى لعدة أيام دون أن يأخذوا مضيق بيليث؛ حيث قذفت بهم الأمـواج العاتية إلى مكان بعيد. وكان هذا المكان يقع تحت قبضة المـسيحيين، فقد انتزعه السيد غارثّيا دى توليدو من مسلمى جوميرا بأسطول، تولى هو قيادته بأمر من الملك فيليبى الثانى(٨٣)، وقام بهذه الحملة من أجـل قمع القراصنة؛ لكن بفضل مساعى القواد ومساعدة المسافرين؛ حيـث كانوا جميعًا يتعاونون، كما تأمر بذلك قوانين الخطر، لـم يكـن مـن المستحيل أخذه. كانت ثورة البحر شديدةً جدًا؛ وبهذه الشدة كان يتـدفق على تلك الصخور، محولاً الأمواج إلى رغوات، ومنحـرفًا بها بعيـدًا – على العكس من صخور بوليفيمو، التى كانت تقربه من الأرض– فى تلك الليلة ظنوا أن السفينة ستغرق؛ لأن ثورة البحر والعاصفة المائية، والرعد والبرق وصلت إلى ذروتها، بحيث ظهروا كأنهم غرقوا بـين البحار، مع أن ما حدث فى البحر هو ما يقال عن اختلاط نوعين مـن السمّ، حيث يمنع الواحد منهما خطر الآخر. وأخيرًا، عند بزوغ الفجـر وبعد وقت من الزمن استطاعوا التفريق بين الـسماء والأرض، وهـم يتخبطون بشاطئ بلاد البربر(٨٤)؛ حيث خرجوا أحياء بعـد تعرضـهم لخطر كبير، كما وقعوا كأسرى لبعض المسلمين الذين حملـوهم إلـى تونس. وبسرعة وجد العبدان سيدًا لهما، وهنا توسل صـديقنا قُزمـان

---

(٨٣) فيليبى الثانى: (١٥٢٧ـ١٥٩٨)، ملك إسبانيا (١٥٥٦ـ١٥٩٨)، وملك نابولى، وصقلية والبرتغال (١٥٨٩ـ١٥٩٨)، وينتمى للبيت الملكى فى النمسا.

(٨٤) البربر: اسم كان يعطى لشعوب شمال إفريقيا، وتقع غرب مصر، وتمتد بين ليبيا وحتى المغرب.

لمندوثا بألا يقول اسمه؛ لأنه بلا شك لو عرفوا اسمه؛ فإما ألا يخرج مطلقًا من الأسر، وإما أن يخرج منه متأخرًا. كان لديهما حظ حيث اشتراهما يهودى كان يعرف لغة قشتالة؛ لأن له فيها أقارب، ولم يسيئ هذا الرجل الذى كان لقبه ديفيد، للعبدين الجديدين، الذى أراد بشرائه لهما أن يخرج بمكاسب كبيرة وفائدة؛ لأن فى تصوره أنهما شخصان مهمان وبالكتابة إلى بلادهما، سيأتون من أجلهما. كان السيد فليكس شديد الحذر من هذه المهمة، لأنه يعلم بأن شهرته قد تجعل الفداء كبيرًا جدًا مع أنه أيضًا لم يتفاخر بإظهار قوته، لأن بسبب قوته لن يُقدر إلا بسعر أعلى أو قد يُعتقل. كان لديفيد ابنة جميلة مثل الشمس- كلمة إسبانية قاسية لكنها من الكلمات التى تعتبر من الطراز الأول المستخدم فى كتابة القصص، لأنه إذا كانت امرأة مثل الشمس، فمَنْ ينظر إليها؟- إن المقارنات، كما ستعلمون حضرتكم، يجب ألا تكون متماثلة جدًا، فتبدو كالهويّات، وهكذا ستجدون حضرتكم على فترات تعبيرات مثل "بيضاء مثل الثلج"، و"شريف النسب مثل الملك"، "حكيم أكثر من سليمان"، و"شاعر أكثر من هوميروس". فى نهاية الأمر، كانت هى جميلة، وليست سيئة الفهم، وكانت تدعى سوسانا، لكنها لم تبدو كذلك فى العفة كما فى الاسم لأنه وقع نظرها على...، هنا، من الواضح، أن حضرتكم ستقولون على السيد فليكس، إذن فإنكم تخدعون أنفسكم، إذ إن السيد مندوثيكا(٨٥) كان أجمل، وقد سمعته يغنى، بصوت خافت، فى بستان صغير لمنزلها، ومع هذا فقد استحوذ على روحها لحسن الحظ،

---

(٨٥) مندوثيكا: هو تصغير لاسم مندوثا والغرض منه هو التدليل.

فأصبحت السيدة أمة لأسيرها. ولم يُحزن ذلك السيد فليكس، لأنه مع هذا الحب الجديد كان يقدم لهما الهدايا، وفى غياب ديفيد الذى كان يذهب إلى بعض المعارض أو إلى طرابلس وبنزرت ببضاعته وتجارته، كانوا هم السادة والمالكين. ذهبت سوسانا إلى الحديقة مع عبيدها ولم تستتر من السيد فليكس؛ لأنهما قد أخبراها فى السر بأنهما شقيقان، ولأنها بحثت عن آلة، توسلت لمندوثا أن يغنى، وبدأ هو يغنى هكذا:

انتقمت فيليس الجميلة

من إهانات فابيو،

عندما رأته يأتى للقرية،

مريضًا من خيبة الأمل.

بتوسلات الرعاة

نزلت من جبلها للمرج.

فكما ترى أنها محبوبة،

توحى بأنهم أجبروها.

هذا ما تتمناه :

أن يتوسلوا إليها،

وأن يرفع الحب من سعره

كيف يشاء

مع مرور الوقت.

هرب فابيو الغيور،

ظن فابيو أن يجد فى الحب القداسة،

لكن توجد حالات فى الحب،

حيث يكمن فى العلاج الضرر.

تعيس من يصل فى

الزمن الشقى جدًا،

فيقتله العلاج،

الذى به يشفى الكثيرون!

فى النهاية، يأتى فابيو المقهور،

لرؤية مالكه الجاحد

مسرورًا، لأن الانتقام

فى الحب يكون فظًا.

ذهبت وعليها ملابس فاخرة لتراه،

مع أنها تستطيع الاعتذار عن ذلك،

لأن قمة الجمال

لا تعفى من العناية بالبيت.

ارتدت قماشًا أخضر:

تنورة وقميصًا صوفيًا أنيقًا،

مطرز بحرير بلون الفضة،

إذا وضعت يديها عليه.

لم تضع فى العنق

عقدًا أعطاه لها فابيو،

لأنها قد لا تظن أن

الذكريات تعيش من خلال الهدايا.

تزينت بمجوهرات لم يرها،

ليس هذا لأنه أهانها،

بل لكى يدل الغياب

على أن الحب ليس مضمونا.

جعلت شعرها مشدودًا،

بشريط من الرموز

لأن من يحب أن يشعل الغيرة،

يستعمل ألف حيلة.

فالطرحة تستعملها،

لكثير من التسلية،

وغطاء العينين،

مطرز بأشعة سوداء.

لبست حذاءً مزينًا

بشرائط من الحرير المفضض،

فى دهشة من أن تتسع أماكن صغيرة

لكل هذا البريق.

وصلت فيليس للقرية،

ودخلت بيت فابيو؛

استقبلها الرعاة،

كما تستقبل الجبالُ المرتفعة الشمس.

ضحكاتها بعثرت لؤلؤًا،

وهى تمد ذراعيها للجميع،

فتكسب بحارًا من الحب

وتمنح لآلئ.

ينظر إليها فابيو بصعوبة،

عندما سبحت روحه،

فى سعادة غامرة،

والعيون غرقى فى بكاء لطيف.

لم يتكلم الاثنان بسرعة،

مع أن العيون تكلمت:

فيليس لأنها لم تشأ،

وفابيو لأنه أحب كثيرًا.

فى هذا الجمود يلتقى

الاثنان من خلال نظراتهما،

ثم يخفضان عيونهما،

كمن يصنع المراهنة.

تحدثت فيليس، وكانت لشفتيها

روح من المرجان،

إذ إن رؤية الخاضع متواضعًا

تجعل المنتقم رحيمًا.

تتهم فابيو بالذنب،

لأنه من الخطأ أن يصنع وهو محب

بلسانه بطولات،

لو لم يكن للروح يد.

يرد هو ويعتذر؛

عندما يرى ذراعيها عن قرب،

فيطلب الصفح مهانًا

مَنْ يحب على بصيرة.

كانت سوسانا الجديدة سعيدة إلى أقصى درجة من الفكاهة التي غنى بها مندوثا هذه الأبيات، وعندما سألت السيد فليكس إذا كان يهوى الموسيقى، تحدث مندوثا نيابة عنه، وقال لها إنه أيضًا كان يساعده أحيانًا على الغناء. وتمنت سوسانا سماعهما، وتغنى كلاهما بهذا الحوار، فيبدأ الواحد ويرد عليه الآخر:

ــ يا باسكوال، اجعلنى أفهم

ماهو الحب، لأننى أريد أن أحب.

ـ أعتقد أنه كله هموم،

إذ إنه لم يسرنى قط.

ـ تعريف غريب

هذا الذى تقدمه لى عن الحب.

ـ لا أعرف الكثير عن السبب،

لكن هذه هى الآثار.

ـ يا باسكوال، أريد أن أرى بداية،

فن الحب.

ـ أعتقد أنه ينتهى بالتفكير،

مع أنه يبدأ بالمتعة.

ـ فكرت فى الإصغاء إليك، يا باسكوال،

فخيرات الحب عظيمة.

ـ لم يكن خيره قط عظيمًا.

فدائمًا كان شره أعظم.

ـ أخبرنى عما سأخسره

وما يمكننى أن أكسبه.

ـ ستكسب أحزانًا كثيرة

من أجل متعة قليلة.

ـ سيلبيا تنظر إلى بطرف العين،

لأنها ستنسحب بعد ذلك.

ـ ليس الشر فى أنها تنظر إليك.

بل لأنها لم تعد تنظر إليك.

ـ أنا أعرف أن السعادة فى الرؤية،

والحزن يوجد فى التمنى.

ـ لا أريد أحزانًا كثيرة

من أجل متعة قليلة جدًا.

اتفاق صوتين، خاصة وهما يتناوبان اللحن والأرق فى هذا اللون من الموسيقى؛ وهكذا قررت سوسانا، أن تمضى كل الليالى التى يغيب فيها والدها فى هذه المتعة. وذات يوم دخل مندوثا إلى غرفتها بالمصادفة وكانت لاتزال نائمة؛ كان شعرها غزيرًا، وطويلاً ومجعدًا، ومبعثرًا على كتفيها، لم يكن لونه أسود داكنًا، مع أن عينيها كانت شديدة السواد، ولها حاجبان ورموش غزيرة جدًا وجميلة؛ ولأن حاجبيها كانا مثل قرص الشمس، بدت الرموش كأنها الظلال. لم تكن سوسانا تستعمل أدوات الزينة، وهكذا أصبحت بالشكل الذى أعطاه لها

النوم، كالصدف المتوهج، الذى يأخذ فى التناقص بلطف، تهزمه برودة الوجه، يتنافس على منتصف الخدود مع قرنفل الشفتين الأحمر، الذى فى ابتسامتها يبدو كأنه اكتشف فوق شريط قرمزى حزامًا مضغوطًا من اللؤلؤ. كان لها قميص من الحرير المزركش بضفائر صغيرة من الذهب، فوق رموش سوداء، وكانت أكمامه فضفاضة، فعند رفع ذراعيها كان يظهر بمهارة جزء كبير منهما. أراد مندوثا أن ينسحب وهو خجلان من الاجتراء، لكن سوسانا نادته، فعاد بخطوات خائفة إلى أن وصل إلى الباب. ثم قالت هى: "ادخل وقل ما تريد، فليتنى كنت أنا... لكن أنت لا تحبنى". فأجاب مندوثا: "يا سيدتى، مَنْ الذى يمكن أن أحبه كما أحبك؟ لأنه بعيدًا عن كونى أنا عبدك، وتعاملينى كما لو كنت ملكًا لى، فأنتِ تستحقين أن يحبك كل هؤلاء الذين يتمتعون بالذكاء والفهم". ردت سوسانا: "أنا أمتك يا مندوثا، لا تخدع نفسك بالتفكير فى ذلك؛ لأن الحب له قوة كبيرة، يبدل الأحوال والإمبراطوريات، يصنع عن عمد ما لم يحدث بالطبيعة. أنا إذا قلت لك الحقيقة، حزينة جدًا، وأيضًا يائسة تقريبًا، مدركة أن اختلاف عقيدتك يمنعنى من الزواج بك، ومما تعلمته فى إسبانيا، عندما أتيت منها طفلة، اكتشفت زيفنا(*)؛ ولذلك أحبك كثيرًا، فالذى منحنى هذا الجذب هو أساس هذه المعرفة. لكن قلة سعادتى وضعتنى فى الحالة التى تراها، حبك وصل بى إلى درجة أننى أضرب بالعقل أقدام

(*) لا يمل الكتاب الإسبان فى القرنين السادس والسابع عشر الحديث عن الإسلام كعقيدة باطلة. (المراجع)

رغبتي، وأنا مصممة على أن أجعلك مالكي مهما كنت أنا، دون أن يدرك أخوك فقدان رشدى، لا لأننى لا أأْتَمِنهُ على ذلك، كمعرفته بأننى أحبك؛ بل بسبب الخجل الذى يعتصرنى من أن يعرف بقلة شرفى، حتى لا يحتقرنى، إذ إن الرجال عند وصولهم إلى هذه النقطة فإن أهم امرأة فى حياتهم يستهينون بها، لأنه يبدو لكم أننا بفقداننا ميزة العفة، فإننا نصبح إماءكم، وأنه من الممكن الاجتراء على احترامنا وهذا يحدث على مستوى تصرفاتكم كما يحدث على مستوى كلامكم. كان مندوثا ينظر إليها ولا يرد عليها لأنه توجد كلمات تكون إجابتها هى الأفعال. وأخذ كل منهما يقترب أكثر من الآخر، واتفقا على أن يتقابلا فى تلك الليلة بعد نوم الأسرة. نزل مندوثا إلى حيث كان السيد فليكس يربت بيده على إحدى الخيول البربرية التى كان يقودها ديفيد فى تونس فى بعض الأحيان، وجلس أمامه، وأخذ ينظر إليه. فقال له السيد فليكس: "ماذا وراءك لتأتى مرتبكًا ومنفعلاً؟". وتناوب معه مندوثا النظر، وبعدها أخفض عينيه وأخذ ينظر إلى الأرض وأجهش بالبكاء؛ حيث انهمرت منه عاصفة من الدموع على وجنتيه، سقطت بسرعة جدًا بسبب رهافة إحساسه. فقال السيد فليكس: "ليس ذلك دون سبب خطير"، وترك الآلة الموسيقية المتواضعة، واقترب من الصبى، ورفع وجهه، وأبعد شعره الذى تبعثر وانقلب وكان طويلاً. وقال مندوثا: "يا ويلتى، يا سيدى فليكس، فقد وصل شقاؤنا إلى ذروته؛ لأن سوسانا صرَّحت بحبها لى، وبالمصادفة، تريد فى هذه الليلة، بعد انصراف الخدم، أن أتحدث إليها فى سرية أكثر وحتى هذه اللحظة، أنا حذر

منها؛ لأنها قد تكون سببًا فى موت حضرتكم وموتى، إذا أدرك الأب ذلك". فأجابه السيد فليكس: "كنت أحمق حين سببت هذا الخوف دون سبب لا يستحق، لأننى فى لحظة تخيّل قلبت العالم؛ وها أنا قد هدأت وضحكت من جهلك، فمع أن مقاومة هذه المرأة والموت قد يكون حسنا، فإن حالة أسرنا لا تسمح، وموت أكبر ينتظرنا إذا لم تلتزم بوعدك معها؛ فأنا يا مندوثا، علىّ الأقل بسبب عدم استجابتى لرغبة امرأة، فأنا هنا خارج بيتى ووطنى، وأسير كما ترى، وعلى أمل ضعيف لنجاتى إذا عُرِفَ مَنْ أكون، فلا يوجد عبد إسبانى يصادفنى، حتى أختبئ منه خوفًا من أن يتعرف علىّ. المثل الذى ذكرته لك يجبرنى على الخوف من ضياعنا، انظر، فهذه المرأة عبرية، وستتذكر قصة يوسف، إذا أردت أن تقلده، أضف إلى ذلك أنك ارتكبت خطأ فادحًا، وهو أنك لبيت نداء رغبتها، إذن الآن وقد صرحت عما بداخلها، وأنت زودت رغبتها على أمل التنفيذ، فسوف تنقلب كالمدفع ضدنا نحن الاثنين، سيتبدل حبها كرهًا". عاد مندوثا للبكاء، وبما أنه لم يجبه، أصر السيد فليكس على أن يفسر له سبب هذه الدموع، التى ظهرت كأنها ألغاز، فهناك عيون تبكى فى الشعر المثقف(*) دون أن يُفهم أكثر من كونها دموعًا. مغلوب على أمره مندوثا من توسلات وتهديدات السيد فليكس، فقال: "كيف تريد أن أنفذ وعدى الذى وعدته لهذه المرأة، إذا كنت أنا امرأة، وأنا مندهشة من أنك فى وقت طويل لم تعرفنى! فأنا فليثيا، تلك التعيسة التى قتلت من أجلها ليونيلو، الذى

(*) هذا نقد يوجهه لوبى دى بيغا لتيار شعرى ساد فى عصره. (المراجع)

كلفنى موته، تحمّل بعض الأقدار وقد ذهبتُ إلـــى إيطاليــا مـــع ذلــك الجندى، ومنها لفلاندس؛ حيث تركنى فى خدمتك عنـــدما ذهــب إلـــى كليبس".

ظل السيد فليكس مندهشًا لبعض الوقت دون أن يجيبهـــا، وفـــى النهاية قال لها: "لا تخافى يا فليثيا، فلم أعرفك، فمع أننى كنت أزورك فلم أرك؛ فأنا أنظر لوجوه نساء أصدقائى دون تمعّن". آه، إنها كلمـــات جديرة بأن تكتب على المرمر بحروف من ذهب؛ لكى يـــتعلم الجهـــل الحيوانى لبعض الرجال الاحترام الواجب تجـــاه شـــرف الأصـــدقاء، والمنبت الحسن تجاه الالتزام، فهناك رجال لا يعرف فجورهم التفريـــق بين الشرف والعار، ولا الشهية من العقل، الذى غالبًا ما ينـــتج عنـــه الكثير من الخلاف وأحيانًا أخرى الكثير من الدم. أعتقد أنـــه لا يـــسُر حضرتكم هذا الورع[*] مع الرغبة فى معرفة على أى شىء اتفق السيد فليكس وفليثيا لكى يصلحا الشر الكبير الذى كان يهددهما. وفى النهاية، اتفقا على أنه فى تلك الساعات المتقدمة من الليل يتظاهران بأن جـــزءًا قليل الأهمية من البيت يحترق بسبب إهمال ما، كى تثـــور وتـــصخب الأسرة، وبهذا يظل تنفيذ الوعد متوقفًا، حتى يستطيعا بمزيد من الوقت أن يتناولاه من جديد لكى يضعا له علاجًا كبيـــرًا. هكـــذا نفـــذا هـــذه الحادثة، وعندما انتظرت سوسانا ووصلت فليثيا بين ذراعيها صـــرخ السيد فليكس عدة صرخات، لاحتراق مخزن التبن، الذى بالإضافة إلى

(*) هنا يخاطب القارئ الذى يسعى إلى متابعة الأحداث ولا يريد هذه الوقفات التأملية. (المراجع)

أنه أهم مخزن فى البيت، فقد كان يقع خلف البستان. فصرخ أهل سوسانا؛ وتركت سوسانا فليثيا؛ لأنه لم يكن أهل بيتها فقط هم القلقين والحذرين بل كان كذلك حال كل الجيران، الذين حضروا بحرص، مع أن الوضع كان أكبر مما كانوا يظنون؛ فى النهاية استطاعوا السيطرة على النيران، وظلت نيران حب تلك العبرية قليلة الشرف أكثر اشتعالاً(**). لم تغفل فى طلب مندوثا، مع أنه هو الذى تغافل عن أن يترك نفسه أمام فرصة تعود فيها وتطلب منه أن يتم وعده، بحيث أنه فى خلال ثلاثة أو أربعة أيام من المماطلة، عانى فيها الحب ضررًا كبيرًا، جاء ديفيد، والدها، وتم لكل شخص ما أراد، مع أنه من جانبها ظلت رغبتها متقدة. لكن قدر الرجال، عند البدء فى مطاردة شخص ما، يبدو كالذبابة، تعود أكثر إلحاحًا إلى حيث يكثرون من إفزاعها، وهى التى بسبب تقلبها قال أوفيد:

القدر متقلب يمشى

بخطوات مرتابة،

دون أن يثبت مطلقًا فى مكان؛

(**) لاحظ ميل المؤلف إلى التلاعب بالألفاظ: تمكنوا من إخماد النار، لكن نار الحب ظلت مشتعلة. (المراجع)

فذات يوم- والسيد فليكس عائدًا من الميدان مع سيده ديفيد- أوقفه رجل مسلم غير مهندم، ومتكبر يزعم أنه فارس، وينتسب إلى مؤسس طائفته المخدوعة، كما يُظهر ذلك العلامة الخضراء في العمامة، وأمره على سبيل الاحتقار أن يحمل لمنزله قُفّة من التمر اشتراها. نظر ديفيدِ للسيد فليكس، وهو في لحظة نسى أنه لابد من أن يتظاهر بالضعف والوهن فوضعها على كتفه. فسدد إليه أحمد بن عز، هكذا كان يسمى المسلم، ركلتين، وعاد ودفع من جديد القفة، وأسقطها من على كتفه، فتألم فليكس من الضربة ؛لأنها كانت من كفّ رفيع جدًا، وتسببت له في غضب شديد، وقال له: "أيها المسيحى، ضع القفة على هذا العبرى". "يا أفندى، أجاب السيد فليكس، ولابد أنه أراد أن يقول سيدى أو أيها المالك، أنا سأحملها لك إلى حيث تريد، فديفيد شيخ كبير وصحته معتلة". "أجاب أحمد: أيها الكلب المسيحى، أقسم بمحمد، لأحطمن أسنانك، وسأقتله هو". فعاد وقال له السيد فليكس: "تمالك نفسك يا أفندى". منتبهون حضرتكم إلى أننى لم أكرر مرة أخرى هذا الاسم لأننى لا أريد الحديث بالعربية، ولكى لا أزيد من الكلمات فى هذه المناسبة، هكذا تقديرى لقوة الحقيقة، وفقًا لقواعد تأليف القصص الجيد. كان أحمد مشتعلاً من الغضب، فانتزع عصا من مسلم كان يمر فى طريقه إلى الحقل، وسدد ضربة بالعصا لديفيد، سقط على أثرها على الأرض. وتذكر السيد فليكس أن ذلك هو سيده، وأن فى النهاية، لحسن أو لسوء الملكية، كان يأكل خبزه، بالإضافة إلى أنه لم يسئ معاملته مطلقًا ولا بالفعل ولا بالكلمة، فأبعد العصا عن يد المسلم التى

كان سيعطى بها الضربة الثانية، والتى كان سيقتله بها، فسدد إليه طعنة فى الصدر من تلك الطعنات التى كان معتاد عليها، والتى تركـه بهـا على مدى ساعتين بلا كلام. وهنا توافدت حشود كبيرة من المسلمين، كتوافدهم على أكبر حدث من الاجتراء الذى لم يشاهدوه مطلقًا؛ لكـن السيد فليكس دون أن يرغب فى استخدام أسلحة من الأحجار والعصى، التى هاجموه بها، بلكمات *ولكمات ندية*، استطاع أن يقوم بأكبر دفـاع كان يستطيع القيام به ستة عشر رجلاً بسلاح، فَمَنْ كان يأخذه من عنقه كان يقذف به إلى مسافة بعيدة، وحيث كان يسقط كان يـتحطم. ومَـنْ كان يسدد إليه لكمة كان يستحم فى الدماء وكان يعمى بصره. لكن قبل أن أمضى من هنا، أحـب أن أسـأل حـضرتكم إذ كنـتم تعرفـون بالمصادفة، إذ إنكم شخصية تعرف شيشيرون وأوفيـد وغيـرهم مـن العلماء، ويمكن التحدث مع حضرتكم فى موضوع التعريفات وفى علم اشتقاق الألفاظ: لماذا قال القشتالى *لكمة* ندية؟ لأنها كلفتنى نوعًا ما من الدراسة، كرجل لا يحتقر لغته، فأنا أعرف جيدًا أن المثقف سيـسميها "تأكيد بقبضة يد مغلقة فى وجه الخصم يسددها بخيلاء ثائرة".

إذن فلتعلموا حضرتكم أن اللغة لم تقل ذلك دون سبب واضـح، والسبب أنه فى الماضى الذين كانوا يريدون إعطاء لكمة كانوا يندون، ويبللون أولاً اليد المفتوحة وهم يبصقون فيها، وبعدها كانوا يهزونهـا، ومن هنا جاءت التسمية "*لكمة نَدِيَة*"، والمراد من القول هـو قبـضة مندية. لم تعثروا سيادتكم على هذا التعبير فى "*كنز اللغة القـشتالية*"،

لكى تروا أن هذا سبب لتقدير نقاء اللغة الإسبانية نقاوتها، فحتى الأشياء الحقيرة ليست موجودة بها دون سبب.

وأخيرًا، ظل بعض المسلمين متألمين جدًا من هذا الغضب الذى أثار السيد فليكس، الذى كان يسمى فى بيت سيده رودريغو، فقد قرروا قتله بطلقات من البنادق. حشا جندى من حرس الملك بندقية، وعندما أطلق النار عليه، قتل زميلاً له، مما جعلهم يفهمون أنه قد يستطيع القبض عليه، واجتمع الكثيرون بمختلف الأسلحة، التى وضعوا مصيره أمامها جميعًا، وكان يمكنهم القضاء على حياته، لولا أنه انسحب نحو باب أحد المساجد، كان يخرج منه حينذاك صلاح الريِّس، الملك أو صاحب القلعة، الذى عيَّنه السلطان التركى، فإن موقع قادة القلاع من الملوك، كنواب الملوك بيننا، وهو منصب استخدمه المسلمون فى زمن أمير المؤمنين، ملك المغرب، والمنصور[86]، ملك غرناطة، وهكذا كان هناك ملوك فى القلعة، وفى جيان وإثيخا، ومرسية وأجزاء أخرى من إسبانيا كانوا يمتلكونها بواسطة فيضان العرب فى زمن القوط. عندما رأى الملك القوة الكبرى والشجاعة الزائدة لذلك العبد، استخدم سلطته ليحول دون موته، توقف الجميع، وأمر الملك باستدعائه إلى قصره، وعندما كان معه على انفراد، طلب منه أن يخبره مَنْ هو؟، وأن يمعن النظر فى أن الملوك يجب أن تقال

---

(٨٨) المنصور: هو لقب لأحد الأمراء المسلمين، (٩٤٠-١٠٠٢) ولد فى المرية، محارب وسياسى من الأندلس. رئيس وزراء هشام الثانى، نقل شئون الإدارة إلى مدينة الزهراء. أدار حملات وبعثات كانت منتصرة ضد الأراضى المسيحية فى برشلونة (٩٨٥)، وسانتياغو دى كومبوستيلا (٩٩٧).

لهم الحقيقة، وأعطاه كلمة بأن يساعده ويحفظ حياته. عندئذ أجابه السيد فليكس: "يا سيدى، أنا فارس أنتمى لعائلة قُزمان منْ إسبانيا، مع أننى هنا. وخوفًا من أن إنقاذى يكون مستحيلاً، قلت لمالكى إننى أدعى رودريغو وإننى رجل بسيط، من هؤلاء الذين لهم أدنى وضع هناك بين العوام فى الجمهورية؛ لكننى فى الواقع لى المكانة التى أبلغتك بها، ولثقتى فى كلمتك الملكية، فإن اسمى الحقيقى هو السيد فليكس دى قُزمان، وهو مَنْ يسمونه منذ المعركة البحرية *بالشجاع*. أنا هزمت فى ليبانتو البارجة السلطانية، التى كان يقودها أدامير باشا، وهو رجل غير معروف جيدًا بينكم مثل العشالى وباربا رّوخا[٨٧]؛ لكنه أكثر شجاعة وأفضل مشورة. أردت السيطرة على مالطة، فوجدتنى فى مضيق بيليث تقريبًا فى قناة تونس، فأُسرت فى بحر ليبيا وهزمت، ثم اشترانى ديفيد. – وهو عبرانى– مع أخ آخر لى، أجبرتنى المعاملة التى عاملنا بها، والخبز الذى أكلته فى بيته على الدفاع عنه؛ لأن أحمد كان سيقتله بضربات العصا لو لم أدافع عن حياته ، وأنا معارض لهذه الغطرسة الكبيرة، استعلِم من المسلمين الشرفاء الذين رأوا هذا، وإذا وجدتَ أننى لم أقل لك الحقيقة، فتونس فيها شرفات(*)، ورماح جنودك لمَنْ لا يقدرون القوة". قال الملك: "فأنت قُزمان الشجاع، ذو القوى الكبيرة،

---

(٨٩) باربارُوخا: اسمه هو خيرالدين، كان قرصان تركى. وسيد الجزائر، التى وضعها تحت هيمنة الدولة العثمانية (١٥١٨)، وكان القائد الأعلى الكبير للأسطول العثمانى (١٥٣٣)، انتزع تونس من الإسبان (١٥٣٥ـ ١٥٣٦) وحارب ضد الإمبراطور كارلوس الخامس.

(*) هذه بالتأكيد صورة بلاغية لم تعد تستخدم الآن ومعناها أن لديكم من القوة ما تردعون به. (المراجع)

قاتل الوحوش وطاعن الثيران؟ إذن انظر كم كسبت بقولك الحق لـى، وأن تعاملنى كرجل يحفظ كلمته ويحترمها، وبعيدًا عن ميلى لشخصك وإعجابى بأفعالك، فلن أقبل أن تتعرض للإهانة من هؤلاء المسلمين، ولا أن تفقد حريتك التى تستحقها عن جدارة، إلا إذا أردت أن تظل هنا معى؛ حيث سأضمن لك كل الصداقة، سواء أكانت حسب عقيدتك أو عقيدتى، لأن العقيدة يجب ألا تؤخذ كرهًا، بل عن رضى. لكن دعنى الآن أقدم دليلاً على الغضب منك من أجل هؤلاء المسلمين المتضررين، الذين قد يشكون للوالى الكبير إذا تركتك حرًا". بهذا، أمر بإرساله إلى سجن تحت الأرض بالقرب من حمَّاماته، حيث انتبه ديفيد، وقام بعدة مساع بالنقود، وهو أحسن معروفٍ يقدم فى السجن، والذى استطاع إهداءه من خلال مندوثا، الذى كان يتردد ذهابًا وإيابًا على السجن بالطعام، وكان يظل معه فى أوقات الفراغ التى كانت تزيد على أوقات خدمته، حتى ولو تسبب ذلك فى غضب سوسانا، التى كانت تنتظر أولى الأسواق الموسمية، لكى تستطيع، فى غياب والدها، أن تطفئ لهيب رغباتها التى لم تتمكن من تحقيقها.

شكر السيد فليكس تطوع فليثيا، التى كشفت من قبل عن هويتها، وكانت حريصة على استمالة قلبه أكثر من حرصها على إرضاء سوسانا التى كانت تحبها؛ أعتقد أنه شىء يسهل على حضرتكم الاعتقاد به بسهولة جدًا. طالب المسلمون بإعدام السيد فليكس، فاستدعى الملك ديفيد، وأعطاه ألفين من المسكوكات الذهبية، قائلاً: "اشترى من الشاكين ذلك العبد، ووزّع ما بينهم هذا المال، وأحضره لى هنا،

فسأصنع لك معروفًا وسأدافع عنك في تونس". هكذا فعل ديفيد [illegible]
هم النقود بكل سرور؛ لأنهم رأوا أن الديوان الذي هو بمثابة المجلس هنا، كان مائلاً إليه، وبهذه الطريقة في ساحات القضاء – وهي في النهاية بربر – لا يوجد نواب، ولا مقررون، ولا وكلاء ولا كتبة إلا ما يقوله الشهود، وتنتهي القوانين، على الأقل المذنب يموت مرة واحدة والبريء يتحرر. انزوى سالارّايث، ملك تونس، كما أقول، في حديقة مع السيد فاليكس، وقال له ما يلي:

"أيها المسيحي، أنت فارس، تلقب بقُزمان، ويسمونك الشجاع، اسمع: لشيخ من العرب الذين يعيشون في الصحراء في الخيام أو في محلات للبدو ابنة، من أجمل النساء اللاتي ولدتهن أفريقيا، أنا وملك وادي بوتويا، التي لا تبعد عن مليلة، سعينا في خطبة هذه المرأة، عن طريق تقديم خدمات شخصية كبيرة وفوق العادة، وأخيرًا، سعينا في طلب الزواج. ولمعرفة أبيها أنه بإعطائها لواحد منّا، فسيكون الآخر عدوًا له، فقد رفض تزويجها لواحد منا، أو على الأقل طلب أن نتفق فيما بيننا؛ لأنه لا يستطيع تقسيمها. وكانت هذه القضية متنازعًا عليها جدًا، لدرجة أن القائد العام لمدينة وهران توسط بشخصه لفض النزاع، وفي بعض الأحيان حاول حاكم مليلة إصلاح ما بيننا. ولأننا لم نستطع الاتفاق فيما بيننا؛ لأنني أفقد الرشد من أجل لالا فاطمة وأظن أن الشيء نفسه يحدث لسليم، فقد كتب لي هذه الورقة منذ ستة أيام (وحينئذ أخرج الورقة) التي يتحداني فيها بخمسة رجال مقابل خمسة، مزودين بالرماح، والدرقات، والسيوف، وهو على الجواد كما هو

مألوف فى استخدامنا، فإذا هُزم، فسوف يعطى الكلمة بالتوقف عن طلب خطبتها وسأفعل أنا الشيء نفسه إذا هزمنى هو. وقد اخترت رجالى، ومع أنى يرضينى أربعة منهم جميعًا، فقد خطر ببالى أننى إذا أخذتك متنكرًا، فستكون وحدك كافيًا، إذ إنهم لن يعرفوك، لأنك تعرف الكثير من لغتنا، مع أنى أشك أنك غير مدرب على هذا النوع من السلاح". فقال السيد فليكس: "نعم أنا مدرب، ولكى تتأكد، فغدًا عند شروق الشمس نخرج نحن الاثنان للحقل، وسترانى أستعمل الرمح والدرقة، مهاجمًا، مقتربًا أو منسحبًا، وقد أخرج السيف الأحدب القصير، محطمًا الدرقة، وقد أكون دون سيف، أو أستولى على الدرقة فى أثناء النزاع بحيل أخرى". قال الملك: "هذا يكفى، فلا حاجة لك بأن أراك، بل لأسمعك". عندئذٍ رد السيد فليكس: "إذن حاول أن تثنى لى ذراعى بكلتا اليدين". هكذا فعل المسلم، لكنه كان الشيء نفسه كما لو أراد أن يثنى عمودًا من المرمر. بهذا وبالتكتم الضرورى، زار الملك السيد فليكس فى اليوم المنتظر، وألبسه عباءة طويلة أو ثوبًا بنفسجيا، مزينًا بالذهب، وبه عدد كبير من الأزرار الصغيرة جدًا، التى كانت تُرى بصعوبة، فوق سترة كانت لوالده، وكانت شديدة اللمعان، وكانت تبدو كأنها من الفضة ومربوطة برباط أحمر، كان يكشفها الثوب البنفسجى، لأنه كان مزررًا فقط حتى منتصف الصدر، وكان يكشف النسيج، والأكمام، وكان السروال من الديباج البنفسجى تزينه خراشيف من الذهب وكانت الزينة من اللآلئ، وكانت القلنسوة قرمزية من فالنسيا، ولها مائة عود من الخيزران الرفيق جدًا، ومثبتة فوق قبعة من الفولاذ، وكانت متوجة

بالريش البنفسجى والأبيض، وكان الحذاء من المغرب، وكانت السيوف مطعمة من الفضة الممزوجة بالذهب،ٌ وكان السيف الأحدب، كنصف هلال، موضوعًا فى حمالة سيف من النسيج السميك جدًا المطرز باللؤلؤ الصغير غير كامل الشكل، والذى لا يمكن أن يُرى ما تحته. إذا سألتم حضرتكم من أى ديوان قصائد للمسلمين أخرجتهُ، فليس لديكم حق؛ لأن المسلمين الآخرين كانوا فى مدريد أو فى غرناطة، أما هذا المسلم فكان فى وسط تونس يحمل رمحًا طوله خمسة وعشرين شبرًا، فهنا يجب ألا يُحذف شىء، ودرقة من اللون البنفسجى، وبامرأة عربية فى المنتصف، وبالمناسبة، لا أستطيع أن أسمِّيها فرانثيسكا، فسأسميها فاطمة. فجميعهم حكوا لى أنهم كانوا بهذا الشكل، ومع أن الخيول لم تكن بنفسجية ولا زرقاء، فمن الممكن جدًا أنها كانت غيورة. على الأقل لن أغفل أن أذكر هنا ما كتبه أحد الفوارس لرجل، أرسل إليه بجوادين لحضور إحدى الحفلات: "هنا أرسل لحضرتكم بهذين الجوادين الضعيفين، وأتوسل لحضرتكم بأن تعاملوهما كما تريدون أن يعاملاكم لو كنتم حصانًا ضعيفًا". وأخيرًا، خرجوا للمنافسة، وقد تقابلوا، خمسة رجال لخمسة رجال، وقد تم استدعاؤهم بواسطة بوقين. فكان ملك بوتويا وفصيلته يرتدون اللون القرمزى مع القيطان المزركش بالذهب. كانت الأبواق هى مصدر الموسيقى، وكانت تصلح لإقامة حفلة كبيرة، حتى بدون آلات أخرى وبدأت المعركة وهم يتبارزون ببسالة بالرماح والدرق، ولن أصف هنا ضرباتها، إذ إن حضرتكم قد شاهدتم فى الميدان فارسًا من وهران فى أيام مصارعة

الثيران، وهو غاضب جدًا، مع أن عمره أكبر مما يتطلبه التمرين على الأسلحة، ومع ذلك فقد ظهر كما لو كان فى زهـــرة ســنوات عمـــره الأولى. قتل الفرسان التابعين لبوتويا طريف، وبلعمر وزورايــد، ولــم يبق فى الميدان سوى ملك تونس والسيد فليكس، الــذى هجــم عليـــه الأربعة؛ لأن سليمى والملك قد اشتبكا معًا. فأسقط أول اثنين بضربات الرماح، وأعتقد أنهما كانا يسميان شريف وسليم، والثالث قتل حصانه، وقد أرادا كلاهما الهرب، لكنه طاردهما؛ لكن عندما دار فليكس حولـــه بمهارة، اخترق الرمح صدر الحصان، وسقط على الأرض قتيلاً؛ حيث أخذ لونه يشقر من دمه. وظل على الأرض كل من بـــالورو والـــسيد فليكس؛ لأن محمدًا انطلق فاقد الرشد بين بعض الأشجار؛ لأن الـــسيد فليكس حطم اللجام إلى قطع صغيرة؛ ومع أنه ارتمى بمهـــارة عربيـــة عاد حيث كان يتصارع كل من بالورو والسيد فليكس. كـــان بـــالورو بربريًا، ابنًا لامرأة سوداء ورجل تركى، ذا مظهر شرس، وعـــصبيًا، وله جسم ضخم، وكان يتلقى الضربات بمهارة علـــى الدرقـــة، وكـــان يلعب بالسيف الأحدب، البالغ وزنه أربعة عشر رطـــلاً كأنـــه ريـــشة. وجدت فى لوكانو[٨٨] هذا البيت من الشعر، وهو ليس بعيدًا عن بدايـــة الكتاب السابع، حيث يصف الناس الذين كانوا يتحركون فى كـــل مـــن ميدان بومبى وقيصر:

---

(٨٨) لوكانو (٣٩-٦٥): شاعر لاتينى من أصل إسبانى، وكان ابن أخت سينيكا الفيلسوف.

حرك الإسبان الشجعان

درقهم بكل براعة...

أقول ذلك لسيادتكم لكى تعرفوا كم كانت الدرقة شيئًا قديمًا فى إسبانيا، وهى مأخوذة من الأفارقة، فقد كانت أداتهم دائمًا كما يُقرأ ذلك فى ليبيو[٨٩]. ولم يأسف بالورو، مع كل ذلك، من مجئ محمد؛ حيث كانت ضربات السيد فليكس شديدة موجعة. رآه صلاح الريّس، على الأرض يتصارع مع اثنين من المسلمين، فذهب إليه إما بسبب الحب الذى أحس به تجاهه، وإما لأنه إذا قتلاه فسيبقى له ثلاثة وعليه أن يهزمهم، ، ولذلك انطلق بالحصان ليمنع بالرمح مشاجرة اثنين لواحد. حينئذٍ رفع السيد فليكس وجهه، وقال له باللغة العربية. "يا ملك تونس، اقتل سليم، لأن هذين قد قتلا". بهذا عاد الملك ليمسك بزمام أمر سليم، الذى جرح جرحًا شديدًا، فعاد لمتابعته بحماس أقل. بينما اشتد حماس قزمان الشجاع، وهو يستحضر للذاكرة لقب الشجاع، كما لو كانت إسبانيا – فى صورة سيدة عظيمة – تنظر إليه من خلال سياج حديدى، فسدد لكليهما طعنات مفترسة ، فالفتى محمد هو الذى حرك الدرقة خطأ، فتح السيد فليكس رأسه حتى الكتفين، فنشر ذراعيه، وسقط على الأرض كما تسقط من سلسلة جبال كوينكا شجرة الصنوبر العالية بضربة منجل الفلاح. بالورو، الذى ظل أمامه وحيدًا، أراد أن ينتقم لموت ثلاثة أصدقاء، اقترب منه كثيرًا، وهو واثق من قواه، فتعانق مع

---

(٨٩) ليبيو: (٢٨٠ ـ ٢٠٧ ق.م)، شاعر لاتينى.

السيد فليكس، معتقدًا أنه قد يوجد فى العالم من يعادل فليكس فى قــواه، ولكن للحظ خدع نفسه، حيث رفعه السيد فليكس إلى أعلى، ثــم عــاد ورده، كمــا فعــل هرقــل بــابن الأرض، وعــن انتــصاره كتــب سوفوكليس[٩٠]؛ لكن السيد فليكس رفعه بطريقة جعلته مضغوطًا، حيث كان ينقصه عندما وصل للأرض جزءًا كبيرًا من الــروح. بينمــا أراد بالورو أن يتحمس ويجمع قواه، أخذ السيد فليكس السيف الأحدب، ومع أنه كان يتحرك كالثعبان من جانب إلى آخر،.فقد مزقه إربًا بالطعنات، وتركه كما هو معتاد أن يُترك الثور المفترس داميًا فى الميدان لعامــة الناس. بعدها انطلق لمساعدة الملك بقوة وحماس أكبر كما لــو كانــت المعركة ستبدأ حينذاك؛ لكن عندما رآه سليم، وعلى يديه قتل أربعة من المسلمين الشجعان الذين تركهم مخضبين بدمــائهم، قال بصوت عــالٍ إنه يستسلم، وهنا استعمل صلاح الريّس صفته كملك عظيم، مــع أنــه كان بربريًا، فعفا عنه، وأخذ منه فقط السيف المحدب والدرقة. انتــزع السيد فليكس من الموتى الدرق الذى تبعثر فى البطحاء، وأخــذ فــرس محمد، وربطه برباط، وبهذه الغنائم وباستحسان كبير من الملــك عــاد للمدينة، حيث أثارت رؤيتهما الدهشة، لأن المدينة لم تتلق أى أنباء عن المعركة. فليثيا، التى افتقدته كثيرًا، عندما علمت بالحدث ذهبت لتبحث عنه، وبعناق رقيق وبمغالاة كبيرة احتفلت بنــصره. قــدم ســالارّايث الكثير من العطايا للسيد فليكس لأنه سيظل فى تونس فى خدمته؛ لكنــه

---

(٩٠) سوفوكليس (٤٩٥-٤٠٦ ق.م) : شاعر مأساوى يونانى. يُحفظ من أعماله سبع مسرحيات مأساوية وجزء من مسرحية ساخرة. أعطى للمسرحية المأساوية شكلها النهائى.

يعلم، كإنسان عاقل، أنه سيكون معه، وهو غير مسرور بسبب حبه لوطنه، فأراد فقط أن يبقيه حتى يحتفل بزواجه من فاطمة الجميلة. فى هذه الاحتفالات أدهشت رشاقته وحسنه كل تلك البلاد، وكمعجزة من الطبيعة أتوا ليروه، فلم يلعب أحد ألعاب الفروسية بظرف أكبر منه، ولا قدم أحد دلائل على قوة ذراعيه أكثر منه. استعد للرحيل، وجاء الملك بسخاء وكرم، وأعطاه الكثير من الثروات، من الماس واللآلئ وغيرها الكثير والكثير من مختلف القطع والحلى من الفضة والذهب. وبكت سوسانا رحيل مندوثا، وعند وداعها لكى ترحل لإسبانيا مع السيد فليكس، أخبرتها سرًا بأنها امرأة، وبذلك شفت علة الحب فى لحظة، كما لو كانت معجزة. أعطى ديفيد، كشكر على إنقاذ حياته، للسيد فليكس هدايا ثمينة من الأقمشة، من الحرير والمجوهرات، وأعطت سوسانا لفليثيا خيطًا من اللآلئ التى تبلغ قيمتها سبعمائة أسكودو؛ لأنها كانت أصلية، ومتساوية ومستديرة، وبكثير من العناق والدموع ودع كل منهم الآخر. ثم اتجه فيليكس وفيليثيا نحو البحر، تاركين المدينة، التى كانت فى فترة من الزمن مشهورة جدًا بواسطة ميثبسا[٩١]، الذى عمَّرها باليونانيين، مع أنها اليوم لابد أن يكون بها أكثر قليلاً من ثمانية آلاف منزل، إذ إنها تحتفظ فى الحكايات بالشهرة لأنها كانت رأس نوميديا القديمة[٩٢]، التى تقع بين ليبيا والأطلنطى،

ملك نوميديا (١٤٨-١١٨ ق.م). ابن ماسينيسا وخال يوغورتا، الذى تبناه.

قديمة فى شمال أفريقيا، كانت تمتد من أراضى قرطاج حتى مولويا (فى شرق

سكان نوميديا، وهى فرية بربرية بدوية، أقاموا فى القرن الثالث ق.م مملكتين اتحدتا فى

حيث توجد مدينة قرطاج[٩٣] التى تستحق الذكرى الخالدة، ومأساة سوفونيسبا[٩٤]، وأبحرا بكل سعادة ووجّها تحية لإسبانيا.

وبقيا عدة أيام فى قرطاج؛ حيث كتب السيد فليكس رسالة إلى بيته من هذا المكان، وعندما وصل إلى مرسية، وصله الرد، الذى يلفتون نظره فيه إلى أنه أصبح سيدًا فى عائلته؛ لأن أخيه الأكبر قد مات دون أبناء. وهنا غيَّر مندوثا ملابسه، وأصبح يسمى فليثيا. ومن مرسية أخذها السيد فليكس لمكان فى إكستريمادورا؛ حيث كان مسقط رأس أبيها، وزوَّجها من رجل كريم الأصل فقير وحسن الشكل والمنظر، وأعطاه ستة آلاف من العملات المعدنية كمهر لها، على أنها ابنة عم له، وهو ما اعتقده بسهولة؛ لأنه كان يعلم جيدًا حُسن منشئها. وستظل لحضرتكم شكوك كبيرة عن حب فليثيا وصدود قزمان الشجاع؛ لأنه يبدو أنه فى بلاد المسلمين، مع كثير من الحرمان والوحدة، ولأنها كانت رفيقة أسره وعزاء المجهود الذى كان يبذله، فسيكون من الجحود عدم الاستجابة لإرادتها. أؤكد لحضرتكم أننى لا

= ٢٠٣ ق.م تحت سلطة ماسينيسا، حليف الرومان. نوميديا، ضعفت بسبب بعض النزعات بين الأسرات الحاكمة، وتم غزوها بعد ذلك بواسطة الرومان

(٩٣) قرطاج: مدينة فى شمال إفريقيا بالقرب من تونس الحالية. وقد أسسها مستعمرون فينيقيون من تيرو، وكان يرأسهم، طبقًا للأسطورة، ديدو، وتحولت قرطاج إلى عاصمة جمهورية بحرية قوية جدًا، حلت محل تيرو فى الغرب، وأسست مستعمرات فى صقلية وإسبانيا .

(٩٤) سوفونيسبا، قرطاج (٢٣٥-٢٠٣ ق.م) ملكة نوميديا. وزوجة ماسينيسا، وقد تناولت السم كى لا يتم تسليمها للرومان. وقد أوحت قصتها بعدة أعمال مأساوية لتريسينو (١٥١٥)، ومايرت (١٦٣٤) وكورنيللى (١٦٦٣).

أعرف، وأننى فى هذا الجزء أستطيع أن أقول فقط إن المعاملة قد جمعت على الصداقة حيوانات من أجناس مختلفة رغمًا عن الطبيعة، وعن ذلك لدينا أمثلة كثيرة. فقد كتب دانتى[٩٥] عن هذين الصهرين الذين عشق كل منهما الآخر، دون الاجتراء على أن يعترفا بحبهما، بسبب أنه كبير جدًا غشيان المحارم، والأخ الأمير العظيم، ولأنهما كانا دائمًا معًا يقرآن ذات يوم عن مغامرات عشق لانثاروتى ديل لاغو[٩٦] وملكة جنييف، كما يذبر بذلك فى كتابه *الجحيم*، وفى شخص السيدة البائسة:

ونحن نقرأ من أجل المتعة

عن لانثاروتى القصة العاطفية،

ونحن ملتهبين بالحب، يصرح كل منا عما بداخله للآخر.

---

(٩٥) دانتى: دانتى أليجييرى: (١٢٦٥ـ ١٣٢١)، كاتب إيطالى لعب دورًا أساسيا فى فلورنسا مسقط رأسه، التى عهدت إليه بمختلف البعثات الدبلوماسية. ومنذ شبابه قام بتأليف أشعار فى الحب والعشق *وأغانى* كان يتغنى فيها بعواطفه ومشاعره المثالية من أجل بياتريث بورتينارى. لكنه مؤلف على وجه الخصوص *للكوميديا الإلهية* (كتبت ابتداء من ١٣٠٦) ، التى حولته إلى أبى الشعر الإيطالى.

(٩٦) لانثاروتى ديل لاغو: شخصية روائية من مجموعة القصص التى تتعلق بالبطل الأسطورى الملك أرتورو. وقد رويت بطولاته ومآثره بواسطة كريتان دى ترويس فى *لانثاروتى* أو *فارس العربة* (١١٧٠).

ويخلد بترارك[٩٧] ذكراهما فى الفصل الثالث من *انتصار الحب*، قائلاً:

وهذان الاثنان من أريمينو ، يذهبان معًا،

يبكيان بكاءً حزينًا وموجعًا.

لأن الأخ الذى قتلهما كان أمير أريمينو؛

استُقبل السيد فليكس استقبالاً حسنًا فى وطنه؛ لأنه وصل إليـــه، بعد كثير من تمنى وصوله، غنيًا، وكريمًا، وجميلاً وفى أفضل مرحلة من عمره. استحوذ على نظرات عامة الناس، وخاصة هــؤلاء الــذين كانوا يحتاجون لمعروفه، لأنه كان متحررًا مع الجميع، بحيث إنه لــم تصل حاجة إلى أسماعه وترجع دون استجابة، فقد كان يساعد الفقراء، وكان يحل النزاعات، ويقضى على الخلافات، ويوفــق فـــى الــصلح والسلام، ولم يوجد فى كل المدينة مَنْ لا يحترمه. وكان السيد فلــيكس بين جمهرة الطلاب محبوبًا جدًا، حيث كانوا يحتفلون بأعماله بإصرار فى أبيات الشعر اللاتينية والقشتالية، وبعاطفة ملتهبة جدًا، وإذا حــدث ذات مرة أن حضر فى احتفال عام، كان الجميــع يهتفــون بــصوت مرتفع:

(٩٧) بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) شاعر إيطالى وعالم بالآداب الإنسانية، مؤرخ وعالم آثار وباحث فى المخطوطات القديمة، وكان من أول أعظم علماء الآداب الإنسانية فى عصر النهضة.

"يعيش السيد فليكس"، وكان من يغيب صوته عن هذا الصوت المشترك، مهما كان حرصه كانوا ينظرون إليه على أنه حقود.

كان مبارزًا شجاعًا، وثابتًا وصادقًا، ولم يوجد رجل يقارن به فى حمل الأسلحة. فقد كان يتسلح فى كثير من المرات بقطع ثقيلة جدًا، وكان يلقى بنفسه وهو يحملها على الأرض، وكان ينهض بقفزة واحدة وبخفة غير معقولة. وكان يبحث عن الخيول النافرة التى لا يرغب أحد فى ركوبها، وعلى هذه الخيول كان يركب، وكان يروضها ويمسكها بقوة الساقين، بحيث إنها كانت تبدو كأنها ترتعد منه، وهى مرتعشة ومنكمشة، كانت تخضع له، وكان يلعب بسيفين وبهراوتين ببسالة ومهارة واضحتين، وفى وسط هذه الشراسة والشجاعة، كان يكتب وكان يتحدث برقة.

كان السيد فليكس فى غفلة عن قوة وعنف الحب، ومتأكدًا من حظ وطنه، فهو- الذى ولد قويًا جدًا ومارس الكثير من الحريات- استسلم لطفل، لكنه طفل قديم جدًا، ليس له من الزمن إلا ساعتان خلال سنوات كثيرة. كم رسم بروعة ألثياتو قوته، إما ملجمًا للأسود، أو محطمًا للصواعق!

بالشعاع السريع

يحطم الحب القسوة؛

لأن الحب أقوى.

كانت إسبيًا سيدة أنيقة جدًا، وشقيقة لفارس شجاع، كان يــدعى ليوناردو، وكان من أنبل مَنْ يعيشون فى تلك المدينة، فى إسبانيا كلها. حاول فليكس ألا يفطن إليه أحد، وكان يتحكم فى سره بتعقل وحرص، واستمال بشرف رغبتها كى يستحقها للزواج، ولم يصل إلى أكثر مــن التحدث بالعيون، وكان يتعلل بوجود سيدات أخريــات فــى شــارعها فيهدى لها بعض الموسيقى، وكان من بينها هذه الأبيات التى تغنوا بها ذات ليلة هكذا، أذكرها كى تستريحوا حضرتكم من النثر المطول جــدًا مع اختلاف أبيات الشعر:

فى هذه الحقول الخضراء،

التى يرويها نهر مانثاناريس(*)

بدموع عينى

إذ ليس فيه ماء.

فى هذه الوحدة؛

حيث تخفف البلابل

أحزانى الرقيقة

بالشكوى من الحب.

بين الغصون الجافة

(*) المعروف عن نهر مانثاناريس فى مدريد أن مياهه قليلة إلى حد التندر به. (المراجع)

لهذه الغابة المتوحشة،

غاب عنها منذ زمن بعيد

ربيعها المعشوق.

وتنمو فقط شجرة سرو،

على أنها شجرة الحزن،

وتفخر بالمنافسة

فى تقليدها لحزنى.

يا فيليس الجميلة، أشكو

من الحب فى غيابك؛

لأن البعيد جدًا

يعشق بقوة أكبر.

آه يا بحر إسبانيا، أقول،

إذا داست ضفافك

تلك الفلاحة

التى كانت مجد هذه الضفاف.

هكذا، برشلونة الشهيرة

فستثرى الجدران،

بمرجان أكثر من الرمال الموجودة على شاطئك.

فاليوم وأنت أكثر شراسة

تغسل أمواجك الصافية

وجه النجوم

بغطرسة كبيرة.

وتقول لها: "يا فيليس الجميلة،

هذا يسمونه عاصفة

غابت عن وطنها،

وتبحر عن طريق البحر.

لكن الذى يعانى منها

هو مَنْ يُحب ومن يتمنى

الوصول إلى ميناء ذراعيك،

اللذين يرفضان بكل صرامة.

أنت، عندما ترفع المياه،

كسلسلة الجبال المتجمدة،

تنهار من ذاتك أنت،

حيث تموت هى بفنائك.

الشك الغيور،

لا يعادل الجبال فى وزنه

الأمان الذى وعدتنى به فيليس.

تسمح بأن أشواقى

تهزم رمالك،

لكنك لن تملك الرمال،

فقد حولتها هى إلى لآلئ.

آه يا إلهى! يا فيليس الحسناء،

أى راع أخبرنى،

من بين الكثيرين، أنه فى نهر التاخو

يقدرون العرافين؟

فحيث تنتهى إسبانيا

ويبدأ البحر الشرس،

ستصل صورك

وشكواى المرة.

آه يا إلهى!، لو أنك تذكرت

أنه فى هذه المروج

غسلت أنا وجهك

بدموع رقيقة جدًا،

وعندما سقطت على وجهى

من وجهك بعض منها،

ظننت أنا أن من الحزن

كانت تبكى النجوم!

هنا تتركنى أموت،

فليست لى حياة

لكى أعود لأراك.

فإذا تأخرت، يا محبوبتى فيليس،

فالموت سيكون أقرب،

فالذين يعيشون تعساء

يكون الموت عزاءهم".

عَبْر هذه الموسيقى، ولو أنها بكلمات بعيدة عن القصد، ومكتوبة لمختلف المناسبات؛ لبعض الحلقات، والمبارزات، والبطولات الرياضية وغيرها من الاحتفالات، وصل إلى علم ليوناردو أن السيد فليكس يغازل أخته، وهو ما يسمونه الآن "استمالة"، فكل زمان يجلب كل جديد لديه. فتضايق؛ لأنه كان رجلاً متحفظًا جدًا وفارسًا كبيرًا، ولكي يكون ضيقه بديهيًا مع شخصية لها استحسان عام، فقد وضع إسبيًا رغم إحساسه بالألم فى أحد الأديرة. لكن السيد فليكس تفاوض فى هذه المسألة التى تخص ليوناردو الذى أقر بأنه قد فهمها؛ لأن إسبيًا عندما رأت أنها مرهونة، مع أنها لم تعط فرصة، مالت روحها لأن تكون زوجة للسيد فليكس، وحاولت ذلك عن طريق شخصيات نبيلة، فخرجت من الدير وتزوجا. ولم يقدم ليوناردو أمام ذلك مقاومة كبيرة، وذلك بسبب وضع السيد فليكس، وأيضًا لأنه رجل عاقل وفطن، علم بأنه لا يستطيع أن يمنع الزواج إزاء رغبتين متعادلتين، من أجل تلك الحكمة العظمى بأن الإنسان لا يستطيع أن يفرق ما يجمعه الرب.

زادت كثيرا شهرة السيد فليكس، وهو يغزو قلوب المواطنين والطلاب وأرواحهم، بالكثير من التصفيق والهتاف، بما لا يسمح لبعض الفرسان من المدينة بأن يؤذوا سمعته، فاجتمعوا على قتله، ومع أن أحد الغلمان قد حذره من هذا التدبير، فإنه لم يرغب فى أن يقى نفسه ولا أن يحترس، وهكذا فقد سددوا له أكثر من أربعين طعنة من بين الكثير، حتى سقط على الأرض؛ حيث حملوه إلى إسبيًا دون أمل فى حياته.

هنا ينطبق جيدًا ذلك التحول الذى حدث لسيد عظيم فى إيطاليا، كان يقرأ ذات ليلة فى كتاب "*أماديس دى جاولا*"، دون أن يلتفت إلى كثرة الخدم الذين كانوا ينظرون إليه ، فى الفترة التى وصل فيها فقير اسمه بالتينيبروس ليراه، فبدأ فى البكاء، وضرب الكتاب ضربة، وقال:

ملعونة هى السيدة التى عملت على القضاء عليك.

إذن لا تحزنوا حضرتكم، فإن السيد يمر بفترة نقاهة، فلم تفقد الشجاعة بسبب الطعنات، وقوة الروح أمسكت بالحياة، ففى غيره كان ذلك مستحيلاً، ولم يحدث ذلك دون دهشة الطبيعة.

وعندما رأى نفسه يتمتع بالحياة، ثبّت ذات ليلة خيمة فى الميدان، مغطاة بمختلف أنواع الأسلحة، وأصبح هو عند الباب ومعه علب كثيرة وأبواق، ومسلّح بقطع بيضاء وذهبية، ويحمل على رأسه زينة من الريش المبهر الخفيف، وألوان الريش تتراوح بين الشقراء الضاربة إلى السواد والبيضاء، والتنورة القصيرة والسروال المطرز بالألوان نفسها، الذهبية والفضية، والحذاء الأبيض والرقبة، ويحمل رمحًا على كتفه، وبيده اليسرى يمسك بالسيف، وفى درع من الفولاذ كان يعلقه على شجرة بثلاثة أربطة، ذات ألوان شقراء ضاربة إلى السواد وبيضاء، ووضع عليه لافتة تعلن التحدى. كان السيد فليكس يبث الرعب بالوقفة التى كان عليها، فحافة القبعة مرفوعة؛ حيث كان يكتشف فقط من خلالها الشارب الأسود والعيون الغاضبة وتلك النظرات التي تشبه أشعة حداد الموت الذى كان يهدد به. ظل هناك

ثمانية أيام، دون أن يخرج فارس إلى مكان المسابقة والرمال، كما كان يقول القدماء، وعند نهاية هذه الأيام أتى خادم مع سيده ، الذى كان مسلحًا ويمتطى جوادًا، وضرب على الدرع الذى كان يحمل لافتة التحدى. فخرج السيد فليكس من الخيمة تبارز على ثلاثة رماح مع هذا السيد كريم الأصل، ومحطمًا قوته فى آخر رمح، طارت الشظايا فى الهواء، واهتزت الأرض. فحملوه إلى بيته، تصحبه كل المدينة، بين الكثير من آلات الحرب، والتهانى والهتافات، حيث ظل عدة أيام، وعند نهايتها لفت بعض الحاقدين انتباه ملك إسبانيا إلى ذلك التحدى العلنى، مع أنه فى الواقع فضيلة كبيرة جدًا لابد أن تخلو من الحقد، لكنهم اتهموه بالذنب، وأيضًا ، بأنه أراد إثارة تلك المدينة الشهيرة ضد الملك. وذهب محقق لإجراء التحريات، وبما أن الحقد لم يعوزه قط شهود، فقد وجدوا شهودًا لذلك، وحُكم عليه بقطع رأسه على سقالة إعدام علنًا، وأحضروه لهذا السبب إلى القصر الملكى. لكن عندما وصلت أخبار ذلك الفارس العظيم جدًا وأعماله إلى صاحب السعادة السيد لويس إنريكى دى كابريرا، القائد الأعلى لقشتالة، ودوق مدينة وكونت موديكا، وجدّ مَنْ ورث الآن بيته العظيم بكل كرامة وعزة كأمير كريم جدًا، ذهب لرؤيته فى السجن، وعندما علم بقيمته وفضائله، بعد قراءة وثيقة كانت لديه من السيد خوان دى أوستريا، وهى شهادة على البطولة التى أخضع بها السفينة التى أشير إليها من قبل، تحمّس له كثيرًا، وطلب من جلالة الملك أن يعفو عنه؛ والملك، لم يكن قط دون أعداء، فمنحه الحياة، بشرط عدم دخوله تلك المدينة. فذهب

ليعيش فى أماكن لم تكن بعيدة عنها. مع أنه بعد ذلك، وبمعروف من السيد لويس إنريكى نفسه ، الذى تولى حمايته لكونه مسعى يستحق عظمته، سمحوا له بالعودة إلى مدينته، حيث عرفته أنا، فى سنوات عمره المتقدمة، لكنه كان يتمتع بالحماس نفسه؛ لأن عيب طبيعة الجسد لا يقلل من قيمة الروح.

هذه، يا سيدة ماريثا، هى قصة قُزمان الشجاع، فإذا كانت بالنسبة لحضرتكم قليلة الحب وكثيرة السلاح، فاعتبروا أنكم مدعوون لقراءة *"راعى جالاتيا"* ، وهى رواية ستجدون فيها كل ما يمكن: الحب، ملك العواطف الإنسانية، وما يمكن أن يحدثه الشعور بالغيرة، وهى ابنة غير شرعية للحب، وابنة عدم الثقة، والاشتياق للتفاهم. ستجدين أيضًا غضب السلاح وقلق الحروف، لكنه ليس فى هذا الكتاب، بل فى الكتاب الذى سيخرج بعد ذلك، واسمه *"إكليل غار أبوللو"* .

المؤلف في سطور :

لوبى دى بيغا

الكاتب الإسبانى لوبى دى بيغا غنى عن التعريف ، فهو رائد المسرح الإسبانى فى عصره الذهبى ، وهو الذى وضع قواعده التى سار عليها فيما بعد ، وهو شاعر برع فى هذا اللون الأدبى، ثم إنه كتب الرواية والقصة القصيرة ، وفى مقدمة المراجع ودراسة المترجمة مزيد من المعلومات .

المترجمة في سطور :

سلوى محمد محمود أحمد

مدرس بقسم اللغة الإسبانية فى كلية الآداب – جامعة حلوان .

حصلت على شهادة الليسانس في كلية الألسن – جامعة عين شمس بمرتبة شرف .

حصلت على ماجستير الألسن فى الترجمة الفورية بتقدير ممتاز .

حصلت على ماجستير أوتونوما عن فن القصة القصيرة بتقدير ممتاز .

حصلت على درجة الدكتوراه فى جامعة أوتونوما بمدريد بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف بإجماع اللجنة .

من أعمالها :-

ترجمة كتاب " نزعة الجروتسكية الحديثة " للكاتبة إليانا أثور، القاهرة ، وزارة الثقافة ، المجلس الأعلى للثقافة .

تأليف قصة " جزيرة العجائب " التى فازت فى التصفيات النهائية لمهرجان القصة القصيرة عام ٢٠٠٥م على مستوى جامعة أوتونوما فى مدريد ، ونشرت ضمن مجموعة قصص قصيرة من إصدارات الجامعة .

ولها عدة مقالات .

المراجع فى سطور :

جمال أحمد عبد الرحمن

من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).

حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف ١٩٧٩ من كلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلامنكا ومدريد .

حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية ١٩٨٩ .

فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى، والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية .

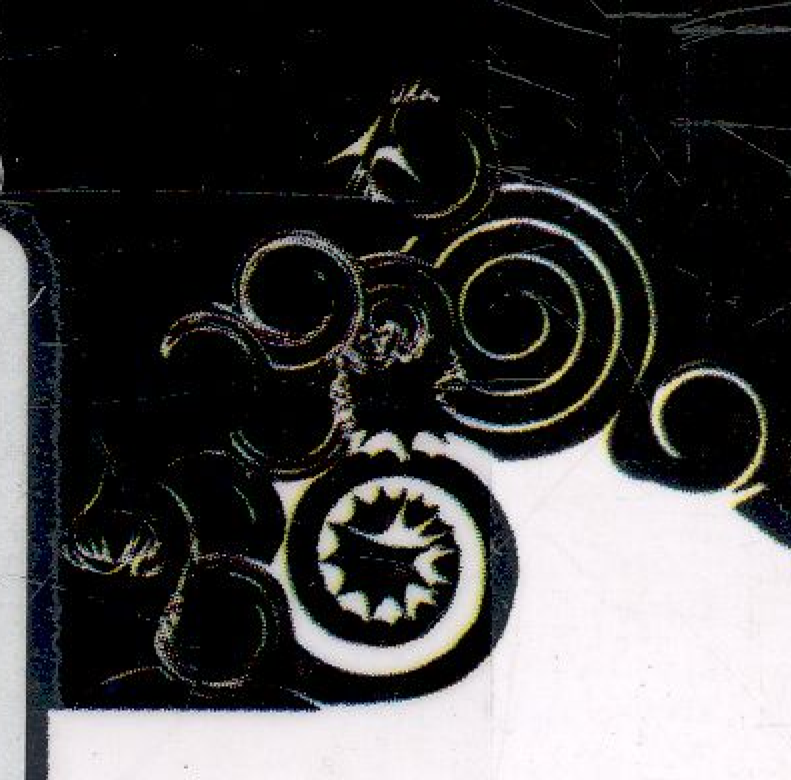
التصحيح اللغوى : علا صابر

الإشراف الفنى : حسن كامل



عرفنا لوبى كاتبًا مسرحيًا وعرفناه شاعرًا، أما إنتاجه القصصى فلم يحظ باهتمام كبير أو صغير، على الأقل فى عالمنا العربى. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كتب تاريخ الأدب الإسبانى تغفل الحديث عن لوبى قصاصًا، ربما لأن الحديث عن المسرح يحتاج إلى صفحات كثيرة ولا يريد المؤلفون أن يثقلوا على القارئ، وربما لأن لوبى كان معاصرًا لمؤسس الرواية فى إسبانيا — وفى أوروبا — ميغيل دى ثيربانتيس سابيدرا، الذى تتضاءل بجواره قامات كتّاب الرواية الآخرين.

نقدم للقارئ العربى كتابًا مثيرًا يثبت فيه لوبى دى بيغا — فى رأينا — أن انشغاله بالمسرح هو الذى حال دون أن يكون له شأن عظيم فى عالم الرواية، ونرى من خلاله أن القضية الموريسكية لم تغب يومًا عن اهتمام الكتّاب الإسبان الذين عاصروا مأساة المسلمين فى الأندلس بعد سقوط دولتهم وبعد مرور أكثر من قرن على غروب شمس الإسلام عن أوروبا.





تصميم الغلاف: سارة صالح

الإبداع القصصى